التاريخ اليوناني

العصر الهللادي

(١)

دكتور
عبد اللطيف أحمد علي
استاذ التاريخ القديم بجامعة القاهرة
وجامعة بيروت العربية

١٩٧٦

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص. ب ٧٤٩

التاريخ اليوناني

التاريخ اليوناني

(العصر الهللادي)

(١)

دكتور
عبد اللطيف أحمد علي

أستاذ التاريخ القديم بجامعة القاهرة
وجامعة بيروت العربية

١٩٧٦

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص. ب ٧٤٩

الى :

محمد زکی شافعی

AMICO CARISSIMO :

« Cognovi te gratissimum omnium.
Est mihi iucunda in malis et grata
in dolore tua erga me voluntas ! »

DEDICATVM

رمز صداقتنا الوطيدة !

بيروت
آذار (مارس) ١٩٧١

ع.أ.ع.

الفصل الأول

« دولة المدينة » اليونانية

— ١ —

أثر البيئة الطبيعية

الموقع الجغرافي :

يرتبط تاريخ أوروبا ارتباطاً وثيقاً بتـــاريخ الشرق الأدنى القديم . وكان تاريخ الشرق القديم تاريخاً عالمياً إذ سيطرت ممالكه — كل بدورها — على معظم العالم المعروف وقتذاك أو امتد تأثير حضارتها إليه . وكانت بلاد اليونان (بلاد الإغريق أو هِللاس) [١]، بمفهومها الجغرافي الواسع، هي أول منطقة في أوروبا

---

(١) لم تكن هذه البلاد قد عرفت بعد بأي من هذه الأسماء في عصر هوميروس (القرن التاسع أو بداية الثامن ق.م) الذي يطلق عليها اسم أخاييس (Achaiis) وهي صفة مؤنثة لكلمة أرض (gaia) أو وطن (patris) المقدرة (بمعنى الأرض الأخايية أو وطن الأخايويين) . لكنه لا يقصد به كل بلاد الإغريق ، بل قسمها الشمالي فقط حيث كانت توجد منطقة في جنوب شرق إقليم تساليا عرفت باسم أخيا (Achaia) أو افثيا (Phthia) أو أخيا افثيوتيس (Achaia Phthiotis) ، وهي موطن أخيليوس (أخيل) بطل ملحمة الإلياذة . كذلك يسمي هوميروس البلاد أحياناً باسم أرجوس (Argos) ، وهي إحدى مدن إقليم أرجوليس في البلوبونيز (شبه جزيرة الموره) ، وموطن البطل ديوميديس ، وكانت =

تتأثر بهذا التاريخ العالمي الذي وفد إليها من أقطـــار الشرق الأدنى . وإذا

= متاخمة لمدينة أو ميكيناي(Mukénai -Mycenae)، عاصمة مملكة أجاممنون، القائد الأعلى للحملة الطروادية ، والتي كانت أقوى ممالك بلاد الإغريق في ذلك الحين . وبالتالي فإن هوميروس يطلق اسم أرجوس على كل البلوبونيز ، بل إنه يقرنه في موضع بهللاس قاصداً بلاد الإغريق عامـــة .

– ولا يطلق هوميروس اسم هللاس (Hellas) إلا على منطقة صغيرة متاخمة لمملكة أخيل السالفة الذكر في جنوب شرق ثساليا ، ولا اسم الهللينيين إلا على سكان هذه المنطقة ، وإن يكن قد ورد في موضع واحد من الإلياذة (ك ٢، بيت ٥٣٠) اسم بانهللينيين (Panellênes) بمعنى اتحاد الإغريق .

– ولم يعرف اليونان عامة باسم الهللينيين (Hellênes) إلا منذ أوائل القرن السابع ق.م (عند الشاعرين أرخيلوخوس وهيسيود).

– وأما الإغريق (Graeci) فهو اسم أطلقه عليهم الرومان فيما بعد نسبة إلى الجرايين (Graioi) ، وهم جماعة من شرق إقليم بويوتيا ببلاد اليونان كانوا قد اشتركوا (مع أهل خالكيس) في تأسيس مدينة كيمي (Kumê) أو كوماي (Cumae) ـ كما كتب اسمها الرومان ـ على الساحل الغربي لإيطاليا ، وهي أقدم المستعمرات اليونانية هناك (٧٥٠ – ٧٢٥ ق.م) . ولم يلبث الرومان أن أطلقوا على جميع سكان تلك المستعمرة اسم الإغريق ، وبعدئذ أطلقوه على كل سكان بلاد اليونان .

– وأما عن اسم « اليونان » أو « اليونانيين » الشائع في اللغة العربية فهو تحريف للفظ أيونيين (Iônes) . وكان الأيونيون (إغريق ساحل آسيا الصغرى الغربي) يعرفون في اللغة الإغريقية المبكرة باسم ياؤنيين (Iaones) ، وهو اسم لم يرد في الإلياذة إلا مرة واحدة. ويظن أنه مقحم على البيت الذي ورد فيه . وكانوا هم أول إغريق احتكت بهم ممالك الشرق الأدنى القديم ، ومن ثم فقد أطلقت عليهم شعوب هذه الممالك اسم ياؤنيين مع تحريفه بما يتفق وطبيعة لغة كل شعب من هذه الشعوب فصار ينطق تارة يفـــاني (Yavani) ويوانا (Yauna) ويونان (Yunan) . ولعل الاسم المحرف قد ظهر أولاً في قبرص التي كانت لها صلات قوية مع أوجاريت(راس شمره)على ساحل سوريا المواجه لها، وكانت أسبق من مدن أيونيا نفسها في إنشاء علاقات مع هذا الساحل . وأما الأشوريون الذين هاجموا مستعمرات اليونان على الساحل الفينيقي (أشدود) في عصر سرجون الثـــاني (٧٢٢ – ٧٠٥ ق.م) فقد عرفوهم باسم « يماني » (Yamani) .

– وفي هذا الكتاب تستعمل الصفات « هلليني » و « إغريقي » و « يوناني » كلهـــا بمعنى واحد . (وعن هذه التسميات ، أنظر أيضاً ص ١٠٥ – ١٠٩ فيما يلي)

تصورنا تاريخ العالم كأنه رواية متصلة ، فإن الفصل الأول من هذه الرواية لم يتم تمثيله في أوروبا ، وإن كانت أوروبا هي التي حددت مجرى الفصول التالية . ذلك أن الشرق القديم الذي كان يمتد من سواحل البحر الابيض المتوسط شرقاً إلى خط لا يبعد كثيراً عن الحدود الغربية للهند ، لم يكن عالماً مستقلاً بذاته أثّر في أوروبا من الخارج فقط أو كان مجرد ميدان للنشاط الاستعماري والتوسع الحضاري على يد الأوربيين ، بل كان ينتمي في العصور القديمة إلى نفس المنطقة الجغرافية التي ينتمي إليها التاريخ العالمي الآخر ، تاريخ اليونان والرومان، الذي شملت حضارته — وهي أساس الحضارة الاوربية أو الغربية — كل العالم المعروف أو معظمه . ولهذا السبب أصبحت المنطقة التي تقع على الحدود بين أوروبا وآسيا، وهي البحر الإيجي والدردنيل والبسفور، أول مسرح ظهر عليه التاريخ الأوربي.

كان البحر الإيجي الذي يزخر بالجزر بمثابة الجسر الذي ربط بين هاتين القارتين ، وبالتالي بين حقبتين من حقب التاريخ العالمي . وقد تسلطت جميع أضواء التاريخ على هذه المنطقة التي هيأتها الطبيعة لتكون معبراً من آسيا إلى أوروبا ، فعلى أحد جانبيها يقع ساحل آسيا الصغرى الذي يتوغل نحو الغرب بما فيه من خلجان وموان كثيرة تتميز بوقوعها عند مصبات الأنهار الخصبة، أي عند نهاية الطرق التجارية الآتية من موطن حضارات الشرق القديم ، وعلى جانبها الآخر تقع بلاد اليونان ، وهي أقرب أشباه الجزر في أوروبا إلى الشرق. وقد أقامت الجزر العديدة المتناثرة بهذه المنطقة عدة قناطر عبر المساحة الضيقة التي يشغلها البحر الإيجي. وفي الجنوب تقع جزيرة كريت عند مفترق الطرق بين قارات ثلاث ؛ أما في الشمال ، بين البحر الإيجي والبحر الأسود ، فلا يفصل أوروبا عن آسيا سوى مضيقين هما البسفور والدردنيل. وقد التقى الشرق بالغرب في جميع أجزاء هذه المنطقة، وعبر هذه المنطقة انتقل الناس من آسيا إلى أوروبا ومعهم انتقلت التجارة والمكتشفات الجديدة ، وكذلك المعتقدات الدينية والأفكار الفلسفية. وفي الحق إن الموقع الجغرافي الذي حبت به الطبيعة بلاد اليونان

جعلها ذات أهمية قصوى من الناحية التاريخية، ولم تلبث أن صارت بمثابة المخفر الأمامي لأوروبا. ولما كانت هذه البلاد عرضة للغزو فقد أصبح الدفاع عنها أمراً حيوياً بالنسبة لهذه القارة. وإذا نظرنا إلى بلاد اليونان من ناحية آسيا نجد أنها كانت تقع على الطرف الغربي للعالم المتمدين، ولهذا تعرضت للمؤثرات الوافدة من هذا العالم تعرضاً مباشراً. وعلى الرغم من أن بلاد اليونان لا تعزلها عن وسط أوروبا عزلاً تاماً حواجز مثل الألب أو البرانس فإنها تعتبر مكشوفة من ناحيتي الشرق والجنوب، وكأنها اليد التي تمدهـا أوروبا نحو آسيا. ولم تكن حصناً في وسعه أن يصد هجوماً من جانب عالم متبربر معاد، بقدر ما كانت سوقاً تنبض بالحياة النشطة المتنوعة.

ومع أن الموقع الجغرافي قلما يتغير، إلا أنه في وسعنا أن نقول إن موقع بلاد اليونان قد تغير خلال العصور التاريخية تبعاً لما طرأ على النظريات الجغرافية من تغيير. لقد نظر الجغرافيون القدماء إلى موقع بلاد اليونان من زاوية مختلفة، لأن تصورهم للعالم كان مختلفاً عن تصورنا. فلم تكن أوروبا في نظرهم هي تلك القارة التي تقع بين القطب الشمالي والمحيط الأطلسي والبحر المتوسط، بل كانت تتألف فقط من السواحل الشمالية للبحر المتوسط والبحر الأسود، وبمعنى آخر تتكون من أشباه الجزر الثلاث: بلاد اليونان وإيطاليا وأسبانيا التي تقع وراءها بلاد لم تكن معروفة تقريباً. ولم تكن آسيا بالقارة الهائلة التي نعرفها اليوم، بل كانت تتألف على الأخص من الجزء الغربي من شبه الجزيرة المسماة بآسيا الصغرى ومن سواحل سوريا وفينيقيا والمنطقة الخلفية لها التي لم تكن تمتد حسب تصور القدماء مسافة بعيدة وراء بلاد الرافدين، والتي كان اتصالهـا ميسوراً بالبحر المتوسط. وأما الهند فظلت بلاداً عجيبة شبه خرافية تقع في الطرف الأقصى من العالم، على حين أن أفريقيا التي أطلق عليها الإغريق اسم ليبيا وهي المنطقة الوسطى من ساحل أفريقيا الشمالي، لم تكن تتألف إلا من هذا الساحل، وهو الحافة الجنوبية من حوض البحر المتوسط — هذا على الرغم من المحاولات المبكرة

التي قـــام بها المصريون والقرطاجنيون للملاحة حول القارة وأصابوا منها بعض النجاح .

البحر المتوسط مركز العالم اليوناني :

لقد قامت إذن جميع النظريات الجغرافية القديمة على أساس أن البحر هو مركز الأرض . وفي الحق إن انفصال القارتين آسيا وأوروبا ، نشأ في الأصل عن تقسيم مفتعل للأراضي المحيطة بالبحر المتوسط إلى جزأين، إذ اعتقد هكاتايوس (Hecataeus)[١] أن الأرض قرص مستدير يقع مركزه في دلفي (Delphi) وقسمها إلى جزأين متساويين ، نصف شمالي وهو أوروبا ، ونصف جنوبي يشمل آسيا وليبيا . وهكذا انتهك الحقائق الجغرافية انتهاكاً صارخاً من أجل نظرية نبعت من تصوره للأرض في شكل رقعة منتظمة حول مركز . ومع أن هيرودوت (Herodotus)[٢] يسخر من هكاتايوس إلا أنه تأثر هو ومن جاء

(١) جغرافي ومؤرخ من مدينة ميليتوس (ملطية على ساحل أيونيا) عاش في أواخر القرن السادس وأوائل الخامس ق٠م ٠ وضع كتاباً بعنوان « رحلة حول الأرض » (أوروبا وآسيا ، ومصر وليبيا) ٠ ورسم خريطة للعالم المعروف في وقته ٠ كذلك ألف كتاباً عن « أنساب الأسر وأخبارها » ٠

(٢) المؤرخ الشهير « بأبي التاريخ » ٠ ولد في هاليكرناسوس (على ساحل آسيا الصغرى الغربي) حوالي عام ٤٨٤ ق٠م ومات حوالي عام ٤٢٤ ق٠م بمدينة ثوريي (وهي مستعمرة أثينية شهد هو تأسيسها في جنوب إيطاليا عام ٤٤٣ ق٠م) ٠ وقد زار - إلى جانب جزر البحر الإيجي وبلاد الإغريق وجنوب إيطاليا وبرقة - بعض أقطار الشرق القديم (مصر وفلسطين ولبنان والعراق) وبعض أنحاء آسيا الصغرى ، ومنطقة شمال البحر الأسود ،وطراقيا. ووصف هيرودوت أحوال هذه البـــلاد وشعوبها وصفاً مسهباً كمقدمة لتاريخه عن الحروب الفارسية (الميدية) التي نشبت بين اليونان والفرس (٤٩٠ - ٤٦٧ ق٠م) بسبب الثورة الأيونية (٤٩٩ - ٤٩٣ ق٠م) ٠ وتحتل هذه المقدمة الطويلة الزاخرة بالأخبار الشائقة ما يزيد على نصف كتابه.

— ولعل القارىء يلاحظ أن التواريخ الواردة في هذا الكتاب كلها قبل الميلاد ما لم ينص على غير ذلك ٠

بعده من الكتاب بهذه النظرية . فقد تصور كل من اليونان والرومان الأرض المسكونة أو المعمورة (Oikoumenè) في شكل منطقة من اليابسة تنتظم حول البحر المتوسط . وظل هذا الاعتقاد سائداً منذ البداية إلى أن أصبحت « المعمورة » هي الإمبراطورية الرومانية العالمية . وكان الاستثناء الوحيد هي إمبراطورية الإسكندر الاكبر التي اتخذت شكل الإمبراطورية الفارسية،فكانت في جوهرها قوة « قارية » . ونجد اليونان ومن بعدهم الرومان كثيراً ما يصفون البحر بأنه بحرنا « Mare nostrum »،وهي نظرية سيطرت على سياسة روما ووجهتها ضد قرطاجنة،وكان هدفهاالأخير هو خلق حلقة محكمة من السواحل المحيطة بالبحر لا تستطيع قوة أجنبية أن تنفذ منها . نحن إذن على صواب إذا رأينا في هذه النظرية شيئاً مميزاً للعالم الكلاسيكي وأساسياً بالنسبة له، فالحضارة اليونانية — الرومانية التي ترتكز على البحر ، تتميز عن كل من حضارة الشرق القديم التي ترتكز على النهر ، وحضارة العصر الحديث التي ترتكز على المحيط بعد اكتشاف القارات الجديدة .

ولنتوقف هنا لحظة لنقول كلمة عن البحر الذي لم يجد له اليونان والرومان اسما أفضل من « بحرنا » . هذا البحر مغلق من جميع جوانبه إلا عند الدردنيل في الشرق ومضيق جبل طارق في الغرب . غير أن سرعة التيارات المائية وشدة الرياح عند هذين المنفذين تجعلان الملاحة عسيرة على السفن المتجهة إلى البحر الأسود أو إلى المحيط الاطلسي. ولذلك ظل الإغريق لا يعرفون عن هذا المحيط إلا النزر اليسير حتى العصر الهللينستي [1] . وكانت معلوماتهم لا تتعدى مضيق جبل طارق الذي عرفوا صخرتيه باسم « عمودي هرقل » . ولم تكن صعوبة الملاحة في هذا المضيق هي وحدها سبب جهل الإغريق بالمحيط الأطلسي ، بل كان من أسبابها أيضاً تحكم القرطاجنيين فيه ، إذ كان من مصلحة قرطاجنة

(١) كان الكتاب اليونان يسمونه « بالبحر الداخلي » ، وكذلك الرومان (Internum Mare) . وكان أول من سماه « بالبحر المتوسط » هو الجغرافي الروماني سولينوس في أوائل القرن الثالث بعد الميلاد .

(٢) هو العصر التالي لموت الإسكندر الأكبر (٣٢٣ ق.م) .

إقصاء منافسيها عن المحيط ، حيث كانت سفنها تتنقل بين سواحل أسبانيا وأفريقيا حتى أنها بلغت انجلترا شمالاً ووصلت إلى سيراليون جنوباً . وقد وصلنا كتاب باسم « دليل الملاحة » كان القصد منه إرشاد السفن التي تسير بمحاذاة الساحل الغربي لأفريقيا . وهذا الدليل مكتوب باليونانية ولكنه منقول عن البونية وينسب إلى هنّو (Hanno) القرطاجني الذي عاش في أواخر القرن السادس ق.م.

والملاحة في الدردنيل والبسفور أشق منها في مضيق جبل طارق . كانت العقبة الرئيسية في الدردنيل (Hellespontus) هي الاستدارة حول رأس سيجيوم (Sigeum) التي احتلها الطاغية بيسستراتوس (Peisistratus) في بداية سيادة أثينا البحرية [١] ، فعند هذه الرأس الواقعة على الساحل الآسيوي تشتد سرعة التيارات المائية اشتداداً يعرض السفن للخطر . ويعزو بعض المؤرخين أهمية طروادة (Troia) في العصور الأولى إلى هذه الظاهرة [٢]. ذلك أن السفن لم تكن تحاول ، نظراً لصغر حجمها ، أن تدور حول رأس سيجيوم ، بل كانت تفرغ حمولتها في الخليج الصغير المواجه لجزيرة تنيدوس (Tenedos) ثم تنقل البضاعة براً إلى الخليج الواقع على الجانب الآخر . ولما كانت طروادة تقع على تل يسيطر على هذا الطريق البري ، فمن الجائز أنها فرضت مكوساً جمركية على كل من يستخدمه [٣]. والملاحة في البسفور (Bosporus) أشق منها في الدردنيل ، إذ أن هذا الممر الملتوي يمتد حوالي خمسة عشر ميلاً ، ويتراوح عرضه بين ميل وربع ميل ، ويشتد فيه التيار تبعاً لذلك . وقد أسس الإغريق على ضفتيه مستعمرتين هامتين هما بيزنطة (Byzantium) على الجانب الأوربي وخلقدونية (Chalcedon) في مواجهتها على الساحل الآسيوي . وكان الوصول إلى الأولى

---

(١) في النصف الأخير من القرن السادس ق.م .

(٢) تقع طروادة (التي يسميها هوميروس غالباً إليوس أو إليون) في الركن الشمالي الغربي من آسيا الصغرى على مسافة قصيرة من مدخل الدردنيل .

(٣) هناك بين الباحثين من يشك في ذلك لعدم وجود ما يؤيده .

أيسر منه إلى الثانية لأن طريق الملاحة الطبيعي في بحر مرمرة (Propontis) هو أن تلتزم السفن ساحله الشمالي لا الجنوبي .

وثمة ملاحظة أخرى عن البحر المتوسط، وهي خلوه من حركات المد والجزر القوية . وقد يسّر ذلك استخدام المواني والمراسي وبناء الأحواض وتخطيط المدن الساحلية . ولا تجد المراكب فيه أي صعوبة كبيرة سواء عند الإقلاع من الميناء أو الرسو على الشاطىء . غير أن ضعف حركة المد والجزر وبالتالي ضعف حركة الرياح ، كثيراً ما سبب المتاعب للملاحين الإغريق عند الخروج من المواني إلى عرض البحر . وإذا كان البحر المتوسط خالياً من حركات المد والجزر القوية فهو لا يخلو من التيارات التي كان على الملاحين أن يحترسوا منها. وأشهرها وأخطرها تيار مضيق مسينا بين إيطاليا وصقلية ، وتيار يوريبوس (Euripus) عند مضيق خالكيس (Chalcis) بين جزيرة يوبويا (Euboea) وبويوتيا (Boéotia) . وقد اشتهر المضيق الأول في الأساطير اليونانية باسم سكيللا وخاريبدس (Scylla & Charybdis) وهما صخرتا المضيق التي تقع إحداهما عند مسينا والأخرى عند ريجيوم (Rhegium) ويضرب بهما المثل عند الوقوع في مأزق لا مخرج منه [1] . وقد نجم عن هذه الظروف أن أصبحت سيباريس (Sybaris) من أغنى مدن العالم القديم حتى ضرب بثرائها المثل. ذلك أن الملاحين لتخوفهم من المرور بالسفن عبر مضيق مسينا ، كانوا يفضلون إنزال بضائعهم المصدرة إلى الغرب على الساحل الشرقي لإيطاليا ونقلها براً عبر الحذاء الإيطالي، وكان أقصر الطرق وأكثرها ملاءمة هو وادي كراثيس الذي يبدأ عند سيباريس . ويرجع الفضل في ثراء هذه المدينة في القرن السادس ق.م إلى سيطرتها على ذلك الطريق البري الذي كان يؤدي إلى مستعمرة تابعة لها على الساحل الغربي [2]. وهناك كانت البضائع تشحن ثانية إلى مواني إتروريا . وكان تيار يوريبوس عند مضيق

(١) وينطبق عليهما المثل العربي القائل « كالمستجير من الرمضاء بالنار » .
(٢) وقد دمر أهل كروتون ، سيباريس تدميراً في ٥١٠ ق.م .

خالكيس يفوق غيره شهرة في البحر المتوسط . ومع ذلك فقد كان هذا المضيق على شدة تياره هو الطريق الذي اعتادت السفن أن تسلكه في رحلاتها بين ميناء بيريه (Piraeus) في الجنوب وموانى الساحل الشمالي للبحر الإيجي ومنطقة الدردنيل ، لأن الساحل الشرقي لجزيرة يوبويا مليء بالصخور شديد الانحدار خلو من الموانى . وقرب نهاية الحرب البلوبونيزية [١] سد أهالي خالكيس هذا المضيق ببناء قنطرة عليه وردمه بالتراب ، موجهين بذلك ضربة للبحرية الأثينية .

على أن التيارات المائية ليست أكبر عقبة كان على الملاح اليوناني أن يتغلب عليها أو يأخذ حذره منها . لقد كان الجهل هو عدوه الحقيقي ، لأن معلوماته في ذلك الحين كانت لا تزال محدودة . ولا ينبغي أن نلومه لأنه لم يتجرأ على ركوب البحر في أشهر الشتاء أو لأنه كان يلتزم السواحل بقدر الإمكان أو يخاف الابتعاد كثيراً عن اليابسة أو لأنه لم يخاطر بدخول مياه غريبة عليه ، فالملاح اليوناني لم يعرف البوصلة أو الخرائط ، وإذا انحرف عن الطريق المألوف بفعل الرياح فإنه كان عرضة لأن يضل سبيله أو يجتاحه التيار أو يرتطم بالصخور المغمورة . ومع هذا كله فإن روح المغامرة — كما يقول بريكليس (Pericles) في خطاب تأبين قتلى الحرب البلوبونيزية [٢] — قد حفزت الأثينيين على أن يمخروا عباب كل البحار . وكانت الدويلات البحرية الكبرى هي التي جاهدت لاجتذاب السفن إلى موانيها ، وبذلك أدخلت البحار البعيدة في نطاق نفوذها التجاري والسياسي . وأما الدويلات الصغيرة التي لم تتوافر لها فرص التجارة المشروعة

---

(١) الحرب البلوبونيزية بين أثينا واسبرطه (٤٣١ - ٤٠٤) . والحادث المذكور عام ٤١١ .

(٢) هو القائد والسياسي الأثيني الكبير وزعيم الحزب الديمقراطي الذي هيمن على شئون أثينا الداخلية والخارجية (٤٦١ - ٤٢٩) ، وقد ألقى هذا الخطاب في ٤٣٠ أي بعد عام واحد من قيام الحرب .

فقد لجأت إلى الاشتغال بالقرصنة . ولهذا كان تاريخ البحر المتوسط منذ عصر الحضارة المينوية [1] حلقة متصلة من الصراع بين قراصنة الجزر الصغيرة والمتاخمة للسواحل وبين الدويلات البحرية القوية التي أخذت على عاتقها تطهير البحر من شرهم .

وحدة المنطقة الايجية :

ونعود إلى الموضوع الاصلي لنقول إن وصف بلاد اليونان القديمة بأنها شبه جزيرة في الجزء الجنوبي الشرقي من أوروبا فيه مجانبة للصواب . لقد كانت في حقيقة الأمر منطقة تشمل الجزر والسواحل التي تحيط تقريباً بالبحر الإيجي وبحر مرمرة ، والتي يتصورها الجغرافيون المحدثون بحق في شكل وحدة باسم المنطقة الأيجية . وكانت تلحق بهذه المنطقة مساحة خلفية أو « ظهير » غير فسيح ، ثم ألحقت بها فيما بعد سواحل أخرى بالتدريج . وبعبارة أخرى لم تكن بلاد اليونان الأصلية سوى جزء من تلك الوحدة الجغرافية التي سميناها منطقة البحر الإيجي . لقد كان للعالم الهلليني نصيب في كل من أوروبا وآسيا . وبذلك يصبح فصل القارتين أمراً ينطوي على كثير من التعسف . ومن الأمور ذات الدلالة أن الإغريق لم يتمكنوا أبداً من الاتفاق على حدود ثابتة بين أوروبا وآسيا .

وكانت منطقة البحر الإيجي سوقاً نشطة تبادل فيها الناس جميع أنواع السلع والأفكار . وفي وسعنا أن نقول — استناداً إلى معلوماتنا الحديثة — إن وحدة العالم الإيجي كانت لا تقل قِدماً عن استقرار الإغريق داخل حدود عالم البحر المتوسط . وقد استطاع الإغريق بفضل هذه الوحدة أن يحققوا

---

(١) الحضارة المينوية هي حضارة كريت القديمة (٢٤٠٠ - ١٤٠٠) وسميت كذلك نسبة إلى مينوس (لقب ملوك مدينة كنوسوس قرب الساحل الشمالي للجزيرة) .

رسالتهم في التاريخ . ولو كانت هذه المنطقة كلها يابسة لما أصبحت حلقة وصل بين عالمين بقدر ما أصبحته هذه السواحل المتعرجة المكشوفة التي تحيط ببحر غاص بالجزر . فالإغريق لم تقتصر رسالتهم على تلقي تراث الحضارات الشرقية القديمة لينقلوه بدورهم إلى أوروبا ، بل هضموا ما تلقوه وأعادوا إخراجه في صورة جديدة مختلفة تتسم بطابع بيئتهم الخاصة . ولا نحيد كثيراً عن الصواب إذا قلنا إن البحر الايجي كان مسئولا إلى حـد ما عن مناهضة اليونان للشرق الذي ظهر فيه أول قبس أضاء الطريق لحضارة الغرب المبدعـة ، ومسئولاً كذلك عن الطابع المستقل الفريد لهذه الحضارة العظيمة التي نزعت إلى إخفاء المؤثرات الشرقية. هناك إذن عاملان رئيسيان: أحدهما هو منطقة البحر الإيجي كوحدة جنسية وحضارية لها نصيب في أوروبا وآسيا ، أما الآخر فهو انفصال سواحل هاتين القارتين بمسافة قصيرة عليها جسر من الجزر يربط بينهما . هذان العاملان على تناقضهما الظاهري يرتبط أحدهما بالآخر . وثمة عامل ثالث ينبغي إضافته وهو عبقرية اليونان .

إن وحدة المنطقة الإيجية هي الأساس الذي ينبغي أن يقوم عليه تفسير تاريخ العالم اليوناني القديم . ذلك أن هذه الوحدة الجغرافية لم تتحول أبداً إلى وحدة سياسية وظلت بلاد اليونان منقسمة دائماً إلى عدد كبير من الدويلات المستقلة . وقد كان للموقع الخاص الذي شغلته كل منها داخل المنطقة الإيجية تأثـير في تاريخها وفقاً لقانون حتمته جغرافية المنطقة بأجمعها : فالأقاليم التي تولي وجهها شطر البحر – تمشياً مع الاتجاه العام للمنطقة الايجية – كانت أول من حمـل مشعل حضارة قوية مبدعة ، وكان البحر بالنسبة لها مركز حياتها وإن لم يكن مركز أرضها . وأما أقاليم غرب بلاد اليونان وغيرها من الأقاليم الداخلية مثل أركاديا (Arcadia) وثساليا (Thessalia) ، أي الدويلات الـتي لم تتمتع بموقع إيجي حقيقي ، فكانت قوى من المرتبـة الثانية أو لم تظهر على مسرح التاريخ اليوناني إلا في وقت متأخر ، بل إن غرب بلاد اليونان لم ينهض حتى

عندما اندمج البحر الأيوني (جنوب الأدرياتي)في المنطقة اليونانية بفضل إنشاء المستعمرات في صقلية وجنوب إيطاليا . ولهذا السبب نفسه تأخرت إيطاليا عن بلاد اليونان في موكب الحضارة . وبينما تقع مواني بلاد اليونان الصالحة لرسو السفن على الساحل الشرقي المواجـــه للبحر الإيجي والشرق الادنى ، موطن الحضارات القديمة ، تقع مواني إيطاليا على ساحلها الغربي المواجه للحوض الغربي من البحر المتوسط ، فكأن كـلًا منهما كانت تولي ظهرها للأخرى ، لأن ساحليهما المطلين على البحر الأدرياتي خاليان تقريباً من المواني . وقد أدى ذلك إلى قلة الاتصال بينهما في العصور الأولى ، حتى أن إيطاليا لم تتأثر بحضارة بلاد اليونان بدرجة كبيرة إلا بعد أن بلغت الحضارة الاخيرة شأواً بعيدا .

وقد درج بعض الكتاب على تأكيد هذا التباين الذي نشأ عن طبيعة الموقع الجغرافي لكل دويلة من هذه الدويلات . غير أنه ينبغي ألا يغيب عن البال أن كل دويلة يونانية ، حتى أكثرها ابتعاداً عن البحر ، قد أسهمت في بناء وحدة المنطقة الإيجية ، وبالتالي في المركز الذي شغلته المنطقة بأسرهـــا داخل العالم المعروف وقتذاك . ولم تقم هذه المساهمة على أساس من التبادل التجاري فقط أو إنشاء المستعمرات أو الزعامة السياسية (ηegemonia) ، بل قامت أيضاً على اساس روحي أو نفسي وطيد ، ومؤداه أن مواطني كل دويــلة يونانية كانوا يدركون أنهم جزء من كل أو أبنـــاء وطن واحد ، لأن الاعتزاز بالأصل اليوناني والانتماء إلى عالم يوناني محصور بين المتبربرين ، تخطى كل منهما جميـــع الحدود السياسية . وقد ألـّف بين الإغريق جميعاً إحساسُهم بما بينهم من روابط جنسية [١] . ولغوية [٢] ودينية [٣] وثقافية [٤] . وهــذا الإحساس يرجع في آخر الأمر إلى أن المنطقة الإيجية كانت تتجه إلى مركز مشترك وهو البحر .

---

(١) لاعتقاد الإغريق أنهم كانوا ينحدرون من أصل مشترك أو جد واحد .

(٢) كان الإغريق يتكلمون لغة واحدة هي اللغة اليونانيةالتي تنتمي إلى أسرة اللغات =

لا عجب إذن إن اختلف نظام « دولة المدينة » اليونانية عن النظم السياسية في كل من الشرق والغرب .

وننتقل بعد ذلك إلى جغرافية بلاد اليونان الأصلية وأثرها في الحياة السياسية. سنتناول أولاً تلك العوامل التي أدت إلى انقسام بلاد اليونان إلى عدة وحدات سياسية صغيرة تعرف كل منها باسم polis – وهي كلمة من العسير ترجمتها بدقة وقد

= الهندية – الأوربية ولكن بلهجات مختلفة كانت أهمها في العصر الكلاسيكي هي : الأيونية والأيولية والدورية.

(٣) تتمثل الروابط الدينية في الاشتراك في تقديس آلهة أوليمبوس وتصديق أساطيرها وإجلال مراكز النبوءة وعلى الأخص نبوءة أپوللون في معبده بدلفى الذي كان الإغريق على اختلافهم يحجون إليه لاستشارته ، وكذلك اشتراك معظم مدنهم في دورات الألعاب الرياضية ولا سيما الدورة الأوليمبية التي كانت تعقد مرة كل أربع سنوات في بلدة أوليمبيا (Olympia) بإقليم إيليس في غرب البلوبونيز .وكانت الدورات الرياضية ذات طابع ديني إذ كانت تسبقها احتفالات دينية ومواكب وشعائر وقرابين . وفي اثنائها كانت تؤمن الطرق إلى مكان انعقاد الدورة ، . وكان يصاحب المباريات الرياضية مسابقات أدبية . وكانت الدورة الرياضية فرصة لالتقاء الإغريق في صعيد واحد وتبادل الآراء وتسوية المنازعات ومناقشة غير ذلك من المسائل التي تهم الرأي العام الهلليني . (وعن هذا الموضوع ، أنظر ص ١١٢)

(٤) وأما الروابط الثقافية فتتمثل في أدبهم المشترك وبخاصة شعر هوميروس الذي كانوا جميعاً يقرأونه ويفهمونه ، ويعجبون به أشد الإعجاب . كانوا يعتبرون هوميروس معلمهم الأول ويرون في الإلياذة موسوعة حافلة بكل المعارف. وكانت أساس منهج التعليم عندهم ويحفظ الصبية منها أبياتاً كثيرة عن ظهر قلب . في الحق إنها كانت عندهم بمثابة الكتاب المقدس. وكانوا يتنافسون على هوميروس بمعنى أن كثيراً من المدن كانت تزعم أنها مسقط رأسه، فضلا عن إدعاء كل مدينة بأنها اشتركت قديماً في الحرب الطروادية . وكان يزيد من إحساسهم بوحدة ثقافتهم شعورهم بأنهم مهددون من جانب دول قوية متاخمة لهم (كالفرس) وغيرهم ، من البرابرة (barbarai) – الأجانب – الذين يختلفون عنهم اختلافاً بيناً في القيم والعادات والدين والثقافة، فضلا عن النظام السياسي .

وثمة عوامل أخرى ساعدت على توثيق الروابط بين الإغريق. وسيأتي ذكرها في المواضع المناسبة .

تعني المدينة الحرة أو دولة المدينة ، أو المدينة الدولة أو الدويلة . وتتلخص هذه العوامل في الجبال غير المنتظمة التي تقطـع البلاد طولاً وعرضاً وتقسمها إلى مرتفعات كثيرة وسهول قليلة وتجعل الاتصال بين أجزائهـا شاقاً إن لم يكن متعذراً ؛ ثم البحر نفسه الذي يتوغل فيها ويجعل سواحلها مسننة كثيرة التعاريج أو يقطعها إلى جزر وأشباه جزر أو يقسم البلاد كلها قسمين كبيرين ، فيصبح على الرغم من أنه هو الذي خلق الوحدة الاقتصادية والثقافية بين أقسام العـالم الإيجي ، عائقاً دون تحقيق الوحدة السياسية وذلك في حالة عدم استخدامه أو السيطرة عليه . وبعدئذ نتناول جدب التربة بوجه عام والتباين الشديد في الظروف المناخية والزراعية وبالتالي في الأحوال الاقتصادية والاجتماعية بين الأقاليم ، وكيف أدى ذلك إلى الاختلاف في الطباع وأساليب المعيشة ، وقوى من الرغبة في الاستقلال السياسي والاكتفاء الاقتصادي ، وما استتبع ذلك من نزعة انفصالية بين الدويلات المختلفة . وأخيراً نتناول ضيق الحيّز في الدويلات اليونانية وصغر مساحة المنطقة الإيجية بوجه عام وما ترتب على ذلك من ضعف هذه الدويلات وعجز معظمها عن أن تصبح قوى سياسية كبيرة من ناحية ؛ وتقوية الروابط بين الفرد ودولة المدينة ، والاهتمام الشديد بالشئون السياسية ، وقيام رأي عام قوي ، وإذكاء روح الوطنية من ناحية أخرى ، والتعاون الوثيق لاستغلال كل إمكانات الحيز الضيق ، ومضاعفة الجهد واشتداد نبض الحياة مما عجل بنهايتها ، واحتدام المنافسة بين المواطنين من أجل رفعة دولة المدينة ، وتحول المنافسة إلى خصومة ، وأثر تلاصق دول المدن اليونانية في توتر علاقاتها واحتكاكها وقيام المنازعات والحروب بينها . وأخيراً اضطرار الإغريق بسبب ضيق الحيز إلى الاتجـاه إلى البحر والتجارة وإنشاء المستعمرات والرغبة في التوسع وما ترتب على ذلك من آثار .

الجبال والانفصالية السياسية :

تكونت جبال منطقـة البحر الابيض المتوسط قديمـاً بفعل الحركات

الجيولوجية التي أدت إلى هبوط بعض الهضاب وصعود البعض الآخر . وليست جزر البحر الايجي في الواقع سوى قمم بارزة من هضبة كبيرة غاصت في الماء . وقد توغل البحر في اليابسه توغلاً شديداً وغمر أودية كثيرة . وحفرت بعض الأنهار خوانق عميقة بينما ملأ بعضها الآخر خلجاناً واسعة في البحر. وقد تولدت عن الانفجارات البركانية جبال وجزر كثيرة. وبتكرار هذه الظواهر الجيولوجية خلال تاريخ الأرض الطويل ، تحولت الكتلة المتماسكة التي كانت تربط أوروبا وآسيا في أقدم العصور إلى منطقة مفتتة تتنوع تضاريسها تنوعاً شديداً . ومن يتأمل المنظر العام لسطح بلاد اليونان وما يتخلله من جبال ومرتفعات وسهول ووديان وجزر وأشباه جزر ، يدرك على الفور أن هذه المنطقة قد تعرضت أكثر من غيرها لهزات وزلازل عنيفة وانفجارات بركانية هائلة قبل ظهور الإنسان على الأرض بزمن طويل . وقد نجم عن ذلك كله أن تداخلت اليابسة والماء حتى تكونت منهما منطقة واحدة مؤتلفة .

ومع أن المنطقة المحصورة بين البحرين الأدرياتي والأيوني [1] من ناحية الغرب والبحرين الأسود والإيجي من ناحية الشرق تعرف باسم شبه جزيرة البلقان، إلا أن هذا الوصف لا ينطبق تماماً على القسم الشمالي حيث تقطن الشعوب البلقانية لأنه قسم قاري أي ينتمي إلى القارة . وفي القسم الجنوبي فقط أي في بلاد اليونان حيث يزداد التداخل بين الأرض والبحر ويشتد التقطع ، تتحول الأرض الداخلية إلى شبه جزيرة حقيقية بينما تتحول أشباه الجزر إلى جزر. وقد توغل البحر في الوسط توغلاً شديداً نشأ عنه خليج عميق هو خليج كورنثة (Corinthus) الذي يمتد ـ بعد برزخ ضيق ـ نحو الشرق في الخليج الساروني. وقد كان لهذا الخليج وبرزخ كورنثة ووقوع الأخير في الطرف الشرقي أثر كبير

(١) يقع البحر الأيوني في جنوب الأدرياتي وهو محصور بين الساحل الغربي لجنوب بلاد الإغريق والساحل الشرقي «للحذاء الإيطالي» .

في مجرى التاريخ اليوناني . فإلى جانب أن هذه المنطقة ، منطقة خليج كورنثة ، قامت فيها أهم مدن اليونان من الناحية الاقتصادية ، فإن خليج كورنثة فصل البلوبونيز عن وسط بلاد اليونان ، وبعبارة أخرى قسم البلاد كلها إلى قسمين كبيرين وتسبب في ثنائية التاريخ اليوناني ، وتوزيع مسرحه بين قوتين : أثينا في الشمال واسبرطة في الجنوب . ولما كان هذا الخليج نفسه قد جعل البلوبونيز في مأمن من الغزو العسكري ، فقد كان أحدُ الأسباب التي حالت دون الاتحاد الشامل في وجه الخطر الفارسي. وأما البرزخ الكورنثي الذي يصل بين البلوبونيز ووسط بلاد اليونان فقد تسبب في اضطرار السفن إلى الالتفاف حول سواحل كل البلوبونيز في رحلاتها بين ساحل البحر الإيجي وساحل البحر الأيوني . ولو أن البلوبونيز كانت جزيرة حقيقية كما أسماها الإغريق (Peloponnesus) أي «جزيرة بيلويس» لأصبح الاتصال بين شرق بلاد اليونان وغربها مباشراً مستمراً، ولتغيرت طرق المواصلات ومراكز التجارة وميادين القتال . ولو كان البرزخ الكورنثي موجوداً في الطرف الغربي لا الشرقي من الخليج ، ليسّر ذلك اتصال الأراضي الواقعة على ضفتيه بالبحر الايجي والشرق، ولانتشرت الحضارة في شمال غرب بلاد اليونان بصورة أسرع وأقوى .

وقد زاد من حدة هذا التقطع سلسلة جبال بندوس (Pindus) التي تمتد في شكل قوس ضخم من البلقان الغربية إلى بلاد اليونان وجزر البحر الايجي وغرب آسيا الصغرى . وتتفرع من هذه السلسلة التي تشبه العمود الفقري عدة شعاب أو ضلوع جبلية تكتنف الجانب الشرقي من بلاد اليونان . وتحدد هذه السلاسل الجبلية المتشعبة في كل اتجاه شكل تضاريس البلاد وهكذا يبدو السطح كله ممزقاً تمزيقاً شديداً بالجبال والمرتفعات والوديان والسهول . ولا يكاد يوجد سطح آخر يفوقه في عدم الانتظام . ويقدر الجزء المستوي منه بما لا يزيد عن ٢٠ ٪ من المساحة كلها. ومع أن هذه الجبال في جملتها غير شاهقة وأن متوسط ارتفاعها لا يزيد على ٨٠٠٠ قدم – باستثناء جبل أوليمبوس (Olympus) ، بين ثساليا

ومقدونيا ، الذي تبلغ قمتـــه ٩٦٠٠ قدم – إلا أنها تعمل كحواجز طبيعيـة بين السهول ، وتحول دون سهولة الاتصال بين الجماعات المختلفة ، وتجعل التنقل شاقاً بين مكان ومكان . على أن هذا التباين الشديد في شكل الجبال – وهي من الحجر الجيري الصلب – وتنوع التضاريس واختلاف المناظر ، مع صفـاء الجو الذي يساعد على بروز معالم المرتفعات وجلاء خطوطها ، جميع هذه العوامـل جعلت من بلاد اليونان موطناً للفنانين وبخاصة المثّالين .

ولا يترك تزاحم الجبال سوى ممرات قصيرة تسير بمحاذاة سلاسل الجبال . وتكسو الثلوج كثيراً منها في بعض شهور الشتاء والأنهار قصيرة المجرى قليلة الماء.والكبير منها مثل بينيوس (Pêneus)في ثساليا[1] وألفيوس(Alpheus) في البلوبونيز لا يصلح للملاحة إلا في فترة قصيرة من السنة . وأما سائر الأنهار فهي لا تزيد عن أن تكون سيولاً لا تمتلىء بالمـــاء إلا بعد العواصف الشديدة أو خلال فصل الشتاء ،وتجف مجاريها في بقيةالفصول.وفي إحدى خطب ديموسثنيس الأثيني [2](Demosthenes) يحتدم الجدل حول ما إذا كانت قطعة من الارض جدولاً أم طريقاً أم بستاناً !! وهذه الأنهار ليست صالحة للملاحة فحسب بـل يتعذر اجتيازها أيضاً ولا سيا عند فيضانها في الشتاء . ولا توجد أنهار صالحـة للملاحة سوى نهر أخيلوس(Achelous) عند حدودإقليمي أكارنانيا وأيتوليا، وسوى ألفيوس المشار إليه وباميسوس (Pamisus) في إقليم مسينيا،بل إن بعض الأنهار الكبيرة مثل بينيوس وألفيوس نفسه لا يصلح للملاحة إلا في فترة قصيرة من السنة.ويجري الانتقال البري غالباً على الطرق المحاذية لمجاري الانهار. وإذا كانت بلاد اليونان منعدمة المطر تقريباً في الصيف ولا تصلح مياه أنهارها

(١) وهو غير نهر بينيوس الصغير الذي يجري في إقليم إيليس بالبلوبونيز .

(٢) أشهر خطباء اليونان (٣٨٤ - ٣٢٢) . والخطبة المشار إليها قضائية تحمـــل رقم (LV, 13 & 16) وعنوانها «ضد كالليكليس». وتتسم بروح فكاهية غير مألوفة في خطبه الأخرى.

للشرب بسبب الطمي الذي تجرفه التيارات المائية السريعة [1] فقد اضطر أهلها إلى السكنى بجوار الآبار . وكثيراً ما نسمع عن تفاخر القرى اليونانية بجودة مياه آبارها وعذوبتها ونسمع أيضاً عن مجالس خاصة من الموظفين للإشراف على تزويد القرية أو المدينة بالمياه . ولم يعرف اليونان قبل العصر الهلينستي المرافق المائية أي وسائل نقل المياه إلى المدن لتغذيتها كالقنوات المعلقة مثلاً ، وإن كان هيرودوت يصف مرافق كهذه شاهدها في ساموس ، كما أن بيسستراتوس بنى قناة جوفية واهتم بمرافق المياه في أثينا . لقد كان الرومان وحدهم هم الخبراء في تخطيط المدن في أماكن تفتقر إلى الماء .

ومعظم البحيرات لا مصارف لمياهها سوى المسالك أو القنوات الجوفية (katabothrai) فإن انسدت هذه القنوات ارتفع منسوب المياه فيها ، وإن زالت العوائق هبط ذلك المنسوب وقد تختفي البحيرة تماماً في بعض الأحيان . وهذه الظاهرة الغريبة قد أدت بدورها إلى نشأة كثير من الأساطير . ولا تخلو بلاد اليونان من السهول ، وبعضها فسيح مثل سهول تساليا حيث أدت الظروف التي كانت تختلف عن ظروف سائر بلاد اليونان إلى نشأة نظام أشبه ما يكون بنظام الإقطاع . ولكن معظم السهول الأخرى صغيرة وهي إما محصورة بالجبال من جميع الجهات مثل سهل مانتينيا (Mantinea) في إقليم أركاديا ، أو مطلة على البحر من ناحية واحدة ومحصورة بالجبال من جهاتها الأخرى مثل سهل إليوسيس (Eleusis) على بعد حوالي ١٤ ميلاً شمال غرب أثينا ، وسهل أرجوس (Argos) في إقليم أرجوليس .

---

(١) ولذلك نجد كثيراً من موانئ البحر الأبيض المتوسط تقع لا عند مصاب الأنهار التي تنسد بالطمي من وقت لآخر ، بل تقع غالباً على مسافة منها ، هذا إذا كان وادي النهر يصلح لأن يكون طريقاً: البندقية(البو) ، مرسيليا (الرون) ، سالونيك (أكسيوس)، الاسكندرية (النيل) ، أزمير (هرموس) ، روما (التيبر). قارن أيضاً نابلي وبيريه .

البحر والانفصالية السياسية :

رأينا كيف يكتنف البحر بلاد اليونان من أغلب جوانبها ويتوغل في أراضيها توغلاً شديداً ويقطع سواحلها تقطيعاً حتى أن طول هذه السواحل لا يتناسب ومساحة المنطقة كلها . وفي الحق إنه لا يوجد مكان في بلاد اليونان الوسطى يبعد عن البحر بأكثر من أربعين ميلاً ، ولا مكان في البلوبونيز يبعد عنه بأكثر من اثنين وثلاثين ميلاً ، وهي مسافة لم تكن تستغرق سوى يومين بوسائل النقل القديمة . وكانت أركاديا بالبلوبونيز — حيث يوجد سهل مانتينيا الذي أشرنا إليه — هي الإقليم الوحيد الذي لا يطل على البحر . وكان البحر أحياناً هو طريق المواصلات الوحيد بين مدينة وأخرى وبخاصة في الجزر وأشباه الجزر . لكن إذا كانت أرض بلاد اليونان مقطعة في كل مكان ، فإن الوصف نفسه ينطبق أيضاً على البحر المحيط بها حيث لا تكاد اليابسة تغيب عن عين الملاح . وحسبك أن تعلم أنه يوجد في البحر الإيجي ٤٨٣ جزيرة ، وفي غرب بلاد اليونان حوالي ١١٦ جزيرة .

وفي العصور الأولى التي لم تعرف البوصلة أو الخرائط كانت السفن تتحسس طريقها عبره في حذر ، ولكنها كانت تجد في الجزر الكثيرة والخلجان المتقاربة مكاناً تحتمي فيه من العواصف المفاجئة . ويصف هوميروس الممرات المائية بين الجزر المتلاصقة بأنها « أزقة مائية » . لقد كانت هذه الجزر بمثابة المعالم التي تسير السفن على هديها في عرض البحر . وتبدو صخور سواحلها للعين أقرب مما هي عليه في الواقع لأن البحر الإيجي اشتهر بنقاء هوائه وصفاء جوه . وليس أدل على وضوح معالمه من أن مكاناً كالبارثنون Parthenon (معبد الربة العذراء اثينة) يمكن رؤيته من قلعة كورنثة ، وأن من يقف عند لسان سونيوم (Sunium) في الطرف الشرقي من أتيكا (Attica) يستطيع أن يشاهد

مجموعة جزر الكيكلاديس Cyclades [1] (الملتفة حول ديلوس) حتى جزيرة ميلوس (Melos) ، لما يمكنه أن يتبين من هذه الجزيرة سلسلة الجبال الوسطى في كريت . وفي الحقيقة إن البحر هو الذي خلق بتشابكه مع الأرض وحدة العالم الإيجي . فكل جزيرة وكل جزء من شبه الجزيرة اليونانيـة لم يكن سوى قطاع من الدائرة الإيجية . والبحر هو الذي خلق وحدة اقتصادية واسعة تعلـّم فيها شعب كان في الأصل زراعياً كيف يبني السفن منذ الألف الثالثة أو الثانية قبل الميلاد ويركب البحر لممارسة صيد الأسماك والتجارة أو الاشتغال بالقرصنة أو تطهير البحر منها أو تأسيس المستعمرات . وما تاريخ بلاد اليونان القديمة في معظم مراحله سوى سجل لسيادات بحرية متعاقبة . وأخيراً فـإن البحر كان عاملاً جوهرياً في ابتـــداع حضارة لا تتسم بطابع دويلة بعينها ، بل حضارة يونانية تخطت حدود الدويلات ، وأشعرت الإغريق جميعاً بأنهم شعب منطقة واحدة أو وطن واحد هو بلاد اليونان .

ومع هـــذا فإن القول بأن البحر أداة وصل لا فصل ليس بصحيح إلا إلى مدى محدود . لا بد أولاً من أن يسيطر الإنسان على البحر ، لأن البحر لا يصبح جسراً إلا عندما يسخّره الإنسان . ومع أن مرحلة تسخيره قـد تمت في زمن مبكر ، إلا أن فريقـــاً صغيراً من الإغريق هو الذي خاطر بركوبه . ومن المعروف أن جنوب البحر الأدرياتي أو البحر الأيوني مركز للزوابع والتيارات غير المنتظمة في فصل الشتاء . ويتعرض شمال البحر الإيجي حتى أواخر الربيع لرياح شماليـــة عاصفة كتلك الرياح التي حطمت الأسطول الفارسي بقيادة مردونيوس (Mardonius) في عام ٤٩٢ . وقد تهب رياح شديدة في الخريف

---

(١) لعل القارىء قد لاحظ أن حرف الـ C ينطق دائماً كافاً ، حيث أنه يمثل حرف الـ K في اللغة اليونانية التي لا يوجد فيها حرف C . وهي في ذلك عكس اللاتينية التي لا يوجد فيها حرف K بل حرف C وينطق أيضاً كافاً .

من أي سلسلة جبلية ساحلية كتلك الرياح العاتية المستمرة التي جعلت الملاحة خطرة حول رأس ماليا (Malea) عند الطرف الجنوبي الشرقي من البلوبونيز وأكسبته سمعة سيئة، إذ أثارت هذه الرياح في وجه أوديسيوس(Odysseus) ، بطل الأوديسيا ، متاعب جمـة وحالت دون وصول وحدات كُركيرا (Corcyra) [1] البحرية إلى ميدان القتال عند سلاميس (Salamis) [2] في الحرب الفارسية عام ٤٨٠ . وتحيط الصخور الشاهقة إحاطة تامـة بجانبي بلاد اليونان : ساحل إيبيروس (Epirus) في الغرب وساحل ثساليـا في الشرق . ويتعرض الأخير للرياح التجارية القوية في الصيف وللعواصف الشمالية في الشتاء مما يجعل الملاحة عنده خطرة على مدار السنة . وكانت الرياح التجارية الصيفية التي تهب من الشمال في البحر الإيجي بين يونيو وسبتمبر ترغم التجار الإغريق على الملاحة وفقـاً لجدول زمني دقيق . وكان عليهم إذا أرادوا ارتيـاد البحر الأسود أن يبلغوا الدردنيل قبل انتهاء الربيع . وكثيراً ما وقفت هذه الرياح عقبة كؤوداً في وجه الحملات البحرية الأثينية المتجهة إلى الشمال، حتى أن فيليب الثاني ملك مقدونيا (٣٥٩ –٣٣٦) كان يستغل فترة هبوبها لكي يسبق الأثينيين إلى ميدان القتال ، ويفوت عليهم فرصة نجدة حلفائهم . فكأن البحر إذاً ظل موصداً في وجـه جميع الإغريق في فصل الشتاء (من أكتوبر حتى أبريل) ، وفي وجه بعضهم في كل فصول السنة تقريباً. وكان الشاعر هيسيودوس الذي اشتهر باسم هيسيود (Hesiodus) وعـاش في أوائل القرن السابع (؟)[3] ، يعتقد أن البحر الإيجي لا تؤتمن فيه الملاحة إلا في الخمسين يوماً

---

(١) وهي في الأصل اليوناني Kêrkura . جزيرة كورفو الحالية في البحر الايوني قرب الساحل الغربي لبلاد اليونان .

(٢) جزيرة في الخليج الساروني قرب الساحل الجنوبي الغربي لأتيكا وتقع غرب ميناء بيريه مباشرة .

(٣) أو ربما قبل ذلك في أواخر القرن الثامن ق.م.

التي تلي الربيع . وقد اعتبر اجتياز البحر من ميناء أوليس (Aulis) في بويوتيا إلى جزيرة يوبويا المتاخمة لهـا ، حدثاً هاماً بل عملاً قريباً من أعمال البطولة . ولم يكن هو الوحيد الذي حذر الناس من ركوب البحر .

ولما كان اليونان – على نحو ما ذكرنا – جاهلين بالبوصلة والخرائط ، فلم يكن في وسع ملاحيهم تحديد مكانهم من البحر بدقة ، وبخاصة عندما تكون السماء ملبّدة بالغيوم . وهذا العامل وحده كان كفيلاً بإرغام السفن على ألا تبتعد عن اليابسة إلا في القليل النادر . ولم يكن اليونان يجرؤون على الملاحة في الشتاء أو أثناء الليل ، بل كانوا يركبون البحر في الصيف فقط وأثناء النهار ملتزمين الساحل بقدر الإمكان . وعندما يأتي الليل كانت المراكب تتجه على الفور إلى أقرب ميناء حيث يتناول البحارة طعامهم . وعلى ذلك فلم يكن من الضروري أن يحملوا معهم مقادير كبيرة من المؤونة . وكانت حمولة المراكب اليونانية صغيرة . ولعل أقصى حمولة لها لم تزد على ٣٠٠ طن في العصر الكلاسيكي. وكان لديلوس (Delos) وهي أحدى الموانى الكبرى في العصر الهللينستي ، رصيف يبلغ طوله ٨٢٤ قدمـاً . وحتى إذا سلمنا بأن المراكب الشراعية كانت تشد من مقدمها إلى رصيف المرفأ أي كانت ترسو في وضع متقاطع مع الرصيف (وهو شيء لا يساعد على التفريغ أو الشحن السريع) ، فهذا يدل على ضآلة حجم التجارة المنقولة على المراكب الصغيرة بالقياس إلى سفن العصر الحديث . وإذ كانت هذه المراكب غير مزودة فقط بالأشرعة بل كان من المستطاع أيضاً تحويلها إلى زوارق تجذيف ، فإن ذلك دليل آخر على أن حمولتها كانت خفيفة بوجه عام .

وحتى عندما راجت تجارة الإغريق الخارجية وازدهرت ، فإن الغالبية العظمى منهم كانوا لا يزالون مزارعين . ولا ينطبق هذا الوصف على سكان الأقاليم الداخلية فقط مثل بويوتيا أو أركاديا بل ينطبق أيضاً على سكان أتيكا

وكثير من الجزر . وباستثناء مجارا (Megara) وكورنثة لا توجد مدينة في البلوبونيز أو حول البرزخ الكورنثي كانت لها تجارة منتظمة عبر البحر . وعندما يرتبط الإنسان بالأرض التي يزرعها بيديه وتتألف ثروته من مزرعته وما تنتجه من محصول ، فإنه لا يفكر في ركوب البحر . ومع أن البحر كان أداة ربط ووسيلة من وسائل الوحدة فيما يتصل بتبادل التجارة وتبادل الأفكار إلا أنه كان عائقاً كبيراً دون تكوين الوحدة السياسية . وقد يكون من اليسير على مدينة أن ترسل شحنة من البضائع عبر مضيق بحري بواسطة السفن أو حمولة من السلع عبر ممر جبلي على ظهور البغال . غير أنه من العسير عليها أن تمد نفوذها السياسي عبر حدود طبيعية من البحر والجبال . وبديهي أن دول المدن الصغيرة التي لم تكن لها مراكز سياسية متفوقة ، وبالتالي لم تملك الأداة الفعالة لتحقيق أهدافها السياسية المشتركة ، كان من المستحيل عليها أن تتوسع خارج نطاقها الطبيعي ، بل إن دول المدن الكبيرة التي استقرت فيها الحياة السياسية على قواعد راسخة ، كانت تقف عاجزة أمام الحواجز التي يقيمها البحر والجبال . وحسب القارىء أن يذكر ما بذلته أثينا من جهد وما أمضته من وقت قبل أن تستطيع توطيد أقدامها سواء في جزيرة سلاميس أو في جزيرة يوبويا . لقد ربط البحر ما بين أجزاء العالم الهلليني التي لا حصر لها ، ولكنه أتاح لكل جزء فيه أن يحيا كوحدة مستقلة .

على أن البحر لم يكن ليفصل أو يعزل الوحدات السياسية بعضها عن البعض الآخر لو أن الأرض قد هيأت الفرصة لقيام دولة بالمعنى الحديث . لقد كان في وسع هذه الدولة دون سواها أن تتغلب على العقبات التي أقامها البحر في وجه الوحدة الشاملة . غير أن البلاد كانت مقسمة إلى عدد كبير من المناطق الصغيرة التي تفصل بينها الجبال ، كما أن القبائل اليونانية ، لاختلافها في النشأة والتقاليد ، كانت هي الأخرى منقسمة إلى جماعات سياسية عديدة كُتب عليها عليها كلها أن تكون ضعيفة . ولم تكن المناطق الطبيعية وحدها منفصلة

بعضها عن البعض الآخر بفعل التضاريس، بل إن كل واحدة منها كانت بدورها منقسمة إلى تلال وسهول . وكان هذا التباين سبباً في تنوع أشكال التطور السياسي . وكانت ثساليا هي الإقليم الوحيد الذي توجد بـــه سهول فسيحة يمكن إدماجها في وحدة سياسية جامعة . غير أن الأحوال في ثساليا ، التي تقع عند منتصف الطريق بين الشعوب اليونانية الخالصة والشعوب الإلليرية والمقدونية شبه المتبربرة ، كانت تختلف عما هو مألوف في غيرهـــا من الأقاليم ، وقد أثرت بوجه خاص على نظامها الاجتماعي الذي كان أشبه ما يكون بنظام الإقطاع . ولم تكن هناك سهول فسيحة في الجهات الأخرى من بلاد اليونان . وأما وديان الأنهار الكبيرة فكانت تمزقها سلاسل الجبال . وكان حوض نهر يوروتاس (Eurotas) وإن لم يخل من التلال هو الآخر ، المكان الذي تكاملت فيه مقومات وحدة مكنته من أن يصبح مركزاً لدولة المدينة الإسبرطية التي استندت أساساً،دون سائر دول المدن اليونانية، إلى منطقة فسيحة مترابطة . ومع أن دولة المدينة الاسبرطية نفسها أدمجت سلسلة جبال تايجيتوس (Taygetus) ، فقد ظلت محصورة النطاق بجبال أرجوس وأركاديا . وبالمثل ، فإن كل جماعة مستقرة اتخذت من الحواجز الجبلية سياجاً يقوم مقام حدودها ويقيها من عدوان جيرانها . وبذلك أتاحت التضاريس لعدد كبير من الوحدات السياسية أن تنمو وتدعم مركزها وهي منعزلة الواحدة عن الأخرى .

وقـــد استمرت دول المدن اليونانية تعيش جنباً إلى جنب وهي منعزلة الواحدة عن الأخرى سياسياً . لكن بمجرد أن كانت احتياجاتها تزيـــد على المحصولات الضروريـــة للمعيشة ، فإن كلا منها كانت تسعى إلى الاستعانة بموارد الأخرى ومن ثم فقـــد نشأ التبادل التجاري . وقد ساعـــد عليه أن معظم هذه المدن كان يقع على مقربة من البحر . وهذا التناقض بين الاستقلال السياسي والتبادل الاقتصادي أي تبادل المنفعة واعتماد الواحدة على الأخرى

فيما يتصل بالسلع التموينية قد حدد تطور الحياة الاقتصادية والسياسية عند اليونان [1] .

ومن بين أوضح العوامل الأولية التي شكلت التاريخ اليوناني أن التكوين

---

(١) كان من وسائل التعاون الاقتصادي بين المدن الإغريقية ما يمكن تسميته بتبادل التمثيل التجاري على النحو التالي : تختار المدينة (من بين مواطني المدينة الأخرى وليس من بين مواطنيها كما في العصر الحديث) ممثلين لرعاية مصالحها في تلك المدينة الأخرى . ومن ثم فقد أطلق على هؤلاء الممثلين (أو القناصل إن جاز التعبير) اسم proxenoi (بمعنى القائمين برعاية مصالح الضيوف والغرباء والاجانب). وكانوا في العادة من أصدقاء المدينة التي يمثلونها في مدينتهم(تطوعاً أو بالتعيين) أو تربطهم بها روابط عائلية . وكثيراً ما كانوا يكافأون على خدماتهم بمنحهم امتيازات مادية أو شرفية كحقوق المواطنة الفخرية في المدينة الأخرى . ولم يلبث — بعد انتشار هذا النظام ـ أن أصبح التعيين في مثل هذا المنصب يصاحبه دائماً اكتساب حقوق المواطنة الفخرية. بل إن المنصب أصبح مطمع الكثيرين ، ولم يلبث أن صار وراثياً .

ـ ولتسهيل المعاملات بين المدن الاغريقية كانت تلجأ إلى عقد معاهدات تجارية إما لتأمين التجار على أرواحهم وبضائعهم في الموانئ الأجنبية أو لتسوية الخلافات الناشئة بسبب تضارب المصالح عن طريق عرض القضايا على محاكم طرف ثالث أو محاكم مختلطة أو محكمة الطرف الأقوى(مثلما فعلت أثينا مع أعضاء حلف ديلوس) . وتعرف هذه المعاهدات أو الاتفاقات المدنية باسم (symbolon) .

ـ وفي بعض الاحيان كانت المدينتان المتنازعتان تحيلان النزاع الاقليمي أو السياسي على مدينة ثالثة محايدة للتحكيم بينهما . ومنذ منتصف القرن الخامس ق.م أصبحت معاهدات الصلح تتضمن في العادة بنداً أو مادة تنص على التزام الطرفين المتعاهدين بقبول التحكيم لفض ما قد ينشب بينهما من نزاع في المستقبل .

ـ وفضلا عن ذلك فإن بعض المدن كانت تعقد ـ في أحوال قليلة ـ أحلافاً دفاعية أو هجومية (symmachia- epimachia) فيما بينها أو تقبل طوعاً أو كرهاً الاندماج في تنظيم سياسي أشبه ما يكون بالاتحاد الفيدرالي أو الكونفدرالي الذى يعرف باسم **koinon** أو **sympoliteia** ـ وهو ما نسميه أحياناً بالعصبة أو الحلف .

ـ وأخيراً فقد جرت بعض المدن الإغريقية على أن تمنح أحياناً أهل مدينة أخرى حقوقها المدنية أو تتبادل معها حقوق المواطنة ، وهو ما يعرف باسم **isopoliteia** .

الجغرافي للبــــلاد قد فرض عليها الانفصالية السياسية . غير أنه من المسلم به أيضاً أن هذه الانفصالية كثيراً ما ذهبت إلى أبعد ممـا تقتضيه الظروف الطبيعية . ولم يكن هناك سبيل للتغلب على هذه النزعة الانفصالية إلا بقيام دولة قوية مسيطرة، تستطيـع أن تفرض الوحدة على البلاد ولو لفترة قصيرة .

فقر التربة وقلة الثروة الزراعية :

وينبغي قبل الكلام عن فقر الثروة الزراعية أن نستعرض مصادر الثروة المعدنية . لقد كانت أرض بلاد اليونان تحتوي على ثروات من مختلف الأنواع ؛ ففي كل منطقة تقريباً كان يوجد الصلصال اللازم لصناعة الأواني الفخارية ، وهو محصول هام لبلاد فقيرة في الخشب ، ولشعب لم يعرف بعد صب الحديد في قوالب وعمل السبائك (من الحديد الزهر) . وكان الرخـــام الجميل من مختلف الأنواع يوجد في باروس (Paros) بكميات كبيرة حتى لقـد وصفت هذه الجزيرة بأنها كتلة واحدة من المرمر ! والرخام مادة متينة لا غناء عنها في فن النحت أو المعمار . وكان فوق ذلك سلعة تجارية هامة لأن أنواعـــاً معينة منه كانت مطلوبة نظراً لقيمتها الكبيرة . وكان الذهب يوجد بكميات كبيرة نسبياً في الساحل الشمالي لبحر إيجة ، أي في طراقيـا ومقدونيا ولو أن مناجم الذهب في جزيرة ثاسوس (Thasos) لم تستغل قبـل القرن الخامس على أي نطاق واسع .

وأما الذهب الذي استعمل في العصر الميكيني بكميات كبيرة في صنع أدوات الزينة والحلي والأمتعة فلا بد من أنه كان مستورداً من الشرق [1] . وكانــت

---

(١) وقد يؤيد ذلك أسطورة بيلوبس (Pelops) الذي روى أنه أتى إلى بلاد اليونان من آسيا الصغرى، ومعه كنوز من الذهب. وكان الذهب قد شح في بلاد اليونان بعد العصر الميكيني=

لاوريوم (Laurium) في جنوب أتيكا هي المصدر الرئيسي للفضة . غير أن استخراجه من هذه المناجم لم يكن عملا مربحاً إلا بفضل رخص أجور العبيد . ولم يوجد النحاس إلا بالقرب من خالكيس Chalcis (وهي كلمة تتضمن معنى النحاس) في جزيرة يوبويا، ومن ثم كان من الضروري استيراده من قبرص (Cyprus) الغنية بالنحاس (الذي يشتق اسمه من اسم الجزيرة نفسها) أو من أسبانيا . ولم تستغل معظم مناجم الحديد لأن ذلك لم يكن ميسوراً إلا بتوافر الوقود أو باستيراد الوقود دون صعوبة . هذا إلى جانب أن الحديد لم يكن معدناً من السهل تشكيله والانتفاع به ، وبالتالي فإنه لم يقم إلا بدور قليل الأهمية في العالم القديم . وكانت لاكونيا هي أغنى إقليم بالحديد . وكان رعايا اسبرطة شبه الاحرار ممن يسكنون في المدن التابعة لها في أطراف لاكونيا ويعرفون باسم البريؤيكي (Perioeci) يصنعون من هذا المعدن أسلحة لسادتهم الإسبرطيين ، وقليلا من الآلات الزراعية التي لا غناء عن الحديد في صناعتها . ولم يعرف اليونان الصلب أو الحديد الزهر .

وبينما كانت بلاد اليونان غنية في ثروتها المعدنية ، كانت في الوقت نفسه فقيرة في منتجاتها الزراعية . ولكي نفهم ذلك علينا أن نستعرض إمكاناتها الزراعية . ويقسم الجغرافيون المحدثون بلاد اليونان أربعة أقسام : الأراضي الجدباء ، والغابات ، والمراعي ، والاراضي الصالحة للزراعة . والاراضي الجدباء معظمها صخور وتكوّن الآن حوالي ثلث المساحة كلها ، وهي أبرز الأقسام وأكثرها وضوحاً لأن بلاد اليونان - كما ذكرنا - ليست مسطحة بل جبلية حتى لتبدو كالجسم النحيل العاري الذي تبرز منه العظام . ولا يرجع قحلها إلى أنها بلاد

= فاضطرت إسبرطة ذات مرة إلى شرائه من كرويسوس (Croesus)، ملك ليديا، لكي تصنع منه نذراً للآلهة . وليس من المستبعد أن يكون الذهب قد استورد من مصر في العصر الميكيني (١٥٥٠ - ١١٥٠) .

جبلية فقليل من قمم جبالها يقع فوق خط الشجر الدائم ، وإنما يرجع قحلها إلى أنه لا توجد رطوبة مستديمة في المناسيب المرتفعة تكفي لمعادلة عمليات التجوية المستمرة التي تعرى السطح. لقد كانت بلاد اليونان بالمقاييس الحديثة أرضاً غير خصبة وإن كان الإغريق أنفسهم قد نظروا إلى هذه التربة بأعين مختلفة ، فجانب كبير منها صخري لا ينتج أي شيء ، ذلك لأن الدبال سرعان ما يختفي عندما لا تتخذ الاحتياطات الكافية ، لأن المطر لم يكن منتظما بحيث يقي هذه الطبقة . وفضلاً عن ذلك فإن المطر في حالة سقوطه كان ينشع بسرعة من خلال الحجر الجيري المسامي . ومناخ بلاد اليونان في جملته كمناخ البحر الابيض المتوسط ، فالصيف جاف والشتاء ممطر ، ومتوسط المطر لا يقل عن متوسطه في وسط أوروبا ، غير أن ٧٨٪ منه يسقط في شهور الشتاء ، ٧٪ في شهور يونيو ويوليو وأغسطس . وقد يؤدي انقطاع المطر باستمرار إلى شدة القيظ وجفاف الاراضي ، وذبول النباتات (٢) .

ومن الجائز أن الغابات كانت توجد قديماً في بعض أنحاء بلاد اليونان ، ولكنها زالت على مر الزمن إما بيد الإنسان الذي كان يقطع الاشجار ليستخدم أخشابها كوقود أو بفعل الماعز التي كانت تقضم ما يتخلف عنها فتحول دون نموها من جديد . وعلى أي حال فإن الغابات الكبيرة لا توجد الآن إلا في جبال المنطقة الشمالية الغربية وفي جزيرة يوبويا . على أنه ينبغي التنبيه إلى أن غابات بلاد اليونان لم تكن في أغلب الأحيان كثيفة بحيث لا تنفذ منها أشعة الشمس كغابات البلاد الشمالية ، فأشجارها كانت صغيرة ولا تنمو متقاربة ومعظمها

---

(١) وهو المادة العضوية الغروية الرقيقة التي تغطي الصخر واللازمة لنمو النبات والتي تنشأ عن عوامل التجوية وعوامل أخرى .

(٢) يبلغ متوسط درجة الحرارة في أثينا في شهر يوليو حوالي ٢٧ درجة مئوية ، وفي شهر يناير حوالي ٨ درجات مئوية .

دائمة الخضرة كالصنوبر والشربين والبلوط أو مستعرضة الأوراق كالقسطل . وكانت أكثر الأشجار البرية انتشاراً لا تعدو أن تكون شجيرات خضراء أو جافة حسب الفصول كالأسفندان . وكانت الحـــاجة شديدة إلى الخشب في بناء المنازل وأشد منها للوقود ، فضلاً عن أن المراكب الصغيرة كانت تحتاج باستمرار الى التجديد أو التغيير . وإذا كانت أثينا قد استطاعت أن تحصل على ما يلزمها من الوقود من غابات أخرناي (Acharnae) التي تبعد عنهـا بحوالي سبعة أميال ، فإنها كانت تفتقر إلى الأخشاب اللازمة لبناء السفن، ولذلك عملت على استيرادها من مناطق الغابات الكبيرة في خارج شبه جزيرة البلقان وبخاصة من الاقطار التي تقع على الساحل الشمالي للبحر الإيجي .

وكانت المراعي تنمو في أسفل الغابات أو بينها على منحدرات الجبـــال أو حيث زالت الأشجار تحت الصخور العارية مباشرة. وليست هذه المراعي حشائش خضراء كثيفة تنمو على مقربة من الأراضي المزرعة أو في وسطهـــا ، بل هي شجيرات قصيرة جافة تنمو في مناطق صخرية التربة منعزلة بعيداً عن السهول ، وترعى فيها الماعز والأغنام وكذلك الخنازير حيث يتوافر البلوط . ولم يكن الغذاء في المراعي كافياً لتربية المواشي الكبيرة كالثيران والبقر. ولذلك لم يتوافر السباخ لتحسين التربة التي هي فقيرة بطبيعتها، ومن ثم كان استهلاك اللحم ضئيلاً. وكانت المواشى الصغيرة تمد اليوناني بكميات قليلة من اللحم ليقيم أوده، وبالجلود لصناعة الأحذية ، وبالصوف لعمل الملابس . غير أن أسراب النحل تجد في هذه المراعي غذاءً وفيراً ، ولذلك اشتهرت بلاد اليونان لا بلبن المـــاعز فقط بل بالعسل كذلك . ولم يكن العسل غذاء كمالياً بل ضرورياً للإغريق لأنه كان يقوم عندهم مقام السكر في الوقت الحاضر .

فإذا هبطنا من المرتفعات وصلنا إلى مستوى الاراضي المزرعة التي كانت باستثناء الغابات ، أصغر الاقسام الجغرافية الاربعة إذ لا تزيد مساحته عن خمس

مساحة بلاد اليونان . وتوجد السهول :

أ – في ثساليا (حول لاريسّا وشرقي فرسالوس) – وهذا هو أفسح سهول بلاد اليونان – وفي وادي نهر اسبرخيوس شرقي خليج ماليس ؛ وفي فوكيس جنوب إلاتيّا .

ب – وفي بويوتيا شمالي طيبة ؛

ج – وفي أتيكا عند أليوسيس (غربي أثينا) ، وبين جبل هيمتوس وجبال الساحل الشرقي ، وحول مراثون ؛

د – وفي أرجوليس حول أرجوس ؛ والوادي المتاخم لمانتينيّا وتجيا في غرب أرجوس ؛ وفي لاكونيا بجنوب اسبرطة ؛ وأخيراً في كل الساحل الغربي من إقليم إيليس .

هـ – وأما الجزر فخالية من السهول ما عدا يوبويا .

غير أن هذه السهول كانت أهم الاقسام لأنه لولاها لما أصبحت بلاد اليونان صالحة للسكنى أو موطناً لحضارة من أعظم الحضارات . وتكوين هذه السهول على جانب كبير من الاهمية لأنه أثر تأثيراً كبيراً في تاريخ اليونان السياسي . وعلى عكس الحال في بلاد مثل سويسرا فإنها لا تتكون من سلاسل جبلية ووديان تسير إحداها بموازاة الاخرى تقريباً ، بل تتكون من سهول أو أراض منبسطة محصورة بين سلاسل جبلية لا تجري في خطوط مستقيمة بل على شكل مستطيلات . وهذه السهول منبسطة بوجه عام وإذا ارتفع سطحها فإنه لا يرتفع عند أسفل الجبال بل عند الوسط حتى لتبدو كأنها أطباق مقلوبة . ولهذا انقسمت الاراضي المنزرعة في بلاد اليونان إلى مناطق منعزلة أشبه ما تكون بالصناديق المربعة الصغيرة المغلقة التي يصعب فتحها . وبعضها بل أهمها مثل

سهل أثينا وإليوسيس وأرجوس ليس له سوى جانب واحد مكشوف من ناحية البحر ؛ وأما البعض الآخر كسهل اسبرطة ووسط أركاديا وثساليا فتحيط الجبال بجوانبه الاربعة . وقد ساعد هذا التكوين الطبيعي على عزلة كلا النوعين من السهول في العصور الاولى عندما لم تكن الملاحة قد أصبحت بعد آمنة من خطر القرصنة ، فكانت معظم المدن كأثينا وأرجوس ، تبنى على مبعدة من الساحل .

وعلى حاصلات هذه السهول الصغيرة كان يعيش الإغريق منذ أن استقروا في القرى وانصرفوا عن حياة الرعي والبداوة . وتأتي في مقدمة هذه الحاصيل الضرورية للمعيشة **القمح والعنب والزيتون** التي يطلق عليها البعض اسم « ثالوث البحر الأبيض المتوسط » . ومنها كان يصنع الخبز والنبيذ والزيت . وأهم هذه الحاصيل بداهة القمح ، الذي يسمى في اليونانية سيتوس sitos (وهي كلمة قد تعني الشعير أيضاً) وكان الغذاء الرئيسي عند اليونان. وقلما كان اليونان يأكلون اللحم إلا في الاعياد عندما كانت توزع القرابين . لا عجب أن صارت كلمة الأضاحي مرادفة لكلمة الذبائح عند الإغريق. وكل طعام آخر غير القمح كان بمثابة الحلوى التي تأتي في ختام الوجبة [١] . وكان اليونان يأكلون الأطعمة المصنوعة من الدقيق بكميات كبيرة وأصناف متعددة . ولم يكن الخبز يصنع عادة إلا من القمح ، وأما الشعير الذي كان يزرع في أكتوبر ويحصد

---

(١) كل الاطعمة الاخرى التي تؤكل إلى جانب الخبز تسمى opson عند اليونان ، وقد يكون اللحم أو السمك أو الخضروات أو المرق أو الزيتون والجبن . ومن الغريب أن أفلاطون يتجاهل أهم هذه الاطعمة وهو السمك ويحرمه على حراس المدينة (الفاضلة)، ولعله تأثر في ذلك بهوميروس أو بالإسبرطيين . لكن لا شك في أن السمك كان أهم هذه الاطعمة، وليس أدل على ذلك من أن كلمة سمك ixthus أصبحت مرادفة لكلمة opson (وهو ما يستساغ من الطعام ويلذطعمه أي الإدام أو « الغموس ») . وكانت سوق السمك تسمى to opson تمييزاً لها عن سوق اللحم mageiron .

في مايو فكان دقيقه يعجن دون أن يخبز ويؤكل كالثريد بعد خلطه بالماء . ولم يكن اليونان شعباً أكولاً نهماً فمعظمهم كان ولا يزال يتناول وجبتين فقط ، إحداهما في الظهر والأخرى في المساء . وكانت كل دويلة يونانية تزرع أو تحاول أن تزرع ما يكفيها من القمح ، فإذا حدث – وكثيراً ما كان يحدث – أن قل العرض عن الطلب وعجزت دولة المدينة عن تحقيق الاكتفاء الذاتي ثارت فيها مشاكل سياسية خطيرة . وكان القمح يزرع في أكتوبر ويحصد في يونيو ، وفي أي بقعة من ريف المدينة تصلح لزراعته . ونرى المؤرخ الأثيني الكبير ثوكيديديس [1] (Thucydides) لا يؤرخ أحداث فصل معين بالشهور التي كانت اسماؤها تختلف باختلاف الدويلات اليونانية ، وإنما بحالة المحصول في

---

(١) عاش في القرن الخامس (حوالي ٤٦٠ - حوالي ٤٠٠) ويعتبر من أعظم إن لم يكن هو أعظم المؤرخين القدماء . وقد أرخ للحروب البلوبونيزية التي دارت رحاها بين أكبر قوتين في بلاد الإغريق أثينا واسبرطة (٤٣١ - ٤٠٤) ، ولو أن تاريخه ينتهي عند سنة ٤١١ (وقد تابعه المؤرخ اكسنوفون) . وقد اشترك توكيديديس في هذه الحرب ثم نفي من وطنه أثينا لتقصيره في نجدة إحدى المستعمرات مما أدى إلى سقوطها في يد الأعداء (٤٢٤) . وقد عكف في منفاه الذي استغرق عدة سنوات على الكتابة ، مستمداً معلوماته عن الحرب من مشاهداته الشخصية والسجلات الرسمية ، والشهود العيان وخطب القواد والساسة ، وغير ذلك من المصادر الوثيقة . وعالجها بأمانة ودقة وعمق معالجة المؤرخ الناقد الحصيف المنصف . فلا عجب أن أجمع الباحثون على طول باعه كمؤرخ لم تخف عليه أسباب الحرب الحقيقية وفهم الاتجاهات المريضة في عصره . لكنهم أخذوا عليه إسرافه في الاستشهاد بالخطب التي يتصور كأنها جرت على لسان الزعماء . وحيث أنه لا يعنى بالألفاظ بل بالمعاني ، فان أسلوبه صعب معقد ، ويفتقر إلى السلاسة والرونق ، وليس طريفاً شائقاً على خلاف هيرودوت . ولكن تاريخه كما وصفه «كتاب يقتنى للأبد». وكان المؤرخ - مع إنصافه لاسبرطة - من المعجبين بالقائد والزعيم بريكليس (Pericles) ، ذلك السياسي الكبير الذي بلغت أثينا في عهده ذروة المجد والحضارة (القرن الخامس أو العصر الذهبي) حتى أصبحت أثينا - كما يقول المؤرخ نقلا عن خطاب التأبين الذي ألقاه بريكليس في رثاء قتلى أثينا في السنة الاولى من الحرب - أصبحت بحق « مدرسة هللاس » أي معلمة كل بلاد الإغريق .

كل فصل [١] .

وبعد القمح يأتي العنب الذي عرفته بلاد اليونان منذ فجر تاريخها . وكان يزرع في أي مكان إذ كانت كل منطقة تزرعه للاستهلاك المحلي . على أن تجـارة النبيذ كانت مقصورة على الانواع الفاخرة كنبيذ خيوس ولسبوس وثاسوس[٢]. وكان هو الشراب القومي عند اليونان مثلما كانت الجعة شراب المصريين ونبيذ البلح شراب البابليين. ولم يكن الإغريق شعباً مدمناً للخمر ولو أن النبيذ كان له دور كبير في حياتهم الاجتماعية والدينية . وبمرور الزمن ارتبط ديونيسوس (Dionysus) أو باكخوس(Bacchus)بالأعناب حتى صار إله النبيذ ، ونرى صورته على الأواني الفخارية مقرونة بغصون الكرم .

وأما عن الزيتون فكان زيته يقوم في حياة الإغريق مقام الزبد والصابون والغاز، أي كان يستعمل للطهو والغسل والإضاءة فضلاً عن استعماله كمرهم عطري مستحب في المناخ الجـاف . لقد كان أساس الوجبة اليونانية يتألف من الخبز والزيتون أو الخبز والجبن المصنوع من لبن الماعز . وكان الزيت يستعمل في كل طعام تقريبـاً . ولم يعرف الإغريق الصابون ، بل كانوا يدلكون أجسامهم بالزيت ، فإن لم يؤد الغرض ، أضافوا إليه بعض العطور. وكانت وسيلة الإضاءة الوحيدة هي مسارج الزيت أو مشاعل الراتنج. ولعل هذا يفسر امتلاء المتاحف اليونانية – الرومانية بمسارج الزيت الفخارية . ولكـل غرض من هذه الاغراض كانت ربات البيوت يستعملن نوعاً مختلفاً من الزيت . وكان الزيتون

(١) كانت الربة ديميتير (Demeter) هي ربة القمح . وقد اشتهرت عبادتها ذات الطقوس السرية في إليوسيس .

(٢) وأما الزبيب وهو من أهم السلع التي تصدرها الآن بلاد اليونان فلم يكن معروفاً في الزمن القديم ، وعن النبيذ في اليونان القديمة ، راجع :

Ch. Seltman, Wine in the Ancient World. London, 1957.

يعصر في معاصر خاصة، والعصرة الأولى ينتج منها زيت الطعام ومن الثانية زيت الاستحمام، ومن الثالثة زيت الإضاءة، وأما ما يبقى بعد ذلك من قشر فكان يستعمل كوقود . وفي الأساطير اليونانية أن الربة أثينة هي التي أدخلت شجرة الزيتون في إقليم أتيكا في وقت لم تكن قد نبتت بعد في أي جهة أخرى من بلاد اليونان. غير أن اكتشاف الأثريين معصرة لزيت الزيتون في قصر مينوس بمدينة كنوسوس الكريتية ، يرجح أن شجرة الزيتون كانت أصيلة في بلاد اليونان، وأن إكليل الزيتون البري كان هو الجائزة اليونانية المفضلة منذ الدورة الأولى للألعاب الأوليمبية في عام ٧٧٦ . وقد تنمو هذه الشجرة في أي جزء من بلاد الإغريق تصلح فيه التربة لزراعتها . ولكنها ازدهرت بوجه خاص في أتيكا، حيث أصبح الزيت أهم سلع التصدير حتى أن صولون Solon [١] عندما حرم تصدير كل المنتجات الزراعية استثنى الزيت . ومن ثم كثرت الإشارة إلى شجرة الزيتون في الشعر اليوناني . غير أن الزيتون لم يزرع في ساحل البحر الأسود ، ولهذا كانت المستعمرات اليونانية العديدة هناك تعتمد على الزيت المستورد إليها من الوطن الأصلي أو من ساحل آسيا الصغرى . وثمة حقيقة هامة تتصل بالزيتون ، فهو لا ينضج إلا بعد مدة طويلة من غرس أشجاره التي لا تعطي محصولاً كاملاً إلا بعد ستة عشر أو ثمانية عشر عاماً وقد لا تعطي أجود محصول إلا بعد أربعين أو ستين عاماً [٢] . ولهذا كانت أشجار الزيتون ، كالغابات ، من العسير زراعتها إلا تحت ظل حكومة مركزية قوية ، وعند قوم أوتوا من الصبر قدراً كبيراً . وهذا يفسر التقدم البطيء الذي أحرزته زراعة الزيتون في الأيام الأولى وكذلك الصعوبات التي لقيها كل من صولون

(١) المشرع والمصلح الأثيني الكبير (حوالي ٥٩٤ — حوالي ٥٦٠) .

(٢) ومن ثم أصبح غصن الزيتون رمزاً للسلام بمعنى أنه يحتاج إلى فترة سلام طويلة تحت ظل حكومة قوية تكفل الأمن فلا تتعرض الأرض للتخريب وتتاح الفرصة لكي ينمو الزيتون وينضج .

وبيسستراتوس عندما شجعت الحكومة انتشاره . ومن المحتمل أن زراعته ما كانت لتنتشر في أتيكا انتشاراً واسعاً لولا أن بيسستراتوس منح ملاك الأراضي قروضاً من جيبه الخاص[1] . وثمة ملاحظة أخيرة عن الزيتون وهي أنه كان نعمة أسبغتها الطبيعة على أتيكا ولكنه كان نقمة عليها في بعض الأحيان. ذلك أن إتلاف مزرعة من مزارع الزيتون لا يعني – كما يحدث في حالة حقل من القمح – ضياع دخل سنة واحدة ، بل ضياع رأس المال كله . ولهذا أصيبت أتيكا بأضرار فادحة بسبب التخريب الذي أحدثه الفرس بأراضيها في الحروب الميدية (٤٩٠ – ٤٦٧) والإسبرطيون في الحرب البلوبونيزية (٤٣١ – ٤٠٤) [2] .

وفي وسعنا أن نتصور كيف أدى هذا التقشف في المأكل والملبس وتواضع مطالب المعيشة التي كان في وسع اليوناني أن يسد أكثرها محلياً ، كيف أدى إلى تقييد نشاط الإنتاج والتجارة ، ولا سيما عندما نعقد المقارنة بالعصر الحديث حيث تستهلك أبسط الأسر سلعاً مستوردة من كل أنحاء العالم : الصوف من استراليا ، والقطن من مصر وأمريكا والهند ، والأرز من الشرق الأقصى والبن من البرازيل وجاوة ... الخ . هذا فضلاً عن تأثير الرق الذي أفضى إلى هبوط مستوى المعيشة بين ضحاياه من العبيد هبوطاً شديداً . على أن هذا المستوى المعيشي المنخفض لجمهرة الشعب اليوناني لم يكن وحده السبب في أن الإنتاج على نطاق واسع لم يكن مجزياً أو مربحاً . ذلك أن الظروف الجغرافية لبلاد اليونان والأقطار المحيطة بها كانت تعوق جانباً من التعامل التجاري. لقد كانت الملاحة – على نحو ما رأينا – مقيدة ، بل معطلة أثناء الشتاء كله

---

(١) طاغية أثينا الشهير (٥٦٠ – ٥٢٧) . حكم من بعده كطغاة (tyrannos) إبناه هيبياس وهيبارخوس (٥٢٧ – ٥١٠) . وبذلك اسدل الستار على حكم الطغاة في اثينا .

(٢) لم تعرف بلاد اليونان زراعة القطن ، وزرعت الكتان بمقادير قليلة ، ولم يكن يرتدي الملابس الكتانية إلا أفراد الطبقة الميسورة . وأما عن الفواكه فقد عرفت منها بلاد اليونان التين والتفاح والكمثري والرمان، ولم تزرع فيها – على الأقل قبل أيام الإسكندر – الفراولة والبرتقال والطماطم ولا الخوخ أو المشمش.

والليل كله . وقد تعذر النقل البحري الداخلي بسبب عدم صلاحية الأنهار الملاحة ،وتعسر النقل البري بسبب الافتقار إلىالطرقالجيدة .وكان مد الطرق أمراً شاقاً مضنياً حتى أن المصطلح اليوناني لمد الطريق (temnein hodon) أو (keirein hodon) يؤدي معنى شق الطريقأو نحته.ولذا اقتصر الأغريق على تعبيد الطرق الضرورية لسير المواكب الدينية (pompai) إلى المعابد الشهيرة حيث كانت تعقد الأسواق أيضاً في الأعياد الدينية الكبرى . وقد عاقت المنازعات السياسية بين دول المدن اليونانية تطورها الاقتصادي في هذا الصدد كذلك ، حيث أن كل مدينة كانت ترى مصلحتها في أن تترك الطرق على ما هي عليه لكي تعوق زحف عدوتها إليها إذا ما سيرت جيشاً لغزوها . وكاد نقل السلع القابلة للتلف والبضائع الثقيلة عن طريق البر أن يكون مستحيلاً في بلاد اليونان . ومعنى هذا أن كل المناطق التي لا تقع على البحر كانت محرومة من التبادل التجاري إلا المحلي منه . وكانت هناك عوائق أخرىللتجارة إلى جانب الظروف الجغرافية ، ونعني بذلك اللصوصية في البر ، والقرصنة في البحر ، حيث كانت كثرة الخلجان على السواحل عاملاً من عوامل تسهيلها والتشجيع عليها . وقد سبق أن شرحنا كيف وقف التطاحن السياسي في بلاد اليونان بسبب فقر التربة حائلاً دون تقدم حياتها الاقتصادية ، لأنه لم يحدث – إلا فيفترات قصيرة – أن قامت دولة قوية واحدة في وسعها أن تؤمن التجارة في البحر ، وكان لهذا أثره الخطير في حياة بلاد فقيرة المحاصيل الزراعية كبلاد اليونان التي كان رخاؤها يعتمد على التجارة إلى حد كبير .

وكان التطور التاريخي يجري في اتجاه مضاد لمصلحة بلاد اليونان ، بل لا نعدو الصواب إذا قلنا إنه أصابها بضربة قاصمة . ذلك أنه عندما أقام فيليب المقدوني وابنه الإسكندر دولة قوية موحدة قادرة على تأمين البحر وحماية التجارة ، وفتح أحدهما وهو الإسكندر أقطاراً خصبة غنية في آسيا ومصر ، انتقل مركز التجارة من الدويلات المحيطة بالبحر الإيجي إلى الشرق الذي

اجتذب أعداداً غفيرة من الإغريق المغامرين ذوي النشاط والعزيمة والإقدام . ولم تغنم بلاد اليونان سوى النزر اليسير من ذلك التبادل التجاري الجديد الذي قام فيما بعد بين الممالك الهللينستية الغنية والدول القوية الواقعة في غرب البحر المتوسط ، ذلك بسبب التقدم العلمي في فن الملاحة حيث لم يعد من الضروري أن تلتزم السفن السواحل أو تتجنب الخروج إلى عرض البحر . إن تاريخ بلاد اليونان بعد الإسكندر الأكبر يعكس ، من ناحية الحياة الاقتصادية ، صورة قاتمة من التدهور والفقر المطرد .

تنوع البيئة وأثرها في تكوين المواطن اليوناني :

تتميز الحالة النباتية في بلاد اليونان بظاهرة التغير المفاجىء من نوع إلى نوع ، فكثيراً ما توجد منطقة خصبة وفيرة الزرع إلى جانب منطقة قاحلة جرداء . وقد نشأ عن الاختلاف في ارتفاع السطح اختلاف في المناخ .وزاد من حدته القرب من البحر أو البعد عنه ، فضلاً عن الاختلاف الكبير في درجة الحرارة بين الصيف والشتاء ، وإن لم تختلف كثيراً بين يوم ويوم في الفصل الواحد . وقد أدى ذلك إلى اختلاف كبير في شدة الرياح ودرجة الحرارة وكمية المطر بين مكان ومكان .

وقد تضافرت هذه العوامل على جعل الحياة في بلاد اليونان شاقة وسهلة ، وعلى جعل شعبها صلباً ولين العريكة في الوقت نفسه . ذلك أن وعورة الأرض وجدبها ، واختلاف المناخ من فصل إلى فصل ، وقسوة الشتاء ، قد جعلت البقاء للأصلح ، وبالتالي جعلت اليونان شعباً متقشفاً شديد المراس غير أن اعتدال الجو فى الصيف الطويل الجاف ، مع قدرة اليوناني على أن يعيش عيشة الكفاف ، ترتب عليها أن أصبح الكفاح من أجل القوت لا يستغرق كل وقته ، فلم يكن بحاجة إلى الكد المستمر من الصباح إلى المساء لكي يحصل على لقمة العيش .

ولم يكن المناخ ليسمح لليوناني بارتداء الملابس الثقيلة ، فكان يكتفي بأن يلف جسمه بقطعة من الصوف [1] ، وهـــو صوف كانت زوجته تنسجه له

---

(١) الرداءان الرئيسيان عند اليونان للرجال والنساء على السواء هما القميص أو الجلباب المسمى بالخيتون (chiton)، والعباءة المعروفة بالهياتيون (himation)، وكلاهما مستطيل الشكل. والخيتون على نوعين ، الدوري وهو مصنوع من الصوف ، والأيوني وهو مصنوع من الكتـــان ، والأول هو ما كانت نساء أثينا تلبسنه في العصور الأولى وكان يلبس فوق الجسم مباشرة. وجلباب النساء طويل ، وجلباب الرجال قصير ، ويصل طوله في العادة إلى طول القامة أو أزيد قليلا ، ويبلغ عرضه ضعف امتداد الذراع . وقبل ارتدائه كانت النساء تطوينه أولاً عند طرفه العلوي حتى تصل الثنية إلى الوسط ، وبعدئذ تطوينه بالطول . وكانت أطرافه المفتوحة تخاط بعضهـــا بالبعض الآخر ، غير أن نساء إسبرطه كن يشبكنها بدبابيس . وكان الجلباب يتدلى من الكتفين، وفيه فتحتان للذراعين . ويثبت عند الوسط بحزام . وفي العصور الأولى كانت النساء في أثينـــا ترتدين الجلباب الدوري بينما كان الرجال يرتدون الجلباب الأيوني . لكن حوالي منتصف القرن الخامس لبست النساء الجلباب الأيوني، ولبس الرجال جلباباً قصيراً من الصوف يصل إلى الركبتين ويشد إلى الكتف اليسري بأربطة بحيث تبقى الذراع اليمنى عارية .

وأما اللباس الخارجي العادي (الذي يلبس فوق الجلبـــاب عند الخروج) فكان العباءة أو الهياتيون التي يبلغ طولها سبع أقدام وعرضها مساو لقامة الشخص . وكانت تلف حول الجسم كله ما عدا الكتف اليسري في العادة ، وقد تطوى طيات عديدة بالطريقة التي تروق الرجل أو المرأة .

وعند ممارسة بعض أنواع النشاط الرياضي أو العسكري كركوب الخيل مثلا كان اليونان (وبخاصة الشبان epheboi) يلبسون رداءً قصيراً بدون أكمام يطرح على الكتفين يسمى بالخلاميس (chlamys) .

وأما البيلوس (peplos)فهو رداء دوري عريض خارجي للنساء يتكون من قطعة واحدة ويشبك بدبابيس عند الكتفين ويطوى حسب الرغبة ، أو هو الثوب (الفستان) الذي تطرزه الفتيات الأثينات ليحمل في موكب فاخر إلى معبد البارثنون على الأكروبول لإهدائه إلى الربـــة أثينه في عيدها الكبير المسمى باثاثينيا (Panathenaea).

ويلاحظ أن اللون الغالب في زي الرجال هو الأبيض ، والرمادي في زي العمال ، وأما زي النساء فمختلف الألوان ، وأن رداء الرجال يشبه رداء النساء ، وأن « الموضة » لم تكن تتغير بسرعة كما هو حالها الآن ، وأن الثوب كان ينسج في البيت ، وقد يستخدم كرداء أو شال أو بطانية أو لحاف .

في البيت . ولم تكن الملابس الكتانيـة رخيصة فكان استبدالها قبل أن تبلى يعتبر مظهراً من مظاهر التأنق والثراء .

ولم يعرف اليوناني كيف يكون رجلاً اقتصاديا سواء في عادته أو في تفكيره. والحق إن الاقتصاد ، على الرغم من شغف الإغريق بالمال والثروة ، لم يكن ذا أهمية رئيسية في حياتهم فالتفكير الاقتصادي كان غريباً على الإغريق على الأقل قبل القرن الرابع ق.م. ومما لا جدال فيه أن القيم الخالدة التي تدين بها الانسانية لبلاد اليونان لا تمت بأدنى صلة إلى ميدان الاقتصاد . والكلمة اليونانية التي تعبر عن البطالة (scholé) تعني الفراغ ، بينما لا توجد في اليونانية كلمـة تعبر عن العمل أفضل من الكلمة نفسها في حالة النفي وهي عدم الفراغ (ascholia) . والفراغ ربيب التأمل والتفكير كما أن الحاجة أم الاختراع . وإذا كان الفلاح اليوناني قد فهم ما في مسرحيات يوربيديس (Euripides) من معنى خفـي عميق ، فإنه لم يفكر أبداً في ابتكار آلة بسيطة كطاحونة الهواء . وفضلاً عن ذلك فان هذا الصيف الطويل الجاف ، الذي قلما يكون خانق الحرارة، قد دفع بالناس إلى الحياة الخلوية وجعلهم على اتصال وثيق مستمر بالطبيعة،فكان الناس سواء في الريف أم في المدينة يقضون جانباً كبيراً من نهارهم خارج البيوت. وقد أتاح ذلك لهم فرصة الالتقاء المستمر . وأثرت جميع هذه العوامل في حياة الفرد الخاصة وحياة « دولة المدينة » السياسية .

كان المواطن الأثيني العادي— كما ورد عند اكسنوفون (Xenophon)[1]—

(١) مؤرخ أثيني (حوالي ٤٣٠ - ٣٥٤) كان ميسور الحال ، تتلمذ على سقراط وخدم في سلاح الفرسان ثم اشترك في الحملة الشهيرة باسم «حملة العشرة آلاف» من الجنود الإغريق المرتزقة التي خرجت في ربيع عام ٤٠١ لمساعدة قورش الأصغر الفارسي ضد أخيه أردشير الثاني ، وقد انتهت الحملة بالفشل إذ قتل قورش ولقى معظم الضباط الإغريق مصرعهـم في معركة كيناكسا Cunaxa (على بعد ٤٥ ميلا شمالي بابل) في خريف عام ٤٠١ . وقد اسندت إلى اكسنوفون نفسه قيادة =

يدع زوجته تدير شئون المنزل وحدها ، بينما يخرج هو ليمضي سحابة النهار في الحقل أو في السوق العـامة (agora) أو في المحكمة (dikasterion) أو في

= الحملة أثناء عودتها وسط جبال آسيا الصغرى إلى ميناء طرابيزون (على البحر الأسود) .

كان اكسنوفون من المعجبين باسبرطه وأنظمتها حتى أنه دعا قواته بعد الحمـلة المذكورة إلى الانضمام إلى جيش اسبرطة . وقد نفى من أثينا إما لميوله الإسبرطية أو لصداقته لسقراط (الذي ارغم على الانتحار عام ٣٩٩) ، فعاش معظم حياته في اسبرطه وكورنثة. وقد التحق بالجيش الإسبرطي عام ٣٩٦ ، واشترك تحت قيادة مليكها أجيسيلاوس في معركة كورونيا (Coronea) بـاقليم بويوتيـا حيث انتصر الإسبرطيون انتصارا غالى الثمن على طيبة وحلفائها عام ٣٩٤ . ولما عادت أثينا إلى محالفة اسبرطه صدر قرار بالعفو عنه في عام ٣٦٩ ، فأعاد أسرته إلى أثينا وكان يتردد عليها من وقت لآخر . وقد توفي في كورنثة.

وأهم مؤلفاته هي :

(ا) التاريخ الهلليني (Hellenica) الذي يبدأ من حيث توقف توكيديديس في عام ٤١١ (سقوط الديمقراطية الأثينية وقيام حكومة الأربعمائة الأوليجركية المتطرفة ، ثم حكومة الخمسة آلاف) وينتهي عند عام ٣٦٢ وهو تاريخ معركة مانتينيا Mantinea (في سهـل أركاديا) حيث انتصر إباميتونداس ، زعيم طيبة وقائدها الكبير ، على اسبرطة انتصارا غير حاسم ولقى مصرعه . ويكشف الكتاب عن تحيزه لاسبرطه ضد طيبة .

(ب) حملة قورش (Anabasis) ، حيث يصف وصفاً طريفاً شائقاً حملة العشرة آلاف من الجنود الإغريق المرتزقة لمساعدة قورش عام ٤٠١ .

(حـ) تربية قورش (Cyropaedia) ، وهو كتاب عن سيرة قورش الأكبر (٥٥٩ — ٥٢٩) ، مؤسس الإمبراطورية الفارسية الأخيمينية ، وهي ترجمة متسمة بطابع الخيال ، وطويلة مملـة .

(د) دستور اللاكيدايمونيين (Politeia Lakedaimonion) ، وهـو بحث في دستور الإسبرطيين ، مختصر وخال من أي ملاحظات نقدية ، ويميل إلى الإطراء .

(هـ) ذكريات أو مذكرات عن سقراط (Memorabilia) وهي دفـاع عن سقراط ضد السفسطائيين ، ونوادر أخرى عنه . وللمؤرخ كتاب آخر في نفس الموضوع بعنوان « الدفاع » (Apologia) يشرح فيه لماذا لم يدافع سقراط عن نفسه اثناء محاكمته دفاعا أفضل . =

الجمعية الشعبية (ecclesia) أو مجلس الشورى (boulé) أو النادي الرياضي الثقافي (gymnasium)حيث يمارس مهنته أو يؤدي واجبه أو يروح عن نفسه. وجميع المنظمات الرئيسية في الحياة اليونانية كانت تنعقد في الخلاء[1]. وكان اليوناني لا يأوي إلى منزله إلا في ساعات الأكل والنوم . ولم يكن يركن إلى بيته وأسرته وقتاً طويلاً حتى في الشتاء الذي كان عند الإغريق فترة توقف نسبي عن النشاط. وإذ كان الصيف عندهم طويلاً والشتاء قصيراً فقد وصف الأخير أحياناً بأنه عطلة مؤقتة للصيف . وعندما نظم الإغريق أسلوب حياتهم ، نظموه وفقاً لجو الصيف لا لجو الشتاء . ففي الشتاء كانوا يتوقفون عن القتال ويتجنبون ركوب البحر . غير أن الفلاحين كانوا يتابعون عملهم في الريف كالمعتاد . وكان سكان المدينة يؤمون جلسات الجمعية الشعبية أو المحاكم التي تنعقد في الخلاء . أو يلتجئون إلى

= (و) مدبر شئون الضيعة Oeconomicus ،وهو بحث عن ادارة المزرعة وتدبير شئون المنزل ، في شكل حوار بين سقراط وأحد الملاك الأثينيين . ويتصل بهذا البحث كتاب آخر يتضمن مقترحات لتنمية موارد أثينا المالية بعنوان (Peri porôn) .

(ز) حديث مائدة الشراب (Symposium) ، وهو بمثابة ندوة تخيلية يعقدها بعض الضيوف حول مائدة الشراب في منزل كالياس (Callias) أحد ثراة أثينا.

(ح) بحث في الفروسية (Peri hippikès) ، وهو أقدم بحث كامل عن هذا الموضوع . وبحث آخر بعنوان (Hipparchicus) عن واجبات ضابط الفرسان مشفوعاً بمقترحات لتحسين سلاح الفرسان . وللمؤرخ أيضاً بحث في الصيد بعنوان Cynegeticus ونجاحة صيد الأرانب البرية ، ومن الغريب أن يقحم فيه هجوما عنيفا على السفسطائيين« الذين لا يفيدون أحداً من الناس » .

لم يكن اكسنوفون مؤرخاً كبيراً ، لكنه كان قادرا على معالجة مختلف الموضوعات،وتصوير الشخصيات ووصف المشاهد . فهو فيلسوف ومؤرخ واقتصادي هاو . لكنه كان خبيرا كل الخبرة بالشئون العسكرية وعلى الأخص فن قتال الفرسان . وأفكاره في الغالب عادية ومألوفة وليس فيها جديد ، وتبعث على السأم من كثرة تكراره لها . وهو كثير الاقتباس عن غيره . وأسلوبه سهل بسيط ودارج أحياناً وإن كان لا يخلو من اللمحات البلاغية والألفاظ الشعرية .

(١) حتى المسرح اليوناني (theatron) كان يقام في الخلاء .

الحوانيت أو الأروقـــة المسقوفة (stoa) إلتماساً للدفء وقتـــل الوقت بالحديث والمناقشات . وجدير بالملاحظة أن بيوت الإغريق البسيطة لم تكن من النوع الذي يكفل لسكانها الراحة التـامة لا في الصيف ولا في الشتاء . ولم يعن اليوناني بتوفير الراحة في بيته (المبني من الطين المجفف في الشمس ومن الخشب) لأنه لم يكن يقضي فيه فترة طويلة من النهار [1] . وبالإضافة إلى ذلك فـــانه لم يتعود أن يدعو أصدقاءه لزيارته في المنزل حيث لا يتهيأ الجو المناسب للكـلام بحرية تامة مع وجود النساء . ومن ثم أصبحت السوق العامة والأروقة المسقوفة بالنسبة لليونان كالنوادي بالنسبة لنا في العصر الحـديث ، غير أنهم كانوا يمضون فيها وقتاً أطول بكثير مما نمضيه نحن الآن . وفي الحق إن اليوناني لم يكن رجل أسرة بل كان ، كما سماه أرسطو ، حيوانـاً مدنياً (politikon zôon) ، أي شغوفاً لا بالحياة في المدينة فقط بل بالوقوف على أحوالها والمشاركة في تدبير شئونها ومناقشة سياستها. وقد بلغ من شغفه بحياة الخلاء أنه زهد في بعض المهن كالصناعة التي تستلزم البقاء بين جدران أربعة .

أثر البيئة في مركز المرأة عند اليونان :

ولم يكن هناك مناص من أن يؤثر ذلك في مركز المرأة عنـــد اليونان وفي المجتمع الأثيني بوجه خاص ، حتى لقد قيل إن مركز المرأة في أثينا كان أدنى من مركزها في مجتمعات كريت وميكيناي واسبرطة والمدن الأيونية ومجتمـــع الرومان . وقيل أيضاً إن المرأة اليونانية أو على الأقـل الأثينية كانت تعيش في عزلة أشبه ما تكون بعزلتها في بعض بلاد الشرق ، وأنها لم تظفر من الرجال بأي احترام ، بل كانت تلقي منهم معاملة مشوبة بالازدراء والامتهان. غير أننا نجانب الصواب لو سلمنا بصحة كل ما قيل ويقال إلى الآن عن حطة مركز المرأة

---

(١) ومع هذا فلا بد من أنه كانت هناك منازل كثيرة فخمة يمتلكها الأثرياء .

الأثينية لعدة أسباب ، لأن ما لدينا من قرائن إما طفيف أو مبتور أو خاطىء تفسيره . وفي رأينا أن المقارنة بالمجتمع المينوي في كريت أمر غير جائز لأن هذا المجتمع ينتمي إلى حضارة اتضح أنها غير يونانية ، وهي غير جائزة أيضاً في حالة المدن الأيونية التي تعرضت للمؤثرات الشرقية تعرضاً مستمراً مباشراً ، وبخاصة من ناحية ليديا وكاريا . كما لا ينبغي أن نقيس وضع المرأة في أثينـــا بوضعها في اسبرطة التي لا خلاف في أنها كانت ذات نظام فريد بين المدن اليونانية من وجوه كثيرة . ومن المسلم به أيضاً أن الرومان وإن اقتبسوا الكثير من اليونان وشابهوهم من بعض النواحي ، إلا أنهم كانوا يختلفون عن اليونان اختلافاً جوهريـــاً في التفكير وأساليب المعيشة . ولا مراء في أن الكتّاب المحدثين قد تأثروا في أحكامهم على المرأة اليونانية بما يرونه الآن من حولهم ، غير أن مقــارنة المرأة الأثينية بالمرأة في العصر الحديث ضرب من القياس الباطل في أغلب الاحيان ولا سيما بعد أن طرأ على المدنية تغيير هائل في شتى الميادين ومن ثم لا تجوز إلا مفاضلة واحدة وهي مفاضلة مركز المرأة في المجتمع الأثيني ومركزها في المجتمع الميكيني ، وهو مجتمع نبعت حضارته من أرض اليونان ، على أن يؤخذ دائماً في الاعتبار فارق الزمن بين العصر الهلليني والعصر الهلladي [1]

المرأة في العصر الهلادي :

لقد كانت أثينا ، على ضوء الكشوف الأثرية الأخيرة ، هي المكان الذي فر إليه الأخيّون بعد الغزو الدُوري ، وآوى المنشدين (aoidoi) الهاربين من قصور ميكيناي المتهاوية وغيرها من مراكز الحضارة الميكينية في البلوبونيز ، ومن ثم كانت هي المكان الذي ورث الكثير من مظاهر تلك الحضارة وحفظ التراث الملحمي القديم من الضياع . وقليل من معلوماتنا عن المجتمع الميكيني

(١) العصر الهلادي هو أقدم عصور الحضارة المعروفة لنا في بلاد اليونان، ويمتد من حوالي عام ٢٣٠٠ - ١١٥٠ . والحضارة الميكينية هي أزهى فترة حضارية في العصر الهلادي (١٥٥٠- ١١٥٠) .

مستقى من الآثار ، وأغلبها مستقى من الالياذة والإوديسيا ، اللتـين نظمهما هوميروس في القرن التاسع أو الثامن ، أي بعد انقضاء ثلاثة قرون أو أربعة على زوال الحضارة الميكينية (١١٥٠) . وعصر الحضارة الميكينية هو «عصر البطولة» عند اليونان ، وفيه نبت ذلك المثل الأعلى البطولي الذي توارثه اليونان من بعد ، وهو مثل يحث على السعي وراء الشرف أو المجد عن طريق العمل الشاق أو بالأحرى عن طريق الحرب والقتال . فالرجل العظيم ، حسب تصور الإغريق ، هو من يستغل كل ما لديه من مواهب بدنية وعقلية إلى أقصى حد ويظفر بثناء زملائه لأنه يبذل قصارى جهده ولا يحجم عن مجابهة أي خطب لإبراز كل مواهبه والتفوق على غيره من الناس . ونجد الفلاسفة الإغريق أنفسهم ، وهم من يؤثرون حياة الفكر والمعرفة لذاتها ، ولا يتوقع أن يرضوا عن مثل بطولي يتركز في الحرب والقتال ، نجدهم يوفونه حقه من الاعتبار ، وإن لم يعتبروه أسمى شيء في الحياة . ويقسم فيثاغورس الرجال ثلاث طوائف : الباحثين عن المعرفة ، والباحثين عن الشهرة ، والباحثين عن المال . ويقارن الحياة بالألعاب الأولمبية فيشبه الطائفة الأولى بالنظارة المتفرجين ، والثانية بالرياضيين المتبارين في الملعب ، والثالثة بالباعة الجائلين . ومع أن الفيلسوف لا يثني في هذه المقارنة على الساعين إلى الشهرة (أو المجد) ثناءً كبيراً ، إلا أنه يعتقد أن المجد أحسن صيتاً من الغنى . كان السعي وراء المجد جزءاً لا يتجزأ من حياة الإغريق ، وكان في نظر اليوناني العادي أقيم من أي نظرية فلسفية في السلوك الخلقي . ولا مراء في أن هذا المثل البطولي هو انعكاس لحالة مجتمع كانت الحرب هي شاغله الأول ، لأن الإقدام والشجاعة كل منهما ذو أهمية قصوى في الحرب . والمعيار الأساسي للشرف هو كرامة الانسان . وما ينال من الكرامة يعتبر غير مشرف . وما يرفع منها يعتبر مشرفاً . ومن ثم نفهم لماذا ذهبت سُدًى كل توسلات الاغريق إلى أخيل (Achilleus) [1]

---

(١) الـ ch في اللغات الأوروبية الحديثة تمثل حرف الخاء اليوناني . وتنطق في هذه اللغات كافاً أو شيناً لعدم وجود الخاء فيها .

عندما غضب لإهانة اعتبرها ماسة بشرفه واعتكف في خيمته رافضاً الاشتراك في القتال إلى جانب إخوانه عند أسوار طروادة . ذلك أن حاجة الاغريق إليه كانت حجة واهية بالقياس إلى إحساسه بالإهانة، ولهذا لم يزده سوء حالهم من بعده إلا إصراراً على موقفه واقتناعاً بأنه على حق .

وبديهي أن مفهوم المثل البطولي قد طرأ عليه تغيير على مر الزمن . وقد طبّقه الاغريق بعد قيام دولة المدينة في حالة السلم أيضاً . ولم تعد الحرب ، على قيمتها الكبيرة من وجهة النظر البطولية ، هي الميدان الوحيد لاحراز الشرف. غير أن أي مجتمع يعتز بفكرة البطولة ويتخذها مثلاً لا يكون دائماً رفيقاً أو موفقاً في معاملته للمرأة. وقد يجد مجتمع كالمجتمع الأيسلاندي المرأة التي تسلك في مواقف كثيرة مسلك الرجال ، فترحب بالخطر ولا تحفل من سفك الدماء . بيد أن إغريق العصر الميكيني (١٥٥٠ — ١١٥٠) – كما يصورهم هوميروس – لم يكونوا على هذه الشاكلة ، لقد تمتعت نساؤهم بمكانة اجتماعية سامية ، وعشن عيشة حرة منطلقة ، استمتعن فيها بالطبيعة والخلاء . وإن كان لنا أن نستشهد بالأساطير اليونانية القديمة، فنحن نذكر القارىء بأسطورة أرتميس(Artemis) ربة الصيد، وأتلانتا(Atalanta)الفتاة الصّيادة الماهرة [١] ، كما تظهر صورهما

---

(١) أتلانتا في الأساطير اليونانية هي ابنة أحد ملوك أركاديا (أو بويوتيا ؟) . تخلص منها أبوها بعد مولدها لأنه كان يتمنى غلاماً بإلقائها في العراء فأرضعتها دبة، وهي حيوان مقدس لأرتميس، ربة الصيد. ولما بلغت أشدها وأصبحت فتاة قوية، وصائدة ماهرة ، وعداءة لا تبارى ، اشتركت في صيد الخنزير البرى الكاليدوني . ذلك ان اوينيوس (Oineus) ،ملك كاليدون (Calydon) ، وهي منطقة لا تبعد كثيراً عن بويوتيا ، قد غفل ذات مرة عن ذكر أرتميس أثناء تقديم القرابين لكل الآلهة ، فعاقبته الربة بأن أرسلت ذلك الخنزير البري المفترس ليعيث في أرضه فساداً ويفتك بقومه الآمنين وعهد الملك إلى ابنه ميلياجروس (Meleagros) بمطاردة هذا الوحش الضاري والقضاء عليه ، فدعا ميلياجروس أمهر الصيادين من كل بلاد الإغريق . وكان من بينهم أتلانتا التي كان سهمها هو أول سهم يصيب الخنزير في مقتل . وقد افتتن بها =

على الأواني الخزفية . وفي رأي بعض الباحثين أن اللعبة الرياضية الخطرة الشبيهة بمصارعة الثيران ، وهي لعبة كانت تمارسها المرأة الكريتية ، قد نقلها المينويون عن أهل الحضارة الميكينية . ويتبين من الرسوم الحائطية (frescoes) في قصر تيرينس Tiryns (في أرجوليس) أن المرأة الميكينية كانت عصرية الأزياء ، وهي شبيهة بأزياء المرأة في كريت التي أثارت بأناقتها الفائقة دهشة المكتشفين الأثريين . ولا تمثل هذه الصور الحائطية إلا سيدات الطبقـــة الأرستقراطية . لكن من المحتمل أن نساء الطبقات الدنيا كن يلبسن ثيابـاً أكثر بساطة وحشمة وأقل بهرجاً وأناقة . والإلياذة — كما يعرف القارىء — ملحمة قتـال وحرب سجال ، وتزخر بصورة الشجاعة والبطولة وتمجد الرجل. ومع هذا فقد أفسح الشاعر فيها مواضع لابراز دور المرأة. وأما الأوديسيا فهي رواية طويلة حافلة بالمغامرات وقصص البحار ، ودور النساء فيها أبرز منه في الالياذة حتى لقد قيل إنها كتبت لتمجيد المرأة[1]. وحسبك أن تعلم أن الحرب الطروادية نفسها ، وهي موضوع الإلياذة ، لم تنشب — وفقاً لهوميروس — إلا

— ميلياجروس وكافأها بأسلاب هذا الصيد لكن أخواله اعترضوا على ذلك ، وثار بينهم وبينه نزاع انتهى بقتال صرعهم فيه . وقيل إن أمه ألثايا (Althaia) انتقمت منه بوسائل سحرية حتى مات هو الآخر .

وأما أتلانتا فقد تعرف عليها أبوها وأراد أن يزوجها . لكنها اشترطت أن لا تتزوج إلا بمن يستطيع أن يفوز عليها في السباق ، وأن يكون القتل مصير الخاسرين . ولذلك أعرض الخطاب عنها وظلت عذراء . وأخيراً فاز عليها ميلانيون (Melanion) الذي قيل إنه استمالها إليـــه بمشاركتها في هوايتها المفضلة وعقد أواصر الصداقة معها . لكن الأسطورة الاكثر رواجاً تقول إن الذي فاز عليها رجل آخر يدعى هبومنيس (Hippomenes) الذي أعطته أفروديتي (ربة الحب والجمال) ثلاث تفاحات ذهبية من تفاح حديقة هسبريديس (Hesperides) ، وهي — وفقاً لتصور الإغريق — جنة في الغرب عند سفوح جبال أطلس بلوغها عسير والعثور عليهـــا أعسر . وفي أثناء السباق أخذ هبومنيس يلقي بالتفاحات الواحدة تلو الأخرى أمام اتلانتا ممـــا شغلها وجعلها تتوقف لالتقاط التفاحات . وبذلك خسرت السباق واضطرت إلى الزواج منه . وقد أنجبت منه غلاما اشترك في الحملة الشهيرة باسم « سبعة ضد طيبة » قبل الحرب الطروادية .

(١) حيث تضرب بينلوبى المثل الأعلى في الوفاء بانتظار زوجها أوديسيوس عشرين عاماً ورفضها كل عروض الزواج أثناء غيابه الطويل .

بسبب هليني الجميلة . ولا ينبغي أن ننسى أن هليني (Helené) كانت عريقة النسب [١] ، وكان الزواج منها سنداً قوياً ، إن لم يكن سنداً شرعياً ، لمنلاوس (Menelaus) ملك اسبرطة . ومن ثم نفهم لماذا ثارت ثائرته وبقية الامراء الاغريق لفرارها مع الأمير باريس (Paris) إبن ملك طروادة، الذي أغواها. وكان النسب إلى الام أمراً مألوفاً في بلاد اليونان خلال عصرها القديم بل إن الانتساب إليها كان يعد شرفاً كبيراً . وكانت ولاية العرش تتحقق بالزواج من الملكة ، إذ صار أوديب (Oedipus) ملكاً على طيبة بزواجه من يوكاستي (Iocasté) ، وآيجستوس (Aegisthus) ملكاً على ميكيناي بزواجه من كليتيمنيسترا (Clytaemnèstra) . وفي إيثاكا كان تيلماخوس (Télemachus) بن أوديسيوس ، يقوم بدور الوصي على أمه بينلوبي (Pénelopé) فيما يبدو ، غير أن العرش كان سيؤول حتماً إلى من تختاره الأم زوجاً من بين الخطاب. وتعامل زوجات الزعماء باحترام، ويتمتعن بحرية الاختلاط بالرجال دون قيود ، ولكنهن لا يشتركن في الحرب أو السياسة أو الحكم أو الإدارة . وتجالس بينلوبي رجالَ البلاط في غياب زوجها أوديسيوس ، وتحظى بالحفاوة والتكريم حتى من هؤلاء الأمراء الثقلاء المتطفلين الذين طارحوها الغرام وعرضوا عليها الزواج ، ولم يتورعوا عن من العبث بخادمات القصر من الإماء. وتدبر كل من هكابي (Hecabè)[٢]، زوجة برياموس ، ملك طروادة ،وأريتي (Areté) زوجة الكينوس (Alcinous) ، ملك فياكيا [٣] شئون بيتها كما تدبره الملكات ، وكل منها صديقة لزوجها وناصحة . ولعل الأخيرة أقوى مركزاً من الأولى لأن أوديسيوس يُنصح بأن يحوز رضاها قبل أي شيء آخر ،

(١) ينطق اسم هليني مثل ليلى وضحى في العربية مع الإمالة . وكذلك تنطق الأسماء المؤنثة اليونانية الأخرى المنتهية بالياء .

(٢) ويكتب الاسم هكوبا Hecuba في اللاتينية .

(٣) جزيرة Phaeacia هي كركيرا (Corcyra) وتسمى الآن كورفو .

وهي تشترك في الحديث في البهو الكبير بالقصر مع زوجها الكينوس على قدم المساواة . وتخرج ابنتها ناوسيكا (Nausicaa) إلى أطراف المدينة في صحبة وصيفاتها، وتلتقي عند شاطىء البحر بأوديسيوس بعد أن غرقت سفينته وفقد كل شيء. ويدور بينهما حديث دو آية في الصراحة والدماثة والغزل الرقيق حتى لقد وصف هذا المشهد بأنه أول حب من أول نظرة .

وكانت هليني أيضاً تروح وتغدو في طرقات طروادة في رفقة وصيفتيها ، وتحضر مجلس برياموس ومستشاريه فوق أسوار طروادة . وحتى عندما عادت إلى زوجها منلاوس في اسبرطة غفرت لها زلتها وعاشت معززة دون انتقاص من سمعتها أو مساس بكرامتها . وثمة صورة من أروع صور الوفاء بين زوجين متحابين وهو لقاء أندروماخي (Andromaché) مع هكتور (Hector) ، الذي يتسم بالبساطة ويخلو من الانفعال ولكنه يمس شغاف القلب ويكشف عن رقة بالغة في العواطف، ولعلها أقدم قصة حب مثالي بين زوجين في الأدب الأوربي كله [1] ؛ وهي حديث وداع بينهما قبل أن يمضي هكتور إلى منازلة أخيل ، بطل الإغريق. وتحاول أندروماخي أن تثني زوجها عن عزمه وتتوسل إليه أن يقاتل من برج المدينة ولا يخرج إلى مبارزة خصم قوي عنيد كأخيل قائلة له « لخير لي أن أموت من أن أفقدك ، فلن يبقى لي أي عزاء إذا لقيت حتفك ، ولن يبقى لي شيء سوى الحزن فليس لي الآن أب أو أم . وكان لي سبعة أخوة انتقلوا في يوم واحد إلى هاديس (عالم الموتى) . لقد صرعهم جميعاً أخيليوس الكبير ، سريع القدمين . أنت يا هكتور أبي وأمي وأخي وزوجي الشهم . أرحمني الآن وابق هنا في القلعة ولا تيتم ابنك وترمل زوجتك » . لكن هكتور لا يستطيع أن يسلك مسلك الجبناء أو يرفض النزال ، إذ اعتاد أن يأخذ مكانه دائماً في الطليعة ويحرز المجد لأبيه ولنفسه ؛ مع أنه يشعر في

---

(١) الإلياذة ، ك ، ٦ ، بيت ٣٦٩ وما بعده .

قرارة نفسه بأن يوم منيته قريب ويوم دمار طروادة غير بعيد. ولا يزعجه شيء سوى مصير زوجته من بعده ، فيقول « أنا لست قلقاً على ما قد ينزل بالطرواديين أو بهكابي نفسها أو الملك برياموس أو بإخوتي البواسل الذين سيطرحهم العدو في الرغام بقدر ما أنا قلق عليك من أن يسوقك جندي أخيُّ وأنت دامعة العينين إلى ذل العبودية . وأتصورك وأنت في أرجوس تغزلـين على المنول لامرأة أخرى ، وتحضرين الماء من بئر غريبة وأنت مسلوبة الإرادة صاغرة مقهورة . ويقول من يراك باكية : ها هي زوجـة هكتور الذي بز في الوغى كل الطرواديين ، مروضي الخيول ، حين كانت رحى القتال تدور حول طروادة . ولسوف ينتابك الحزن من جديد على فقدان رجل مثلي قد يخلصك من العبودية ليتني أموت ويهال على جسدي التراب قبل أن أسمع صرخاتك وهم يسوقونك إلى الأسر ... »

ومع أن مصير المرأة الأسيرة كان سيئاً في أغلب الأحيان إلا أننا نجد كلا من بريسيئيس (Briseis) [1] وخريسيئس (Chryseis) [2] تعامل معاملة كريمة في المعسكر اليوناني ؛ وتنتشل تكميسا (Tecmessa) على يد سيدها أياس (Aias) من وهده العبودية وتصير محظية له . ولم يكن في تغزل الرجل بالمرأة ما يشينه أو يشين زوجته فيعشق أوديسيوس كاليبسو (Calypso)

---

(١) وهي ابنة الكاهن بريسيوس (Briseus) التي سباها أخيل ثم انتزعها منه أجاممنون (Agamemnon) ، القائد الأعلى للحملة الإغريقية على طراودة ، مثيراً بذلك غضب البطل أخيل الذي امتنع عن القتال ، وبهذه الحادثة تبدأ الإلياذة .

(٢) وهي ابنـة خريسيس (Chrysês) ، كاهن الإله أيوللون في معبده على الساحل الطروادي . وكان أخيل قد أسرها ولكن عند توزيع الغنيمة كانت من نصيب أجاممنون . وعندما توسل والد خريسيئيس أن يفتدي ابنته رفض أجاممنون طلبه، وطرده شر طرده. وعندئذ أصاب أيوللون معسكر الإغريق بوباء ، فاضطر أجاممنون إلى أن يرد السبية إلى أبيها الكاهن كي يسترضي الإله الغاضب .

وكيركي (Circe) ويغازل ناوسيكا ولا تلومه بينلوبي على عدم وفائـه . ولا نسمع في المجتمع الميكيني عن الطلاق أو تعدد الزوجات إلا في قصر برياموس الطروادي حيث كان يوجد ما يشبه « الحريم » . ولا يرد في ملحمتي هوميروس ذكر للزواج من المحارم سوى مرة أو مرتين [1] .

المرأة في العصر الهلليني :

وبدهي أن مركز المرأة قد اختلف في بلاد اليونان باختلاف الزمان والمكان ولا بد من انه قد طرأ عليه تغيير في الفترة التالية للعصر الميكيني . وليس لدينا معلومات عن المجتمع الهلليني في العصر المعروف باسم العصر المظلم أو العصر اليوناني الوسيط (١١٥٠ — ٧٥٠) ، لكننا نفهم من بعض شعراء القرن السابع من أمثال هيسيود وأرخيلوخوس (Archilochus) وسيمونيديس (Sêmonides) بأن المرأة لم تتبوأ مركزاً رفيعاً في بعض المجتمعات اليونانية ، فيقرن هيسيود الزوجة بالبيت والمحراث والثور عندما يعدد الأشياء التي ينصح فلاح بويوتيا باقتنائها . ويتحامل على المرأة فيصفها بأنها « هدية من زيوس إلى البشر في ساعة من ساعات غضبه » . وهو صاحب أسطورة بَنْدورا (Pandora) الشهيرة التي تجعل من المرأة أصلاً لكل الشرور على الأرض [2] . والتناقض بين هوميروس

(١) الإلياذة ، ك ٥ ، بيت ٤١٢ ، الأوديسيا ، ك ٧ ، بيت ٦٦ .

(٢) راجع « الأعمال والأيام » ، أبيات ٥٤ — ١٠٥ ، « أنساب الآلهة » ، أبيات ٥٢١ — ٦١٦ . وخلاصة الأسطورة التي لها أكثر من رواية أن زيوس (Zeus) كبير الآلهة غضب من بروميثيوس Promêtheus (ومعناها المتبصر أو المتروي) — وهو احد الجبابرة Titaues — كان صانعاً ماهراً شديد المكر واسع الحيلة . وقد خدع زيوس نفسه عند توزيع الذبائح المشوية التي كانت تقدم كقربان للآلهة فكان يموه عليه ويعطيه الشحم منها دون اللحم ، فأخفى زيوس النار عن الانسان . ولكن بروميثيوس سرق النار وأعادها إلى الأرض لينتفع بها البشر . وثار غضب كبير الآلهة فقيده بسلاسل عند جبل القوقاز واطلق عليه نسراً ينهش من كبده الذي كان يتجدد كل يوم لأنه كان خالداً كسائر جسده ، فكان ينمو منه بالنهار ما ينهشه النسر بالليل . وأخيراً أنقذه هيراكليس (Heracles) من هذا =

وهيسيود في تصوير المرأة يرجع الى اختلاف المجتمعين فأحدهما يصور مجتمعاً أرستقراطياً بطولياً لا يخلو من المثالية ، والآخر يصور مجتمعاً ريفياً واقعياً ، ومع هذا نجده يقول في مكان آخر « ليس هناك ما هو خير للرجل من أن يفوز بزوجة طيبة ، وليس هناك ما هو شر له من الزوجة الخبيثة » وهو تعميم ينهض دليلا على أهمية المرأة كمدبرة للمنزل . وأما أرخيلوخوس ، شاعر باروس ، فهو هجاء يحمل على المرأة لاسباب شخصية ولا يمكن أن يؤخذ تشهيره بها مأخذ الجد . وليس من الإنصاف كذلك أن نحكم في المرأة عدواً صريحاً لها مثل سيمونيديس ، شاعر أمورجوس ، الذي عدد نقائصها وشبه أصناف النساء بأصناف الحيوانات المختلفة .

وإذا كان الامر كذلك فما الذي أدى إلى رواج الرأي القائل بأن المرأة الأثينية كانت تعيش في عزلة عن المجتمع ، وأنها كانت تعامل معاملة مهينة؟ لقد جاء في بعض النصوص الأدبية ما يُفهم منه أن المرأة كانت بطبيعتها دون الرجل كفاءة ، وأدنى منه منزلة ، وأنها كانت وسيلة لا غاية ، وأن الزواج لم يقم على

= العذاب . ويعتبر بروميثيوس أول معلم للناس، وأول نصير للبشرية ، وصديق الإنسان وحليفه ضد طغيان زيوس . وإذ كان استاذ الصناع جميعاً فقد صنع الإنسان من الصلصال شأنه في ذلك شأن الإله خنوم عند قدماء المصريين ، وهو خالق الأشياء جميعاً .

وفي رواية أخرى أن زيوس غضب على البشر كافة وأراد عقابهم بإرسال امرأة إليهم تنشر بينهم الفتنة والفوضى والشرور. ولذلك أمر هيفايستوس ، إله الصناعة والحدادة، بصنع امرأة وهبتها أفروديتي الجمال وزودها هرميس بالجرأة والحيلة . وكانت هذه المرأه هي بندورا ، أول امرأة في الوجود، ومعنى اسمها كل العطايا أو الهبات جميعاً ، وقد تزوجها إبيميثيوس Epimêtheus (المتهور أو المجول) ،شقيق بروميثيوس ، برغم تحذير الأخير له من قبول أي هدية من الآلهة . وكانت بندورا قد أحضرت معها إلى بيت الزوجية جرة أو صندوقاً مليئاً بكل الآفات الإنسانية . وأزاح زوجها غطاء الصندوق فتسربت منه كل الشرور ولم يبق سوى « الأمل » . وفي رواية ثالثة متأخرة أن الصندوق كان يحتوي على كل النعم التي كان من الجائز أن تكون من نصيب البشر لولا أن بندورا أزاحت الغطاء فانفلتت منه النعم . ومن الواضح أن قصة بندورا تشابه قصة آدم وحواء الواردة في الكتب السماوية .

عاطفة الحب بل على المصلحة المادية. وكان الهدف منه إنجاب الاطفال للمحافظة على الجنس وكيان الدولة ، واستمرار الأسرة ، وحماية الأباء في سن الشيخوخة ، وضمان تقسيم العمل تقسيماملائماً بين الرجل والمرأة. ويفهم أيضاً من هذه النصوص أن مكان المرأة الطبيعي هو البيت حيث كان عليها أن تربي الاطفـــال وتطهو الطعام وتغزل الصوف وتنسج الملابس وتشرف على شئون البيت الأخرى. ويبدو أن الأثيني كان لا يطمئن إلى خروجها بمفردها إلى السوق الصاخبة حيث لا يتحرج الرجال من الكلام في أي موضوع. يقول اكسنوفون (Xenophon) إن من الخير للمرأة أن تكون في بيتها من أن تكون خارجه ، وليس مما يشرف الرجل أن يبقى فيه مدة أطول مما يمضيها خارجه لتصريف أعماله. وعندما رأى هيرودوت الرجال في مصر ينسجون الكتان في البيوت ، بينما تقوم النساء بشراء الحاجات بل بالبيع والشراء في السوق ، شعر بـ أن الوضع الاجتماعي مقلوب. ويقول كاتب آخر إن الصمت هو أنبل دور يمكن أن تقوم به المرأة. ويجري يوريبيديس على لسان إحدى شخصياته في مسرحية « الضارعات » عبارة مؤداها أن المرأة العاقلة هي التي تسلس القياد لزوجها في كل الأمور. وعندما ندرس الشاعر الكوميدي أن المرأة ينبغي ألا تتخطى باب دارها. وقد ورد في الخطاب الذي ألقاه بريكليس في تأبين قتلى أثينا في مستهل الحرب البلوبونيزية ، موجهاً الكلام للأرامل ، ما معناه أن المرأة الفاضلة هي من لا يتحدث الناس عنها بالمدح أو الذم [1]. وتفيد بعض الفقرات الواردة في الأدب اليوناني بأن المرأة الأثينية كانت لا تحضر مجالس الرجال ولا تختلط بضيوف زوجهـا في المنزل. وكان في البيت الأثيني جنـــاح مخصص للنساء (gynaikônitis) ، وآخر مخصص

---

(1) Acschylus, Septem contra Thebas 232, Sophocles, Ajax 293, Euripides Hcreclidae 276 - 7 : Aisiotle. Pol. 1260 a30; Thucydides-ll, 45 , Plato, Rep - 431 C , Xenoph. Oec - Vll, 30, Democritus fr. 274 D—K, Menander, fr. 546 (Kock).

للرجال(andrônitis) وكان لا يجوز لاحد سوى رب المنزل وأقرب الأقارب أن يدخل جناح الحريم . ويتخذ بعض البـــاحثين من عدم إرسال البنات الأثينيات إلى المدارس قرينة على أن المرأة كانت محرومة من التعليم فعاشت جاهلة حمقاء .

ولم تتمتع المرأة الأثينية بحقوق الرجل السياسية . وكان مركزها القانوني أدنى من مركز الرجل ، بل كانت عديمة الأهلية القانونية ، فلا تستطيع إدارة الأعمال أو أداء الشهادة في المحاكم [1] ، أو أن تكون طرفاً في عقد قانوني . وكانت تظل تحت وصاية زوجها (kyrios) حتى مماتها أو تحت وصاية أقرب أقربائها من الذكور . وكان يجوز للأب في حالة عدم وجود ورثة من الذكور أن يوصي بأملاكه وابنته لأي رجل يختاره . وكان على هذا الرجل أن يتزوج الإبنة (حتى لو اقتضى منـه ذلك أن يطلق زوجته) وإلا تنازل عن الإرث . فإذا مات الأب دون وصية ، كان من حق أقرب الأقرباء أن يطالب بالزواج من الإبنة الوريثة (epiklêros) . فإذا كانت الإبنة قد تزوجت ، فعليها أن تترك هـذا الزوج ، وتتزوج أقرب أقربائها .

لا عجب إذن ان ساء الرأي في مركز المرأة الأثينية . غير أن الإنصاف يقتضي التنبيه ثانية إلى أن ما لدينا من معلومات عن وضعها في المجتمع طفيف أو مبتور أو خاطىء التفسير ، وأن كثيراً من الكتاب ينظرون إليها بعين العصر الحديث . ولا ينبغي أن يؤخذ من صمت المصادر الأدبية أو قـلة إشارتها إلى الحياة العائلية دليلاً على إهمال المرأة أو ضعف الرابطة الأسرية أو افتقار الحياة العائلية إلى الدفء والعاطفة . ذلك أن المجتمع اليوناني كان مجتمعاً رجولياً في

---

(١) وإن كان يجوز لها أداء القسم في حالة التحدي الرسمي (proklêsis) أي عندما يتحدى أحد في المحكمة خصمه بأن يقدم عبيده لاستخلاص الشهادة من أفواههم بالتعذيب أو يقبل هو تعذيب عبيده لنفس الغرض.

جوهره ، وأن الأدب اليوناني كان أكثر عناية بالدولة والسياسة منـــه بالفرد والأسرة . ولا جدال في أن البيت كان هو المكان الطبيعي للمرأة الأثينية ، وما يزال مكانها في القرن العشرين . كان على الزوجة الأثينية أن تدبر شئون المنزل من خبز وطهو وحياكة ومراقبة غرف تموينه وأمتعته وإشراف على العبيد إن كان هناك عبيد ، وتوجيه الإماء وهن ينسجن بالمنول . كانت مسئولياتها ضخمة كما يتضح من كتاب التدبير المنزلي (Oeconomicus) للمؤرخ اكسنوفون الذي يتناول فيه واجبات زوجة إيسخوماخوس (Ischomachus) ، ومن فقرات كثيرة في مسرحيتي ليسستراتا (Lysistrata) والنساء في الجمعية الشعبية (Ecclesiazousae) للشاعر الكوميدي أرسطوفانيس حيث تستشهد النساء بكفايتهن في التدبير المنزلي على قـدرتهن على إدارة شئون المدينة نفسها . ولا يماري أحـــد في أن وظيفة المرأة الرئيسية عند الأثينيين كانت إنجاب الأولاد لاستمرار حياة الأسرة وحياة الدولة ، وتربية البنين حتى يأتي وقت ذهابهم إلى المدرسة ، والبنات حتى زواجهن . لكن من الشطط أن يقـــال إنها كانت قابعة في خدرها لا تخرج إلى السوق ، أو معزولة عن مجتمع الرجال ، أو أن الصمت كان أنبل أدوارها في الحياة ، فمثل هـذا الكلام هو من قبيل الحكم والأمثال ، ومن الخطأ أن نفسره تفسيراً حرفياً ، لأنه يتضمن معنى تمني المستحيل ؛ ومن العسير أن نتصور امرأة يونانية وقد لزمت الصمت مدة طويلة . وأما الفقرة الواردة عنـد اكسنوفون بوضع متراس على أبواب الجناح المخصص للنساء في المنزل فقـد أسيء تفسيرها لأنهـا مقتطفة من نص تنبغي قراءته بأكمله ليتبين لنا أن الكاتب لم يقصد به إيصاد الأبواب على الزوجة والبنات وتقييد حريتهن وحجبهن عن الأنظار ، وإنما قصد به تجنيب الخادمات الزلـل وإنجابهن أطفالاً خلسة دون علم سادتهن وتأمين أمتعة البيت من أيدي العابثين [1] .

---

(1) Oeconomicus, IX, 5.

لقد تمتعت المرأة الأثينية بقسط من الحرية غير ضئيل . كانت هناك مناسبات كثيرة تخرج فيها النساء من البيوت دون أن تتعرض سمعتهن للقيل والقال. وكانت الزوجات ينهضن ببعض الواجبات أو يسمين للترويح عن أنفسهن خارج المنزل : كن يذهبن إلى السوق (agora) في صحبة خادمة إذا وجدت ، لأن السوق الأثينية كانت مكاناً مكتظاً بالناس شديد الصخب ، تحتدم فيه المناقشات وتثور المشادات. وفيه كان الرجال يتكلمون بحرية تامة وقد يتبادلون قارص الكلم أو يتنابذون بفاحش اللفظ أو يأتون بأفعال تخدش الحياء . وكانت النساء يتزاورن مع جيرانهن ويقضين مع صويحباتهن بضع ساعات من النهار . ولدينا الآن ذخيرة من الأواني الفخارية المزخرفة بصور تدحض رأي القائلين بتقييد حرية المرأة الأثينية ونشاطها. ففي هذه الصور تظهر الفتيات وهن يمارسن مختلف انواع الألعاب الرياضية كالسباق في دورة الألعاب الأولمبية[1]، والاستحمام في أحواض السباحة أو يظهرن وهن حاملات جرار الماء من النافورات العامة أو سائرات في موكب عيد الربة أثينة الكبير (Panathenaea) إلى جانب الفتيان والرجال . وليس في عدم اشتراك المرأة في حفلات الرجال ما ينتقص من قدرها. لقد كان للسيدات الأثينيات أعيادهن وحفلاتهن الخاصة ، كعيد الثسموفوريا (Thesmophoria) وهو عيد ديميتير (Demeter) ربة القمح . وكن يذهبن دون رقابة إلى حفلات الزواج ويقمن بواجب المواساة في المآتم ويزرن المقابر . ولعلهن وجدن مجالاً للنشاط في بعض الجمعيات الدينية إن لم يكن قد مارسن أحياناً مهنة الكهانة . وكن يترددن على المسرح لمشاهدة الروايات التراجيدية ، وربما الكوميدية أيضاً ، ولو أننا نستبعد ذلك لأن الملهاة اليونانية لا تخلو من نابي اللفظ وبذيء العبارة والإسفاف ، بل هي لا تخلو من الأفعال الفاضحة المنكرة في بعض الأحيان [2] . وفي طبقات المجتمع الفقيرة كانت النساء يشتغلن أحياناً

---

(١) ما يزال اشتراك المرأة اليونانية في مثل هذه الدورات مثار خلاف .

(٢) ومع هذا فإن بعض الباحثين يعتقدون أن المرأة الأثينية لم تحرم من مشاهدة الملهاة ذلك أن المأساة نفسها التي لا يختلف الرأي كثيراً في أن المرأة كانت تشاهدها ، تنتهي برواية=

بالتجارة أو الصناعة، وإن كان أغلبهن من المعتقات ، فلسمع عن مشتغلات بنسج الصوف أو عمل الأحذية ورتقها، وعن أخريات يملكن الحوانيت أو يبعن البخور والسمسم والحبال . ونقرأ عن بائعة باقـــات الزهور في مسرحية « النساء في عيد الثسموفوريا » وصاحبة النزل الرهيبـــة في مسرحية « الضفادع » للشاعر الكوميدي أرسطوفانيس . ولم يكن في وسع زوجات الأثينيين الفقراء أن يعشن بمعزل عن مجتمع الرجـــال ولا كان في وسع الفلاحات في الريف تجنب الاختلاط بالرجال .

وإذا كانت المرأة الاثينية قد عاشت حياتها بين جدران أربعة ، كما يزعم البعض، فكيف لم نسمع عن تذمرها من هذه الحياة القاتمة؟ في الحق إن يوريبيديس يطيل في مسرحية ميديا (Mèdea) الكلام عن مشاق حياة المرأة الحبيسة في المنزل . غير أنه يضع انتقاداته على لسان ميديا ، وهي امرأة أجنبية الأصل، لا يمكن أن تكون نموذجاً للزوجة أو الأم الاثينية . ومن المرجح أن آراءها في حياة المنزل لم تحظ بالقبول عند معظم الاثينيات اللاتي كنّ يضقن بما يجافي الاعتدال (sophrosynè)، وهو إحدى القيم الخلقية الأثيرة لدى اليونان . بل نحن نستبعد أن الوقت كان يمر ثقيلاً على ربة البيت الاثينية أو أنها دأبت على الشكوى من ملل الحياة المنزلية . ذلك أن تدبير شئون البيت كان يستنفد معظم وقتها . فإذا فرغت من أعبائه لم يبق لديها سوى فترة قصيرة من الفراغ لتزجيها في الحديث أو الثرثرة مع جيرانها وقص الحكايات أو الرقص أو الترويح عن النفس بألعاب

= « ساتيرية » فيها شيء من المجون والبذاءة . ولم يصلنا من هذا النوع إلا ساتيرية كيكلوبس (Cyclops) للشاعر يوريبيدس وساتيرية إخنيوتاي (Ichneutae) لسوفوكليس .
وينبغي أن لا ننسى أن أعين النساء في أثينا كانت تقع على تماثيل عارية فيها كثير من الإباحية . ولنذكر القارئ بأن كل بيت تقريباً كان يقوم أمامه تمثال للإله هرميس ، رسول الآلهة . يبرز منه عضو الذكورة (phallus) . وكان الأثينيون يمنون بهذه التماثيل ويغسلونها ويزينونها بالأزهار ويرتلون أمامها أدعية وصلوات قصيرة .

مسلية كالكـــرة أو الارجوحة أو « الكعب » أو « الداما » أو في صناعة الدمي ، أو تربية الحيوانات الاليفة وتدليلها . ولا ينهض عدم إرسال البنات في أثينا إلى المدارس دليلا على حرمـــانهن من التعليم وبقائهن أميات جاهلات ، إذ كان من الميسور دائما تعليمهن في المنزل القراءة والكتابة والغناء والرقص بل والرياضة البدنية ايضاً ، فضلا عن تثقيفهن في أصول التدبير المنزلي على يد الأمهات .

ومن الخطأ أن نبني فكرتنا عن المرأة الاثينية على نص فلسفي كحديث المأدبة (Symposium) لأفلاطون – وإن كان هو نفسه يساويها بالرجل في كتاب « الجمهورية » مساواة تامة – متجاهلين حقيقة هامة أخرى ، وهي أن كثيراً من المسرحيات التراجيدية تحمل أسماء نساء كأنتيجوني وإيلكترا وميديّا وألكيستس وهليني وإفيجنيّا ، فضلا عن ازدحام هذه المسرحيات بشخصيات نسوية أخرى . ومن يقرأ هذه المآسي اليونانية يرى النساء وهن يتخذن قرارات خطيرة ، ويحملن مسئوليات جسيمة ، وهو شيء لا نقول إنه مستمد بالضرورة من تجارب الحياة الأثينية وإنما نستبعد أن يكون مناقضاً لما هو جار فى هـذه الحياة كل المناقضة ، بل إن من يقرأ المسرحيات الكوميدية – وهي أكثر واقعية من التراجيدية – كملهاة « ليسستراتا » أو « النساء في الجمعيـــة الشعبية » أو « المحتفلات بعيد الثسموفوريا » يدرك على الفور أن المرأة الأثينية لم تكن كمّاً مهملا. وسواء اعتبرت يوريبيديس نصيراً للمرأة كبعض المحدثين أم عدواً لها تمشياً مع رأي الأقدمين فلا هو ولا زميلاه آيسخيلوس وسوفوكليس توحي رواياته بأن في الإمكان اغفال شأن المرأة أو الإستهانة بأمرها. ومن يستعرض الصور المنحوتة في إفريز البارثنون (Parthenon) يلمس مـدى بروز العنصر الأنثوي لا في الأساطير وحدها بل في الديانة كذلك . وجدير بالذكر أن الأثينيين اتخذوا من الربة أثينة (Athênê) راعية لمدينتهم ، وحامية لها ورمزاً .

وليس في حرمان المرأة الأثينية من الحقوق السياسية ما يحط من قدرها ، فإن حق الانتخاب لم يمنح للمرأة في بلاد كثيرة إلا منذ عهد قريب ، وما تزال نساء سويسرا — على سبيل المثال — محرومات من هذا الحق . على أن ذلك لا يعني أن المرأة كانت مسلوبة الإرادة ، فلم يكن هناك ما يمنعها من أن تبدي رأيها في صراحة وتتكلم بحرية دون كبت وأن تسيطر في مملكتها الصغيرة سيطرة تامة . وأما عن وضعها القانوني فإن المشرع لم يقصد بإخضاعها لوصاية الأب أو الزوج أو أقرب الأقارب إلا حمايتها . لعل القارىء قد راعه ذلك القانون الذي يرغم الإبنة الوريثة التي مات أبوها دون وصية على الزواج من أقرب أقاربها . ولا جدال في أن هذا القانون ينطوي على شيء من التعسف. لكنه يتفق واتجاه المشرع اليوناني في كل ما يتصل بمهر الزوجة أو دوطتها إلى لاحتفاظ بهذه الممتلكات في يد أسرتها بقدر المستطاع بغية الحيلولة دون انقراض الأسرة وتوقف ممارستها الشعائر الدينية (sacra) [1] .

---

(١) كان مهر (أو دوطة) الزوجة الأثينية (وهو ما تنقله معها إلى بيت الزوجية سواء في شكل جهاز phernê ، أو ثروة عقارية proix) لا يصبح ملكاً للزوج الذي كان يتولى فقط إدارة أملاك زوجته والانتفاع بها طيلة الحياة الزوجية . وإذا ماتت الزوجة قبله ، فإنه يظل يتولى إدارة هذه الاملاك والانتفاع بها إلى أن يتوفى (إذا كانت زوجته قد تركت منه أبناء) أو إلى أن يتزوج ثانية . ففي حالة وفاته أو زواجه مرة ثانية كانت أملاك الزوجة أو دوطتها تؤول إلى ابنائها . فإذا لم يكن لها ابناء ، ردت املاكها إلى الوصي عليها (kyrios) ، وبالتالي لم يكن للزوج ان يبيع أو يدهن شيئاً منها ، وكان عليه في بعض الأحوال أن يقدم حساباً عنها ، وفي حالة الترمل كانت الزوجة تتولى إدارة أملاكها إذا بقيت في أسرة زوجها على ان يأخذ الأبناء الذكور نصيبهم من هذه الأملاك عند بلوغهم سن الرشد ، وليس للبنات نصيب إذا كان هناك ولد . وإذا تزوجت الأرملة فإن دوطتها كانت تنفصل عن املاك زوجها الأول وتضم إلى املاك زوجها الثاني . وإذا طلقت المرأة كانت دوطتها تعود إلى الوصي عليها او يدفع الزوج فائدة عنها بنسبة ١٨ ٪ ، فضلاً عن إلزامه بدفع النفقة . وقد قصد المشرع الأثيني بذلك أن يحتفظ بأملاك الزوجة في يد أسرتها .

ولقد قيل إن عاطفة الرجل اليوناني نحو المرأة طرأ عليها تغيير خلال العصور أو بعبارة أخرى أن حب الرجل للمرأة بمفهوم الكلمة الحديث لم يعرف إلا منذ العصر الهلينستي . غير أننا نستبعد أن تظل علاقة الرجل بالمرأة قائمة حتى ذلك الوقت على مجرد إشباع الغريزة الجنسية أو الزواج المصلحي . وليس من المعقول أن نبحث عن عاطفة الحب الصادق في ديوان هيسيود المتحامل على المرأة أو قصائد شعراء هجائيين كأرخيلوخوس الباري وسيمونيديس الأمورجي، أو في روايات شعراء ساخرين كأرسطوفانيس أو مناندروس(Menandros) ، أمير « الملهاة الجديدة»[1]،الذي يصف المرأة بأنها شر لا بد منه . وينبغي أن نتجه إلى شاعر إنساني كبير مثل هوميروس الذي يعرض علينا نماذج من وفاء المرأة ، وتحاب الزوجين ، والغزل الرقيق ، والغرام المشبوب ، والفروسية في تصويره لشخصيات بينلوبي وأندروماخي وناوسيكا وهليني . ولا تخلو الأبيات المتبقية من قصيدة دناي (Danae) التي نظمها سيمونيديس (Simonides) - وهو شاعر من جزيرة كيوس Ceos (٥٥٦ — ٤٦٨) — من الوصف العاطفي المؤثر . ويروى أن استيسيخوروس (Stesichorus) ـ وهو شاعر غنائي من عاش في هيميرا بصقلية (حوالي ٦٣٢ — ٥٥٦) - كتب قصة غرامية ، ولكنها ضاعت. ولا يخلو تصوير آيسخيلوس[2] (Aeschylus) لشخصية «إيو» في مسرحية « بروميثيوس» من لمحات عاطفية. وهل كان في وسع سوفوكليس (Sophocles) أن يبتدع شخصيات كأنتيجوني وإليكترا أو ديانيرا أو تكميسا ، ما لم يكن قد عُني بدراسة المرأة لذاتها وتحليل نفسيتها وعواطفها ؟ ويبدي يوريبيديس (Euripides) اهتماماً شديداً بطبائع المرأة في كثير من رواياته ، ويروى أنه

---

(١) ويسمى في اللاتينية مناندر (Menander) وازدهر نشاطه الأدبي في أثينا(٣٢١ - ٢٧١) .وأرسطوفانيس الأثيني (٤٥٠ - ٣٨٥ ؟) هو أمير « الملهاة القديمة » .

(٢) آيسخيلوس (٥٢٥ - ٤٥٦)، وسوفوكليس(٤٩٦ - ٤٠٦) ، ويوريبيديس(٤٨٥ - ٤٠٦ ؟) هم أعظم الشعراء المسرحيين في أثينا في القرن الخامس ق.م.

صور الحب الرومانتيكي في مأساة « أندروميدا » التي لم تصل إلينـــا . وحتى أرسطوفانيس على مجونه وسخريته يهتم بمشكلـة المرأة ، ويبدي إشفاقه الشديد عليها من ويلات الحرب في مسرحية ليسستراتا .

ولعل أبلغ رد على القائلين بامتهان الرجل الأثيني للمرأة هي شواهد القبور المحفورة برسوم بارزة والأواني الجنائزية المزخرفـة بصور تكشف عن مدى ما كان يسود الحياة الزوجية من احترام وتعاطف ومشاركة وجدانية . وبدهي أن الزوجة ، أم الأطفال ومدبرة شئون المنزل ، هي التي كانت تحظى بأعمق تقدير وثقة ومحبة من الزوج الأثيني . وليس معنى هذا أن بعض الأثينيين لم يساورهم القلق من احتمال إدمان زوجته الخمر واتخاذها عشيقاً في بعض الأحيـان . وإذا كان مثل هذا القلق لم يساور – على ما يبدو – الأزواج في اسبرطة أو في أيونيا ، فإن ذلـــك يرجع إلى الاختلاف في قواعد السلوك الخلقي . لقد وقف العرف حاجزاً أمام عواطف الرجل الأثيني ، وحتم عليه كتمانها وعدم إظهارهـــا على مرأى من الناس . وإذا كان للرجل ميدانه وللمرأة ميدانهـــا ، فقد احتجبت هذه العواطف وراء ستار ، وبقيت كعنصر جوهري في الحياة المنزلية الخاصة ، لكنها ظلت مبعدة عن حياة الأثيني العامـــة ، وعن السياسة وشئون الدولة والحرب . ومن ثم عني الأدب اليوناني – على نحو ما رأينـا – بالسياسة والدولة أكثر من عنايتــه بالفرد والأسرة . ولا يقوم الغزل حتى في الشعر اليوناني إلا بدور أقل أهمية مما نتوقع ، وبالتالي لم تلق عاطفة الحب الرومانتيكي اهتمامـــاً خاصاً من الأدباء قبل القرن الرابع ، وإن كان يوريبيديس هو الذي حطم بواقعيته الصارخة حواجز العرف في هذا الميدان وغيره من الميادين ، مطلقاً العنان للمشاعر المكبوتة ، وممهداً الطريق للتعبير عن عاطفة الحب الرومانتيكي تعبيراً كاملاً عند شعراء العصر الهلينستي . وأياً كان الرأي في المجتمع اليوناني ، فـلا مناص من التسليم بأنه كان في جوهره مجتمعاً رجولياً . وكان ذلـــك ظاهرة حتمية للنظرية السائدة التي اعتبرت الكفاح غاية الحيـاة الرئيسية واتخذت من

البطولة مثلاً أعلى يقتضي من الرجل أن يبذل قصارى جهده في الانتفاع بمواهبه البدنية والعقلية .

المرأة ومجتمع الرجل اليوناني :

ومع هذا كله فلا بد من التسليم بأن ثمة عوامل معينة أثرت في مركز المرأة الأثينية تأثيراً مباشراً أو غير مباشر ، وألقت على وضعها ظلاً قاتماً ، ولعلها كانت تشعرها بالمهانة في بعض الأحيان . ذلك أن هذه النظرة البطوليـــة إلى الحياة تمخضت عن ظاهرة غريبة ، وهي أن قدراً كبيراً من العاطفة التي تنشأ في معظم البلاد بين المرأة والرجل ، نشأت بين الرجل والرجل في بلاد اليونان، إذ كانت الصداقة بين الرجال عاطفة قوية، ولعلها كانت أقوى عندهم من عاطفة الحب نحو المرأة . ويمدنا هوميروس بمثال مشهور عندما يجعل من صداقة أخيل (Achilleus) وباتروكلوس (Patroclus) محوراً لقصته ، ويروي كيف حزن أخيل وغضب لمصرع باتروكلوس ، فعاد بعد تمنع طويل إلى حمل السلاح بجانب إخوانه الإغريق ، وكيف لم يهدأ له بال حتى ثأر لصديقه ونكل بقاتله هكتور . وكان جوهر هذه العلاقة هو مشاركة الصديق لصديقه في السراء والضراء ومناصرته له بصدق وإخلاص ظالماً أو مظلوماً ، ومصادقة أصدقــائه ومعاداة أعدائه ومشاركته أفراحه وأتراحه ، ومعاملته بصفاء ونية خالصة ، وتلبيـة ندائه في كل حين . ويزخر الأدب اليوناني من القرن السادس حتى القرن الرابع بصور زاهية من هذه الصداقة الحميمة ، والتي ترك لنا أرسطو بحثاً شهيراً فيهـا بعنوان « الأخلاق عند نيقوماخوس » . ويرد في المآسي اليونانية نمـاذج من وفاء الخليلين كوفاء أياس وتيوكروس، وأورستيس وبيلاديس. ويقول اكسنوفون إن الصديق الوفي هو أثمن مقتنيــات الإنسان . وصداقة من هذا النوع كان من السهل ان تنشأ في مجتمع تؤلف بين رجاله المصالح المشتركة ، ويأنس فيه الواحد منهم إلى صحبة الآخر . ولهذه الصداقة جانبها العاطفي النبيل . وقد وجد فيها

الإغريق عذاءاً روحياً ، وسموا بالفكر ، وحافزاً على المجد . غير أنها تعني في الوقت نفسه افتقار حياة الإغريق إلى الحنان أو الرقة التي تلطف من خشونة الحياة حين تقاسم المرأة الرجل أعباءه ومشاقه سواء ببذل الجهد أم بإسداء النصيحة . وللصداقة بين الرجال ذخيرتها من العواطف : بيد أن هذه العواطف قلما تطفو على السطح ، وغالباً ما تحتجب وراء ستار من التحفظ والتزمت والاحتشام. وقد يثير إفراطهم في المشاركة الظنون بأن الصداقة بينهم كانت قائمة على تبادل المنفعة ، ولو أن أرسطو يؤكد أن الصداقة هي أن يحب الإنسان غيره لا أن يحب منه وأن يتمنى لصديقه الخير لا كوسيلة لإسعاد نفسه بل لإسعاد صديقه . وليس ثمة شك في أن الاغريق وجدوا في الصداقة مثلاً عالياً ساعد كثيراً على إشباع حاجتهم إلى الحب .

وكان لهذا الحب الذي نشأ بين الرجال في بلاد اليونان جانبه الحسّي أو الجنسي ، ولو أن هذا النوع من الحب لا نجد له أثراً عند هوميروس الذي ينفيه ضمناً عن أخيل وباتروكلوس [1] . غير أنه يقوم منذ القرن الثامن بدور ملحوظ في حياة اليونان . ويعزى أصله إلى الدُوريين. وقد انتشر وصار شيئاً مستساغاً في معظم أنحاء بلاد الاغريق . وكان ينشأ في العادة بين الرجال والشبان أو في صورة استملاح للصبية وحب للغلمان (paiderastia) . وتختلف الآراء في تفسير بواعثه فتعزوه إما إلى عزلة النساء أو قلتهن،أو ما يسود الحياة العسكرية من كبت في العواطف وحرمان ، أو الافتتان بالجسد العاري في الألعاب ، أو الاستجابة لنداء الغريزة حيثما يشتد الاختلاط وتتوافر عناصر التحاب . وتؤكد الصور المرسومة على بعض الأواني الخزفية هذا الغرام الشاذ بين الرجال . وقد نشأت بين هرموديوس (Harmodius) وأرسطوجيتون (Aristogeitôn) ، اللذين اكتسبا شهرة لاغتيالهما الطاغية هيبارخوس (Hipparchus) ، علاقة

---

(١) بلوتارخوس ، سيرة الكيبيادس ، ٤ .

حب صريحة في غير مواربة أو خفاء ، ولكن ذلك لم يحل دون تمجيد ذكراهما باعتبار أنهما عجلا بتخليص أثينا من «الطغيان»[1]. ولعل علاقة من هذا النوع نشأت بين سقراط (Socrates) والكيبيادس (Alcibiades) . وترد في قصائد شعراء كأناكريون وإبيكوس وثيوجينس أبيات تكشف عن إحتدام عاطفة الحب بين الرجال، وهي شبيهة بالتغزل في الغلمان. وكان في طيبة « كتيبة مقدسة » قوامها ثلاثمائة شاب انخرطوا في سلكها على أساس إن كل شابين بينهم متحابان، وكانا يدربان على إنماء عاطفة الحب المتبادل ، والقتال سوياً ، ولقاء الموت معاً في الميدان. ويبدو أن أفلاطون لم يجد في مطلع حياته غضاضة في هذا الانحراف ونظر إليه بشيء من السماحة واللين . ونجده يرتب في « حديث المأدبة » علاقات الحب ترتيباً تصاعدياً بادئاً بالجاذبية الجنسية ، ومنتقلاً بعدها إلى حالة الزهد ، وأخيراً إلى الجهاد الفكري لبلوغ حالة أشبه ما تكون بالتأمل الصوفي . غير أنه عدل عن رأيه تدريجياً عندما تقدمت به السن ، فدعا إلى الحد من هذا الانحراف في كتاب « الجمهورية » ، ثم استهجنه وحرّمه في كتاب « القوانين » . وأما أرسطو فلم يقطع فيه برأي صريح وإن كان قد وصفه بأنه حالة مرضية تنشأ بالعادة وشبّهه بنتف الشعر أو قضم الأظافر . وفي الحق إن بعض الناس قد استنكروا هذا اللواط كل الاستنكار غير أنهم كانوا قلة لا تتمتع بنفوذ كبير . ولا مراء في أنه كان عادة مستقرة في المجتمع اليوناني نتجت عن غلبة الطابع الرجولي في الحضارة الهللينية التي كانت تقدس الصفات الرجولية البارزة .

ومع هذا فليس من المستبعد أن تكون هذه الظاهرة الغريبة قد اقترنت بظاهرة أخرى أثرت بدورها في مركز المرأة الأثينية ، ونعني بها تأخر سن زواج الرجل الأثيني[2]. وكان من رأي شاعر واقعي كهيسيود ومشرع كصولون

---

(١) راجع ما تقدم في ص ٤١ ، هامش ١.

(٢) معلوماتنا عن أثينا أوفر منها عن أي مدينة يونانية أخرى .

وفلاسفة من أمثال أفلاطون وأرسطو أن الرجل ينبغي ألا يتزوج قبل سن الثلاثين . وينصح هذان الفيلسوفان الرجل بالزواج بين سن الثلاثين والسابعة والثلاثين ، والمرأة بين سن السادسة عشر والعشرين . وقد لوحظ أن الاختلاف في السن بين الزوجين كان كبيراً في العادة ، بل لقد ترتب على التشريع الخاص بالإبنة الوريثة أن صار زواج الكهل بالفتاة الصغيرة ظاهرة مألوفة . وقد فسر بعض المؤرخين هذه الزيجات المتأخرة بأنها نتيجة للحياة الاجتماعية وبخاصة تلك الصداقات الحميمة التي نشأت بين الرجال فوجدوا فيها عوضاً عن الزواج المبكر . غير أنه في الإمكان أيضاً أن نسوق لها تفسيراً اقتصادياً أو اجتماعياً — اقتصادياً آخر . ذلك أن جانباً كبيراً من سكان أتيكا كان يتألف من صغار المزارعين . وكانت مساحة الأرض التي يملكها الواحد منهم صغيرة . ومن ثمّ كان من المتعذر على الابن في معظم الأحوال أن يكوّن أسرة إلا كخلف لأبيه عندما يبلغ هذا الأخير سناً لا تسمح له بفلاحة الأرض بنفسه . ولهذا كان الزواج عند هذه الطائفة الكبيرة من السكان أمراً عسيراً قبل سن الثلاثين . ولم تكن ثروة الأب العقارية ، وربما ثروته كلها ، توزّع بين أبنائه بعد موته ، فكان الأخوة يشتركون في زراعة الأرض ويتقاسمون إيرادها ، ويظلون عادة يعيشون سوياً تحت سقف واحد ، فلا يتعجلون بناء أسر مستقلة . والتعليل الصحيح لهذه الظاهرة هو أن الميراث لم يكن كبيراً في الغالب ، فلو أنه وزع بينهم لما نال الإبن الواحد ما يكفيه لإعالة أسرة ومعنى هذا أن كل واحد من الإخوة كان يضطر إلى إرجاء زواجه حتى سن متأخرة . ومن المحتمل إذن أن ذلك لم يكن نتيجة للصداقة بين الرجال بل كان سبباً في دعم أواصر تلك الصداقة التي شرحنا كيف اكتسبت مظهراً غير عادي . ومن المرجح أن الفارق الكبير بين سن الزوجين قد أثر بدوره في مركز المرأة ، إذ جعلها أكثر خضوعاً وانقياداً للرجل مما لو كان الزوجان متقاربين في السن . ويتضح ذلك من

لهجة الأمر الواضحة في كلام إيسخوماخوس – وهو الزواج المثالي في كتاب «التدبير المنزلي» لاكسنوفون – إلى زوجته الصغيرة التي لا يزيد عمرها على خمسة عشر ربيعاً .

وينبغي ألا نغفل عاملين آخرين أثرا في مركز المرأة الأثينية وأحدهما تسامح المجتمع في أن ينشىء الرجل علاقات مع النساء خارج نطاق الزواج ، والآخر نظام الرق الذي يتيح له أن يشتري ما يستطيع شراءه من الإماء ، إذ كان القانون يقر معاشرة الرجال للمحظيات (pallakai) . ويولد الأبناء أحراراً (eleutheroi) إذا كانت المحظية مواطنة (astè) ، ولكنهم لا يعتبرون شرعيين (gnêsioi) ، بمعنى أنهم لا يصيرون أعضاء تابعين لأسرة الأب وبطن قبيلته (phratria) ، ولو أنه كان في وسع الأب أن يعترف ببنوتهم ويطالب بشرعيتهم إذا شاء . ولم يكن زواج المحظية مصحوباً بأي مهر أو دوطة (proix) . لكن الوصي على المرأة ، الذي يقبل تزويجها لآخر على أنها محظية ، كان يراعي اتخاذ الإجراءات الكفيلة بحمايتها من العوز في حالة طردها دون نفقة .

وكانت هناك طائفة أخرى من النساء الأجنبيات اللاتي توافدن على أثينا خلال القرن الخامس ، وبخاصة من أيونيا . وكان بعضهن مثقفات على قدر كبير من اللطافة واللباقة والذكاء ، وثريات يعشن في بذخ . وقد تسكن الواحدة منهن بمفردها أو مع صديقة أخرى أو صديقتين . وقد تقيم في مسكنها « صالوناً أدبياً » يرتاده رجال الفكر من الأزواج والأعزاب دون شعور بالحرج أو الخزي طالما كانوا لا يهملون زوجاتهم أو ينتهكون الآداب العامة . وكان بعضهن الأخريات أقل ثراء يتكسبن من التجارة أو المهن الأخرى ، أو يعملن « كموديلات » أو يعشن كالغواني عالة على جيوب العشاق. وكانت حياتهن جميعاً غير مستقرة ولكنها لم تكن بالضرورة منحلة او خليعة . وكثيراً مادعين إلى الحفلات مع إغفال الزوجات . وقد اتخذ بعض الأزواج الأثينيين منهن رفيقات

أو خليلات (hetairai) . ولم يكن في هذا المسلك ما يعيب الرجل أو يمس سمعته لأن المجتمع كان لا يستنكره أو يرى فيه ما يستوجب اللوم . وأشهرهن جميعاً هي أسباسيا (Aspasia) ، خليلة بريكليس ، التي أنجب منها، بعد طلاقه من زوجته ، إبناً لم يمنح حقوق المواطنة الأثينية إلا بمقتضى قانون خاص ، لأن هذه الجنسية كانت وقفاً على الابن المنحدر من أبوين كل منهما أثيني . ومن ثم نرى أن المجتمع الأثيني، وإن تسامح مع الرجل في أن يتخذ له خليلة، إلا أن القانون « الذي أصدره بريكليس نفسه في عام ٤٥١) لم يكن سخياً في معاملته للأبناء المنحدرين من أزواج أثينيين وزوجات أجنبيات . وأما فريني (Phryné) الخليلة الشهيرة الأخرى فكانت تجلس للمثال الكبير براكسيتليس(Praxitelés) وللرسام المعروف أبلليس (Apellés) كموديل لنحت تمثال أورسم صورة للربة أفروديتي ، إذ روى أن مقاييس جسمها كانت آية في التناسق والكمال[1]. وكانت أدنى هذه الطوائف من النساء طائفة العاهرات اللاتي كن في الغالب من الرقيق، وقد يحترفن مهنة معينة كعزف الناي(auletrides)أوالقيثارة(katharistriai) ويؤجرن للغناء والرقص في حفلات الشراب . وكان سادتهن يقومون بإسكانهن في دور بغاء خاصة ، فاذا كن فقيرات معدمات فقد يحترفن الدعارة رسمياً في مواخير عامة (porneia) بتصريح من الحكومة ، كما يتبين من بعض النصوص الواردة في تشريعات صولون .

الحرية والروح الاستقلالية والنزعة الانفصالية :

لقد كان الإغريق كالشعوب التي تعيش في مثل مناخهم ، شعباً يألف العشرة ويميل إلى الاندماج في جماعات كبيرة ولهذا كانوا حتى في حالة الهجرة إلى ساحل

---

(١) براكسيتليس مثال أثيني شهير (٣٧٠ - ٣٣٩ ؟) . والتمثال المشار اليه هو تمثال « أفروديتي كنيدوس» الذي وصف قديما بأنه أجمل تمثال في العالم بأسره ، ويمثل الربة شبه عارية. وأما أبليس (٣٣٢ - ؟) فهو أشهر رسام أيوني. رسم أفروديتي، واشتهر برسم صور الإسكندر الأكبر.

آسيا الصغرى أو إلى إيطاليا ، لا يخرجون فرادى بل زرافـات أي في حشود تشيع فيها روح الصداقة والود . فاذا حطوا رحالهم في المستعمرة الجديدة على الشاطىء الآخر من البحر لم يكن يعنيهم أن يجدوا الظروف الاقتصادية بقدر ما كان يعنيهم أن يجدوا الظروف الاجتماعية المناسبة . وحياة النوادي تقوّي روح الزمالة : والزمالة الطيبة تعني المساواة، لا المساواة الصورية بل الحقيقية التي تنبع من الإحساس بالمصلحة المشتركة ووحدة الهدف ومن الاتصال المستمر في الاماكن العامة . ومساواة من هذا القبيل تصلح لأن تكون أساساً للنظم السياسية . فمن الخير للناس أن يلتقوا ويتبادلوا الحديث لأنهم سوف يتناولون مسائل تهم الجميع. وفي مجتمع صغير بسيط لا يتغير فيه المناخ إلا بتغير الفصول، لن يكون الموضوع الرئيسي الذي يشغل بال الجماهير هو الجو أو المال أو الزواج، بل الدولة. فالدولة في حقيقة الأمر هي المصلحة المشتركة (koinon) كما يسميها اليونان أو هـي المصلحة العامة (res publica) كما يسميها الرومان . ففي المنتديات العامة تتهيأ الفرصة لمناقشة المشاكل علناً وبحثها على مشهد من الجميع . ومثل هذه الحيـاة الجماعية كفيلة بأن تخلق وعياً أو إرادة شعبية قوية أي أن تخلق ما نسميه اليوم بالرأي العام . وكان اليوناني بوصفه « كائناً سياسياً » يناقش كل موضوع يطرح أمامه . وكان من بين حقوقه الأثيرة إلى نفسه هو أن يتكلم بحرية ويقول كل ما يخطر له (parrésia) . وكانت أثينا تفاخر غيرها من دول المدن اليونانية بمـا تكفله من حرية للأفراد على اختلاف أمزجتهم الشخصية. يقول بريكليس في خطاب التأبين المشهور « إننا لا ننظر بعين الغيظ إلى جارنا أو نغضب منه عندمـا نراه يستمتع بالحياة على طريقته الخاصة ونربأ بأنفسنا عن المشاكسات التافهة التي قد لا تترك أثراً في النفس ولكنها تثير امتعاض من يلحظها » .

ولقد ذكرنا كيف كانت بلاد اليونان منقسمة إلى بيئات تختلف في التضاريس والمناخ والنبات اختلافاً شديداً . ولهـذا لم يكن من المتيسر أن يكون أسلوب المعيشة متجانساً إلا في داخل مناطق صغيرة محدودة المساحة. وقـد اختلفت

أساليب المعيشة حتى بين الجماعات المتجاورة . فكأن التربة نفسها كانت سبباً جوهرياً في انعـــدام الوحدة السياسية . ومن البديهي أن الأحوال الاقتصادية والاجتماعية ترتهن أيضاً بهذه الظروف الجغرافية، ولذلك نجدها تختلف هي الأخرى في مكان عنها في مكان آخر . وما يزال الفارق الطبقي – حتى في العصر الحديث بعد تقدم طرق التجارة والمواصلات – ما يزال هذا الفارق بين سكان المدن والفلاحين في السهول من ناحية وبين الرعاة في الجبال من ناحية أخرى ، أكبر في بلاد اليونان منه في أي دولة أخرى من دول العالم الغربي الرأسمالية . وكان هناك عامل آخر ساعد على الانقسام الشامل ، إذ تملكت كل جماعة رغبة شديدة في أن تحيا مستقلة . وبمرور الزمن تحولت القرية إلى بلدة وتحولت البـــلدة إلى مدينة – دولة كان من أبرز خصائصها الحرية(eleutheria)والاستقلالالسياسي (autonomia) والديني، والاكتفاء الاقتصادي (autarkeia). وكانتهناك روح انفصالية قوية تكمن وراء حركة التطور التي انتهت بظهور دول المدن اليونانية . وهكذا أصبحت دولة المدينة (polis) ، التي تركزت حول جماعة مدنية واحدة ، هي الشكل النموذجي للدولة اليونانية . غير أن دولة المدينـة كانت تحمل منذ نشأتها بذور انحلالهـــا . فإلى جـانب روح الأثرة والانطواء على النفس وعدم إشراك الغير في الحقوق تولد عن الارتباط الوثيق بين المدينـة (astu) – بالمعنى الضيق الكلمة – وبين الريـف (chôra) احتكاك بسبب تضارب المصالح السياسية والاقتصادية . وهكذا كانت عوامل التفكك تسري في كيان دولة المدينة ، ولم تلبث بمضي الزمن أن تسربت إلى المجتمع والأفراد الذين تولد عن احتكاكهم المستمر منافسة انقلبت في آخر الأمـر إلى خصومة . وبعبارة أخرى فان النزعة الاستقلالية التي تفشت بين الدويلات ، وحالت دون قيام أمة يونانية واحدة ، تطورت إلى نزعة فردية بين الأشخاص قضت في آخر الأمر على « دولة المدينة » .

ضيق حيز دولة المدينة اليونانية والمنطقة الايجية :

وهناك نقطة أخرى وهي ضيق حيز دولة المدينة وصغر المنطقة الإيجية بوجه عام . ذلك أن المكان هو الإطار الضروري للجماعة السياسية أيا كان شكلها . وفي رأي أرسطو أن الوحدة التامـــة تفرض على كل جماعة سياسية أن تشغل المساحة الميسورة لها وأن تمد رقعة أراضيها حتى تبلغ حدودها الطبيعيـــة . ومن القواعد التاريخية العامة أن الحدود السياسية تتجه عادة إلى الانطباق على الحدود الجغرافية . ونجد هذه القاعدة مطبقة تطبيقاً تاماً حيثما تكون هناك منطقـــة كبلاد اليونان مقسمة بطبيعتها إلى عدد كبير جداً من الأجزاء الصغيرة . وبغض النظر عن اسبرطة التي ظلت في أغلب مظاهرها دولة فريدة في العالم اليوناني، فإن أثينا هي الدولة الوحيدة التي طابقت أراضيها الاقليم بأكمله على الرغم من تمزق سطحه بالجبال والتلال . وكان هـــذا الإقليم الذي عرف باسم أتيكا لا تزيد مساحته على دوقية لوكسمبورج [1] . وأما أراضي معظم دول المدن الأخرى فكانت تقارب في مساحتها المقاطعات الصغيرة في الاتحاد السويسري . ومع أن المنطقة الإيجية ليست كبيرة إلا أنها تنقسم هي الأخرى إلى أجزاء صغيرة . وفي الحقيقة لا توجد مساحة كبيرة سواء من الأرض أو البحر ليست مقطعة أو يمكن أن توصف بأنها فسيحة . وقد كتب أتيكوس (Atticus) مرة إلى صديقه شيشرون يقول « عند عودتي من آسيا ، ركبت البحر من آيجينا إلى مجارا ، وبدأت أتطلع حولي، فكانت آيجينا خلفي ، ومجارا أمامي، وعلى يميني كانت بيريه ، وعلى يساري كانت كورنته». لقد أثار دهشة هذا الرجل الروماني الذي عاش في عصر كانت الجمهورية الرومانية تسيطر فيه على معظم أنحاء العـــالم

---

(٢) مساحة لوكسبرج ٢٥٨٦ كم٢. وهي حوالي ربع مساحة لبنان(١٠،٤٠٠ كم٢). ومساحة بلاد اليونان نفسها ١٣١،٩٤٤ كم٢.

المعروف ، أثار دهشته أن يرى في وقت واحد أربع دويلات كانت مستقلة من قبل . غير أن ذلك لم يكن ليثير دهشة أي رجل يوناني (١) .

لقد وجد الإغريق أن أهدافهم السياسية لا تتحقق إلا داخل مناطق محدودة المساحة ، بل داخل مناطق صغيرة جداً . ولما كان من الميسور في مثل هذه المناطق أن يتعرفوا بسرعة على جميع الموارد الطبيعية والإمكانات المختلفة ، وأن يستغلوها إلى أقصى حد ، فقد استقرت النظم السياسية عندهم منذ وقت مبكر ، كما رسخت بينهم فكرة الاستقلال السياسي . وقد بدأت دول المدن اليونانية على شكل مراكز مدنية كانت تقام عادة داخل مساحة ضيقة في السهول الصغيرة الكثيرة في العالم اليوناني ، وسرعان ما اتسعت رقعتها اتساعاً لم يتعد الحيز الضيق الذي اتاحته لها الطبيعة . على أن ضيق المساحة الشديدة في حالة بعض السهول ، أو قيامها في موقع غير ملائم ، أو جدب الأرض لعدم توافر المياه ، لم يتح لبعض الجماعات الرعوية أو حتى الريفية أن تبني مراكز مدنية ، فظلت تعيش في قرى ومزارع متناثرة . فإذا حدث أن نشأت دولة مدينة في سهل ولم تكن متصلة بمنطقة خلفية أو « ظهير » يكفي لمدها بالقوى البشرية اللازمة ، فإن دولة المدينة في هذه الحالة ، مثل كورنثه بالقياس إلى أثينا ، كانت تعجز عن أن تصبح قوة كبرى على الرغم من رخائها الاقتصادي وموقعها الجغرافي الممتاز .

لقد كان العامل الرئيسي الذي حدد طبيعة الأقاليم ودول المدن اليونانية هو صغر مساحة أراضيها . وكثيراً ما حدث أن وضعت قبيلة واحدة بل فرع من قبيلة نواة دويلة قائمة بذاتها في منطقة صغيرة . وسرعان ما كان سكان هذه المنطقة التي لم تكن تتسع إلا لأعداد محدودة من الناس ، يصبحون جماعة

---

(١) المسافة بين أثينا واسبرطة – على سبيل المثال – حوالي ١٥٠ ميلاً قطعها العداء فيديبيديس جرياً في يومين وفقاً لرواية هيرودوت .

سياسية مترابطة أي يصبحون دولة مدينة ، يعرف فيهـا الناس بعضهم بعضاً معرفة شخصية. وقد ساعد هذا العامل أيضاً على أن يدرك كل فرد من المواطنين في كل لحظة وفي كل مسألة أن مصلحته ترتبط بمصلحة الجماعـة أشد الارتباط ، وأن دولة المدينة في الواقع مصلحة عامة او مشتركة (koinon) . وكان جميع المشتركين في نفس الدولة يعيشون في ظروف متماثلة ، كما كانت معتقداتهم وأفكارهم وأمانيهم متماثلة ، على الرغم من الاختلافات الطبيعية التي لا مندوحة عنهـا . وكان كل فرد يرى أن وجوده الشخصي منحصر في نفس الحدود التي ينحصر فيها وجود غيره من المواطنين . هكذا أصبحت إرادة الفرد مقيـدة بإرادة الجماعة أو خاضعة لإرادة دولة المدينة . وقـد نشأ طراز متجانس من الناس ، يتميز بالارتباط الوثيق بين المواطن والدولة ، ذلك الارتبـاط الذي حال دون أن يكون الفرد مجرد فرد في الدولة . ومن ثم تولدت وطنيـة اليوناني المتقدة التي كانت مظهراً من مظاهر وحدة تكاد تكون كاملة بـين الحياة السياسية والحيـاة عامة . وبالإجمال فإن الانسان – كما أسلفنا – أصبح في دولة المدينة محدودة المساحة « حيواناً مدنياً أي سياسياً » .

وترتبط بتلك النقطة حقيقة أخرى تقودنا خطوة أبعد . ففي المنطقـة الصغيرة التي شغلتها كل دويلة يونانية كان من المستطاع أن يتعرف الناس على إمكاناتهـا السياسية والاقتصادية والثقافية فيستغلوها استغلالاً كاملاً . لذلك لم تترك أرض خصبة دون أن تزرع ولا منطقة صالحة للسكنى دون أن تسكن . وانطبق نفس الشيء على الميـدان السياسي والفكري ، إذ نجم عن تلاصق الأشياء أن كل جزء منها ، مادياً كان أم معنوياً ، أسهم في بناء الجماعة . وكانت حياة مثل هذه الجماعة الكثيفة السكان ، تنبض بالنشاط نبضاً قوياً ، وسرعان ما تبلغ أوجها . وقـد سلكت كل جماعة في تطورها طريقاً خاصاً حددته طبيعة أرضها وطباع سكانها . وبذلك اكتسبت كل دويلة شخصية قوية مستقلة عن غيرها . كما خلقت الوحدة داخل الحيز الضيق إرادة سياسية واعية أو رأياً

عاماً قوياً ، وهذا بدوره أفسح المجال لانطلاق غرائز قوية تسببت في احتدام المنافسة وإثارة الخصومة بين المواطنين . ولا نجانب الصواب إذا قلنا إن هذه الغرائز هي التي شكلت تاريخ الاغريق وتحكمت في مجراه كما شكلت وتحكمت في حياة كل مواطن يوناني . فقد كان أسمى هدف يطمح إليه هذا المواطن أن يفوز بغصن الزيتون بالانتصار في إحدى الألعاب الرياضية التي كانت تجري في الأعياد الهللينية الجامعة حتى يرفع من اسم دولة مدينته . وكانت دول المدن بدورها متلاصقة إحداها بالأخرى إلى درجة أن الحدود الطبيعية والسياسية لم تستطع أن تحول دون توتر العلاقات وقيام المنازعات ، هذا في الوقت الذي كانت كل دولة مدينة على علم تام بموارد دول المدن المجاورة ومدى قوتها . وفي هذا الصدد أيضاً نجد اسبرطة تخرج على القياس ، إذ اشتهرت بتكتمها الشديد فيما يتصل بنظمها وشئونها الداخلية . وقد أفضى تدهور العلاقات واحتدام المنازعات إلى قيام حروب كثيرة من ناحية ، وقيام محاولات من ناحية أخرى لإيجاد نوع من توازن القوى — وهذا بدوره أدى إلى انقسام العالم الهلليني فريقين في الحرب البلوبونيزية .

على أن الحيز الضيق يظل دائماً على ضيقه . وقد أدرك الإغريق ذلك لأول مرة عندما وجدوا أن الحيز الضيق قد يصبح أضيق مما كان عليه . وحين كانت المنطقة المحدودة المساحة تصبح بمرور الزمن غير قادرة على توفير الغذاء الكافي أو المكان اللازم للسكان الذين يتزايدون باستمرار زيادة طبيعية[١]، عندئذ كانت أراضي دولة المدينة تعجز عن أن تحتمل أو تستوعب الفائض من السكان . وقد حدثت تلك الظاهرة في أوقات مختلفة وبدرجات متفاوتة في كثير من دول المدن اليونانية ، غير أن المشكلة كانت قائمة باستمرار

(١) لكن يلاحظ أنه كان للزواج المتأخر ، فضلاً عن ارتفاع نسبة الوفيات بين الأطفال ، والحروب المستمرة ، والتطاحن الحزبي ، والأوبئة ، والرق ، والهجرة ، أثر في بطء معدل الزيادة في عدد السكان ببلاد اليونان .

كنتيجة حتمية للظروف الطبيعية . وقد انتهى الفلاسفة الذين كتبوا عن الدولة المثالية إلى أن عـــدد سكانها ينبغي أن يظل ثابتاً . وبديهي أن ذلك ليس بالحل الميسور ، وإن كان ضيق حيز دولة المدينة اليونانية قد يبرر هـــذه الفكرة غير العملية بعض التبرير . لقد كان الحل الوحيد الممكن الذي فرض نفسه على الإغريق عدة قرون هو الاتجاه إلى البحر ، إذ كان هذا البحر الذي يتغلغل في جميع أنحاء المنطقة اليونانية بمثابة المكمل الطبيعي لنقص المساحة أو المفرج عن ضيق الحيز . ولما كانت دولة المدينة اليونانية منحصرة في نطاق ضيق ولها منفذ على البحر ، فقـــد دفعت سكانها دفعاً قوياً إلى التجارة والاستعمار . وقـد عبر المستعمرون اليونان بحراً تقطعه الجزر والسواحل في كل مكان. وهكذا وطدوا أقدامهم بالتدريج في مهاجر أو مستعمرات جديدة . وإن لم تكن أقرب الأماكن دائمـــاً هي التي استعمرت في بادىء الأمر . ولم يكن الاستعمار حركة نابعة من إرادة الشعب الجماعية، بل حركة حتمتها الظروف المؤقتة في كثير من دول المدن اليونانية[1]. وينطوي هذا المثل على حقيقة تاريخية هامة : وهي أن الملاحة والتجارة البحرية والقرصنة والاستعمار – وهو استيطان سلمي يتميز عن الاستعمار المسلح – قلمـــا تنبع الحاجة إليها من ظروف دول « قارية » كبيرة ، تتوافر لديها الإمكانات لتنمية الاقتصاد المحلي والتجـــارة الداخلية والتعمير الإقليمي ، وإنمـــا تنبع من ظروف ضيق المنطقة وعزلتها ونقص مواردها وإجهاد تربتها واكتظاظها بالسكان .

وقد رأينا كيف تؤدي الظروف في المناطق الصغيرة بالضرورة إلى اشتداد كثافة السكان واشتداد نبض الحياة الاقتصادية والفكرية . غير أن التركيز في مكان محدود يستتبعه أيضاً تركيز في الزمن . ففي المناطق الضيقة تجري حياة

---

(١) نشطت حركة الاستعمار الإغريقي ما بين ٧٥٠ ، ٥٥٠ ق.م. وقد شملت جنوب إيطاليا وصقلية وجنوب غاله ومنطقة الدردنيل والبسفور وسواحل البحر الأسود . وقد ترتبت عليهـــا نتائج اقتصادية وثقافية بعيدة المدى .

الإنسان وحياة الدولة إلى نهايتها بسرعة كبيرة : نمو سريع ، وشباب قصير مزدهر ، وشيخوخة مبكرة . وقد كان ذلك هو مصير دولة المدينة اليونانية . ولم يكن هناك مناص من أن يأتي الوقت الذي تجهد فيه تربة الأرض المحدودة ، وتؤدي العزلة إلى ضعف الأنسال وتجمد العقول ، وتعوق سير التقدم حدودٌ تزداد ضيقاً من يوم إلى يوم ، وتصبح الحياة تافهة عديمة الجدوى ، وتفقد النظم معناها ، وتتحول المنافسة بين دول المدن إلى نزاع لا معنى له ولا طائل من ورائه . وعندئذ كانت «دولة المدينة »تتحطم بسبب ضيق مجالها الحيوي .

وكان السبيل الوحيد لتجنب هذه النهاية هو توسيع رقعة الأرض ؛ وأمام الإغريق لم يكن هناك سوى مخرج واحد ، وهو البحر . ففي كل دويلة يونانية تقريباً نشأ ميل قوي إلى ركوب البحر ، وإن كان على المهاجرين أن يواجهوا مقاومة السكان الأصليين في كل مكان نزلوا به . وقد سلكت التجارة طريق البحر حيثما كان من المستطاع استخدامه . وقلما كانت الطرق البرية تشق في الداخل . وكان من الطبيعي أن يسبق السكان الذين يعيشون على مقربة من السواحل غيرهم إلى الاشتغال بالسياسة . وجاء الوقت الذي كانت فيه كل دويلة تحاول أن تقهر عزلتها وضيق مساحتها . وقد مهدت التجارة والاستعمار الطريق ، وفي أعقابها جاءت السياسة . ومن أمثلة دول المدن التي كان لها السبق في هذا المضمار ميليتوس وإفسوس وكورنثه وأيجينا وأثينا (Athenae) ، وأن لم تفق اي منها الأخيرة في مضاء العزم أو مرتبة النجاح . ففي وقت مبكر مدت أثينا حدودها السياسية إلى حدود أتيكا الطبيعية . وفي فترة تالية استطاعت تحت قيادة الزعيم الساسي الكبير ثميستوكليس (Themistocles) [1] ان تصبح قوة بحرية كبيرة . وقد أتاح لها حلفاؤها في القتال فرصة الزعامة بمحض اختيارهم أولاً ضد الفرس وبعدئذ داخل العالم

---

(١) ٤٨٣ - ٤٧١ ونفي في هذه السنة الأخيرة ومات حوالي ٤٦٢ .

الإيجي . ولن ينطوي الكلام على أي تناقض إذا قلنا إن أثينا ، وقد تمادت في سياستها الإمبريالية ، سرعان مـا بدأت تحتكر البحر وتحوله إلى جزء من أراضيها . غير أن أثينا نفسها لم تحصل إلا على زعامة استبدادية مؤقتة . وكان الحلف الأثيني (حلف ديلوس) لا يعدو أن يكون سيطرة فرضتها اثينا عـلى منطقة واسعة . ولكنه لم يتحول إلى إمبراطورية بالمعنى الحقيقي لأنه لم يصبح أبداً دولة واحدة[1] . وهكذا أخفقت أروع محاولة قامت بها دولة مدينة يونانية لكي تتخطى حدودهـا الضيقة بالتوسع عبر البحر . لقد راحت بلاد اليونان ضحية صغر تكويناتها السياسية .

وثمة نقطة أخيرة : إن منطقة كالمنطقة الإيجية التي تستمد اسمها وطبيعتها من كون البحر الإيجي هو نقطتها المركزية ، يعوزهـــا بالضرورة الأفق الجغرافي الواسع . ولم يكن ضيق الحيّز إذاً ظاهرة تميز فقط كل دويلة يونانيـة على حدة بـــل تميز أيضاً كل الجزء اليوناني من البحر المتوسط . ولم يتغير هذا الوضع إلا تدريجياً عن طريق الاستعمار فيما بين القرنين الثامن والسادس عندما وجد اليونان مخارج لهم من البحر الايجي إلى عالم أوسع . ومع هذا فقد ظـل البحر مركزاً لحياتهم وأفكارهم حتى بعد أن دخل البحر الأسود في نطاق « بحرهم » . وليس أدل على ارتباط حياتهم بالبحر وشغفهم به من « قصة العشرة آلاف جندي » من الإغريق المرتزقة الذين بدأوا حملتهم (anabasis) من سرديس (Sardes) في عام ٤٠١ وتوغلوا في قلب آسيا الصغرى متجهين إلى فـــارس لمساعدة قورش (Cyrus) الأصغر في ثورته ضد أخيه أردشير الثاني (Artaxerxes) لكي يسقطه عن عرشه . فلما قتل قورش في معركة كيناكسا (Cunaxa) على بعد ٤٥ ميلاً شمالي بابل ، ولم يجد المرتزقة الإغريق بعد مصرع الكثير من ضباطهم ما يصنعونه عادوا أدراجهم ، واختـــاروا المؤرخ اكسنوفون نفسه ، الذي روى لنا هذه

---

(١) أنشىء هذا الحلف عام ٤٨٨/٤٨٧ ق.م. ثم نقلت خزانة الحلف من ديلوس إلى أثينا في صيف عام ٤٥٤ ق.م.

القصة (١) ، قائداً ليتولى عملية انسحابهم الشاق عبر جبال أرمينيا الوعرة حتى طرابيزون . وهناك ارتقى بعض أفراد طليعة الجيش ربوة عالية فاشتد الهرج وترامى الصياح تدريجياً إلى مؤخرة الجيش التي ظنت هي والقائد أن عدواً هاجم المقدمة. وحار اكسنوفون في تفسير هذا الصياح الذي أخذ يتزايد فامتطى صهوة جواده مع ثلة من الفرسان واتجه إلى المقدمة ليمدها بالنجدة، فسمع الجنود يصيحون بأعلى صوتهم : البحر ، البحر ! ويتناقلون النداء من واحد لآخر . وارتقى الجميع الربوة وبكوا من الفرح وتعانقوا جميعاً جنوداً وضباطاً . لقد وجدوا البحر(٢) أخيراً فتنفسوا الصعداء واطمأنت قلوبهم إلى أن الطريق أصبح مفتوحاً إلى أرض الوطن . وإذا كان رجل مثل فاسكودي جاما قد حاول فيما بعد أن يطوف بحراً لكي يكتشف حدود الأرض فقد حاول الإغريق بطوافهم أن يكتشفوا حدود البحر . وقد كان من بين الحقائق الهامة أنهم ، أو على الأقل إغريق شبه الجزيرة والجزر المجاورة ، لم تربطهم صلة الجوار إلا بإغريق مثلهم . وفي آسيا الصغرى وحدها بدأوا يدركون أنهم على مقربة من إمبراطوريات كبيرة. وقد جعلت تجربة الحروب الفارسية معظم اليونان يحسون بالفارق بينهم وبين دولة «قارية» ضخمة. ومع هذا فلم ير اليونان في فارس سوى قوى شرقية متبربرة تمثل الاستبدادية المقيتة . وبعبارة أخرى فإنهم تأثروا في حكمهم على الإمبراطورية الفارسية بمستوى حضارتهم وضيق حيزهم السياسي. وكان الإسكندر المقدوني ، وإن حمل لواء الحضارة اليونانية راعتبر وريثاً لها ، هو أول من خرج بالتفكير اليوناني من حيز البحر المتوسط إلى « حيز القارات » . ولهذا السبب وغيره من الأسباب ، يعتبر الإسكندر في الواقع (٣٣٦ – ٣٢٣) هو محدث التحول

(١) وهو البحر الأسود الذي تقع عليه طرابيزون.

(٢) راجع أيضاً ما تقدم في ص ٤٠ هامش ٢   Anab. VII, 4, 21 - 25 .
بدأت الحملة بحوالي ١٣٠٠٠٠ – وعادت بحوالي ٨٦٠٠ ، وكانت اسبرطة متواطئة فيها مع قورش ، وقدمت له المساعدات البرية والبحرية .

الكبير في العالم اليوناني ، ذلك التحول (peripeteia) الذي سلب دولة المدينة اليونانية معاني وجودها وأهميتها .

ويتبين من النظر إلى خريطة سياسية جيدة لبلاد اليونان القديمة أنه كان بها من الحدود السياسية ما يزيد بكثير على حدودها الطبيعية ، بمعنى أن دول المدن التي نشأت فيها كانت أكثر من أقاليمها الجغرافية . وهذه الحقيقة تؤيد الرأي القائل بأن السياسة والتاريخ لا يمكن أن يفسر أي منها على أساس الظروف الجغرافية وحدها . فالبيئة الطبيعية ليست سوى مادة يستخدمها الإنسان ، مبدع كل تقدم سياسي وحضاري . فكل جماعة من الناس لها خصائص مميزة تتكون قبل فترة قيام الدولة وتتمثل في الجنس واللغة والدين والسياسة والاقتصاد . وهكذا يخلق الإنسان البيئة الحضارية لتكون تربة خصبة لنمو الدولة وبقائها . ولما كنا قد ركزنا الكلام حتى الآن على العوامل الجغرافية ، فينبغي أن نبين ما صنعه الإنسان بما وهبته الطبيعة ، ونستعرض بإيجاز العوامل الجوهرية الأخرى في تكوين « دولة المدينة » اليونانية .

الفَصْل الثّاني

« دولة المدينة » اليونانية

- ٢ -

أثر البيئة البشرية

الشعب اليوناني وأصله :

لعبت العوامل الطبيعيه دوراً بارزاً في قيام « دولة المدينة » ولكنها لم تكن وحدها هي صانعة هذا النوع من الدول في اليونان ، بل ساعدتها عوامل بشرية؛ وفي مقدمة هـــذه العوامل الشعب اليوناني وأصله أو تكوينه الجنسي . فقد اتضح الآن - في ضوء الكشوف الأثرية - أن حضارة البلاد التي عرفت فيا بعد باسم هِللاس (Hellas) أو بلاد اليونان نشأت أول ما نشأت في « العصر النيوليثي » (أي الحجري الحديث) الذي بدأ هناك قبـل عام ٣٥٠٠ وانتهى حوالي عام ٢٠٠٠ /١٩٠٠ . وقد جاء بعده «عصرالبرونز» الذي انتهت حضارته عام ١١٠٠ على وجه التقريب . وكان قد دخل شبه الجزيرة (الإغريقية) أثناء عصرها النيوليثي قوم لا نعرف لهم اسماً، وإن كان الكتّاب اليونان قد اطلقوا عليهم فيا بعد اسم البلاسجيين (Pelasgoi)[١] . ومن المرجح أنهم وفدوا من

---

(١) أو الكاريين (نسبة إلى إقليم كاريا(Caria) بآسيا الصغرى أو الليليجيين(Lelegeis) وهو اسم أطلقه الكتاب اليونان فيا بعد على شعب آسيوي كان يحتل جزر البحر الإيجي وأجزاء من بلاد الإغريق نفسها قبل قـدوم الأخيين (الهللينيين) . وكانوا يمتون بصلة قرابـة للكاريين ، ويعرفون جيماً « بالبلاسجيين » الذين يظهرون في الإلياذة كحلفاء لطروادة .

جنوب غرب آسيا الصغرى ودخلوا شبه الجزيرة من سواحلها الشرقية والجنوبية. ولعلهم كانوا يمتّون بالصلة للسكان الأوائل في كريت وجزر البحر الايجي. وقد قامت لهم حضارة، زراعية الطابع، عثرنا على أغلب مراكزها في إقليم ثساليا (١٥٠ مركزاً)، ومنطقة كورنثة. وانتشرت غرباً حتى جزيرة كركيرا (كورفو)، وجنوب شرق إيطاليا (إقليم أبوليا). ولم تكن لغة هؤلاء القوم القدامى تنتمي إلى أسرة اللغات الهندية – الأوربية. ويتضح ذلك من أسماء كثير من الأماكن (والنباتات والطيور وألفاظ الملاحة وصيد الأسماك) التي تنتهي بنهايات غير هندية – أوربية وبالتالي غير أصيلة في اللغة اليونانية (- nthos , - ênê , - ssos) مثل كورنثوس وميكيني (وهي ميكيناي) وبَرْنَاسوس. وأما الطور الأخير من هذه الحضارة النيوليثية فقد درج العلماء على تسميته «بالعصر الهلادي القديم» (حوالي ٢٥٠٠ – حوالي ١٩٠٠)، مع أن الهللينيين (وهم الإغريق) لم يكونوا قد ظهروا بعد على مسرح شبه الجزيرة في ذلك الحين. لكن التسمية اصطلاحية، ولا بأس منها على اعتبار أن هؤلاء السكان الأصليين سيمتزج بهم فيما بعد المهاجرون الهللينيون. وكانت حضارة «العصر الهلادي القديم» حضارة زراعية أيضاً، وانتشرت (إلى جانب ثساليا) في وسط بلاد الاغريق (بويوتيا وأتيكا) وفي البلوبونيز (كورنثة وأرجوليس)، وجزيرة أيجيينا وجزر الكيكلاديس (في البحر الإيجي).

ومع بداية عصر البرونز أي حوالي عام ١٩٠٠ – أو بعده بفترة يختلف الباحثون في تقدير مداها [١] بدأ يدخل شبه الجزيرة قوم جدد لا نعرف من أين

---

(١) في رأي العلامة السويدي نيلسون (M. P. Nilsson) أن العصر المسمى «بالعصر الهلادي الوسيط» (١٩٠٠ - ١٥٥٠) لا تكشف آثاره حتى الآن عن أي أدلة قاطعة بوجود مراكز عمرانية هندية - أوربية في بلاد الإغريق. ومن ثم فهو لا يعتقد بمجيء الأخيين إلى شبه الجزيرة قبل عام ١٦٠٠. لكن الأثريين والمؤرخين يرون جميعاً أن حضارة «العصر الهلادي الوسيط» حضارة إغريقية، راجع:

H. Bengtson, <u>Griechische Geschichte</u>. 3 tte Aufl, (Münclen), 1965, p. 29, n. 4.

أتوا على وجه اليقين . لعلهم وفدوا من منطقة حوض الدانوب (سهل المجر) أو شمال اوروبا الشرقي أو من منطقة أبعد من ذلك: من شرق بحر قزوين وأواسط آسيا (وهي مناطق شديدة البرودة بعيدة عن البحر) ، ثم دخلوا البلقان من شماله أو سواحله الشرقية . بل إننا لا نعرف الاسم الذي كانوا يطلقونـه على أنفسهم عند مجيئهم إلى شبه الجزيرة . لكننا نعرف أنهم كانوا ينتمون إلى أسرة الشعوب الهندية – الأوربية، وأنهم كانوا قوماً محبين للقنص والفروسية والقتال ويحملون أسلحة مصنوعة من البرونز. ولعل ذلك الدمار الذي لحق بعدد كبير من المراكز العمرانية (في آخر العصر الهلادي القديم) وشمل منطقـة واسعة تمتد من غرب شبه الجزيرة إلى أرجوليس، يرتبط بمجيء هؤلاء القوم ، وإن كنا لا نزال نفتقر إلى الدليل الذي يثبت هذا الارتباط من كل الوجوه . وفي أكبر الظن أنهم لم يقتحموا البلاد كغزاة دفعة واحدة بقدر ما دخلوهـا متسللين في أفواج متعاقبة ،وأن هجرتهم استغرقت زمناً طويلاجداً. وثمة شيء آخر عن هؤلاء القوم هو أن حضارتهم لم تكن بأرقى من حضارة سكان البلاد الأصليين الذين كان أغلبهم فلاحين يمارسون مهنة الزراعة . لكن مع توالي مجيء قبائل جديدة من هؤلاء المهاجرين ، طغوا على السكان القدامى - وإن تأثروا بحضارتهم – وأصبحوا هم الطبقة الحاكمة بفضل تفوقهم في التنظيم العسكري ، والفروسية ، وفنون القتال . لكن فترة طويلة بعد ذلك من التعايش السلمي والتعاون المثمر كانت كفيـلة بتحقيق الامتزاج بين القدامى والجدد . ولم يأت منتصف القرن السادس عشر (حوالي ١٥٥٠) حتى كان سكان شبه الجزيرة خليطاً يتألف من عنصرين أو سلالتين : سلالة الهنود – الأوربيين ، وسلالة سكان البحر الأبيض المتوسط .

هؤلاء القوم الجدد الذين امتزجوا بالقدامى خلال بضعة قرون ، ثم قاموا بالحملة على طروادة في آخر القرن الثالث عشر أو مستهل الثاني عشر ، يسميهم هوميروس (في القرن التاسع) غالباً بالأخايـويين أو الأخيين (Achaioi) .

ولا يساورنا الآن شك -بعد أن توصل فنتريس (M. Ventris) وزملاؤه إلى فك رموز كتابتهم المدونة على ألواح من الطين — [1] في أنهم كانوا يتكلمون حينئذٍ صورة قديمة من اللغة اليونانية . وليس هناك بأس من أن نقبل تسمية هوميروس لهم بالآخيين حيث أننا لا نعرف لهم اسماً آخر أو أقدم طوال الفترة الممتدة من وقت مجيئهم إلى شبه الجزيرة (في القرن التاسع عشر) إلى وقت تأليف الإلياذة (في القرن التاسع) . لكننا لا نلبث أن نسمع أنهم صاروا يطلقون على أنفسهم — ابتداءً من القرن السابع أو قبله بقليل — اسم الهللينيين (Hellênes) ، وهم من سماهم الرومان فيما بعد بالإغريق (Graeci) ، وعرفهم أهل الشرق القديم باسم اليفانيين (Yavani) واليوانيين (Yauna) — نسبةً إلى أيونيا والأيونيين — ونعرفهم نحن في العربية عادة باليونان واليونانيين [2] .

تأثر اليونان بحضارة كريت :

ويسمي الأثريون العصر الذي يبدأ بمجيء الإغريق وينتهي عند منتصف القرن السادس عشر « بالعصر الهللادي الوسيط » (١٩٠٠ — ١٥٥٠) ، وهو يتفق أيضاً مع بداية عصر البرونز في بلاد اليونان . ويسمون العصر التالي له « بالعصر الهللادي الحديث » (١٥٥٠ = ١١٥٠) أو « بالعصر الميكيني » ، نظراً لأن مدينة ميكيناي (Mycenae) في أرجوليس (بالبلوبونيز) لم تلبث أن صارت أقوى مراكز هذه الحضارة وأغناها وأوسعها نفوذاً . ولقد وقعت بلاد اليونان في بداية العصر الهللادي الحديث (الميكيني) تحت تأثير حضارة أخرى أقدم منها نشأة ، وهي حضارة كريت المسماة « بالحضارة المينوية »

---

(١) وهي الألواح المكتوبة بخط يسمى بالكتابة الخطية ب (Linear B) ، واكتشف أغلبها (١٢٠٠ لوحا) في بيلوس (Pylos) بإقليم مسينيا غرب البلوبونيز ، وقليل منها في ميكيناي، وتيرينس وإليوسيس وأورخومينوس وطيبة، وكذلك في كريت . وقد سميت كذلك تمييزاً لها عن الألواح المكتوبة بالخطية ا (Linear A) والتي لم تكتشف إلا في كنوسوس بجزيرة كريت. وقد حلت رموز الأولى عام ١٩٥٢ وإن كان هناك خلاف على تفسيرها. وأما الأخرى فلم تفك رموزها بعد،

(٢) راجع ما تقدم في ص ٨ هامش.

نسبةً إلى مينوس (Minos) ، وهو اسم أحد ملوك كريت القدامى أو لقب كان يحمله ملوك هذه الجزيزة كلقب « فرعون » في مصر القديمة [١] .
وكانت حضارة مستقلة ذات طابع خاص ابتدعها أهل كريت الذين كانوا لا ينتمون إلى الأسرة ـ الأوروبية. وكانوا قد وفدوا إلى كريت ـ على ما يرجح ـ من آسيا الصغرى في العصر النيوليثي الذي انتهى في الجزيرة عند حوالى عام ٢٥٠٠ ، واستقروا في الشرق والشمال ، كما وفد في أعقابهم ــ على ما يبدو ـ قوم آخرون من جهة أخرى يظن أنها ليبيا واستوطنوا جنوب الجزيرة. ولما كانت كريت تتمتع بموقع وسطيّ ممتاز يجعلها على اتصال بالشرق والجنوب والشمال . فسرعان ما تلاقت فيها التيارات الحضارية الآتية من هذه الجهات ، وعلى الأخص من الشرق الأدنى ، ونشأت فيها حضارة رائعة . ويقسم علماء

---

(١) عن نشأة مينوس (Minos) تروي الأسطورة التالية: كان أجينور (Agenor) ، ملك مدينة صور، له ابنة تدعى يوروبي (Europê) ـ وهي التي سميت باسمها قارة أوروبا ـ وقد رآها زيوس ذات مرة وهي تتنزه فأغرم بها . ولكي يفوز بها فقد تقمص شكل ثور وديع لطيف ، وأخذ يقفز من حولها قفزات رشيقة وهي تمشي على الساحل الفينيقي . وأخيراً تمكن من إغرائها بالركوب فوق ظهره . وفجأة قفز في البحر حاملاً حبيبته الى كريت. وهناك أنجبت منه ثلاثة أولاد ذكور من خيرة الأبناء وهم مينوس(Minos)وردمانثوس(Rhadamanthus) وساربيدون (Sarpedon) . وقد أصبح الأخير ملكاً على ليكيا (بآسيا الصغرى) ونجده مشاركاً في الحرب الطروادية ضد الإغريق ويلقى مصرعه على يد باتروكلوس ، مع أن هذه الحرب وقعت بعد مولده بزمن طويل . لكن لعله عمر طويلا أو لعل وجوده في القصة هو انعكاس لحقيقة العلاقات التي قامت بين كريت وأقطار آسيا الصغرى . وكان ردمانثوس رجلا مستقيما ولذلك لم ينتقل ـ بعد حياته الدنيا ـ الى هاديس عالم الموتى في أسفل الأرض بل انتقل ـ وفقاً لرواية هوميروس في الأوديسيا ـ إلى الأليزيوم(Elysium)أو إلى « جزر المباركين » ـ وكلاهما مكان في الغرب شبيه بالجنة ـ حيث كان يعيش الأبطال الخالدون والأبرار عيشة كلها نعيم وهناء مقيم ، ولا يذوقون أبداً طعم الموت.لكن في الأساطير التالية نرى ردمانثوس قد نصب ـ بفضل نزاهته ـ قاضياً في عالم الموتى(مع أخيه مينوس وأياكوس Aeacus ، أحد أبطال جزيرة أيجينا). وأما مينوس فقد صار ملكاً على كريت . وليس لاسمه من الناحية اللغوية معنى في اليونانية ، ولعله تحريف يوناني لاسم أو لقب كريتي غير معروف على وجه الدقة .

الآثار زمن هذه الحضارة إلى عصور :العصر المينوي القديم(٢٤٠٠ –٢٠٠٠)،[١] والعصر المينوي الوسيط (٢٠٠٠ – ١٦٠٠/١٥٥٠) ، والعصر المينوي الحديث (١٦٠٠/١٥٥٠ – ١٤٠٠) . وقد ازدهرت هذه الحضارة في فترتين إحداهما تسمى «بفترة الإزدهار الأولى »(قبل ٢٠٠٠ – حوالى ١٧٠٠)التي شيد اثناءها قصر ضخم في كنوسوس (Cnossus) قرب الساحل الشمالي ، وقصر آخر في فايستوس (Phaestus) قرب الساحل الجنوبي . وتحولت القرى إلى مدن فاكتسبت الحضارة طابعـــاً مدنياً ، ونشأت مراكز عمرانية كثيرة في وسط الجزيرة . وتمتعت كريت بالأمن بعد أن قام ملوك كنوسوس – لأول مرة في تاريخ المنطقة – بتطهير البحر من القراصنة . وسادها الرخاء ، وارتقى الفن حتى لتسمى هذه الفترة أحياناً « بعصر كاريس » (١٩٥٠ – ١٧٥٠) نسبةً إلى كاريس (Kamares) ، وهو كهف في جنوب إيدا (Ida) [٢] ، عثرنا فيه على أوان فخارية مزينة بزخارف متعددة الألوان . كذلك عثرنا على أوان كريتية في مصر وفينيقيا وبابل وجنوب بلاد الإغريق ، وعثرنا في كريت على بعض آثار شرقية كالأختام الأسطوانية من بابـــل ، وتحف فنية من مصر . وينهض ذلك دليلاً على قيام علاقات بين كريت وهذه الأقطار .

لكن حوالى عام ١٧٠٠ حلت بكريت كارثة دمرت قصورها ومراكزها العمرانية . ولا ندري ما إذا كانت قد تعرضت لغزو من الخارج أو دهمهـــا زلزال من تلك الزلازل التي كثيراً ما تعرضت لها الجزيرة . وأيّاً كان السبب ، فلم تلبث كريت أن أفاقت من الصدمة بسرعة ، ونهضت من كبوتها ، وأقبلت على « فترة الازدهار الثانية » (١٦٠٠/١٥٥٠ – ١٤٠٠) حيث بلغت حضارتها المينوية أوجها على الأخص في كنوسوس التي أعيد بناء قصرها الفسيح الفاخر ،

---

(١) يرجع بعض علماء الآثار بداية هذا العصر إلى عام ٢٧٠٠ أو ٢٦٠٠

(٢) وهو غير جبل إيدا (Ida) بالقرب من طروادة (في شمال غرب آسيا الصغرى)

وتركزت في يد ملكها « مينوس » الزعامة على معظم أمراء المدن الكريتية الأخرى . وبلــغ الفن المينوي ذروته وهو فن يستمد عناصره الأساسية من الطبيعة ، وعلى الأخص فن الإفرسك (fresco) أو فن الرسوم الجدرانية الزاهية الألوان ، مستوى رفيعاً مثيراً للدهشة . واحتلت المرأة الكريتية مكانة مرموقة في المجتمع ، وكان لها دور كبير في مجال الدين الذي كان مرتبطــاً بالطبيعة كل الارتباط ، وامتلأت حياة « الجزيرة السعيدة » بالبهجة ، وألوان التسلية والترف ، والأناقة والجمال . واتسع نطاق علاقاتها مع أقطـار الشرق الأدنى . لكن علاقتها ببلاد الاغريق كانت ذات أهمية بالغة من الناحية التاريخية . وقد توثقت هذه العلاقة وبلغت ذروتها في غضون القرن السادس عشر (١٥٥٠ــ١٥٠٠) . ولا مراء في أن بلاد الاغريق وقعت تحت تأثير الحضارة المينوية ولا سيا في مجالات الفن والدين والحرف الصناعية وطريقة الكتابة . لكن هــذا لا يعني بالضرورة – كما يعتقد بعض الباحثين – أن كنوسوس قد احتلت بعض أجزاء من شبه الجزيرة الإغريقية أو فرضت عليها سيطرتها السياسية – كما توحي بذلك أسطورة « ثيسيوس والمينوتاوروس »[1] ، ولا يعني أيضاً أن تأثير هــذه

---

(١) ثيسيوس (Theseus)، بطل أتيكا الأسطوي ، هو ابن آيجيوس (Aegeus) أحد ملوك أثينا القدامى . نشأ في مدينة تروزين ، إحدى مدن أرجوليس. وفي رواية أخرى أنه كان ابن بوسيدون ، إله البحر . ولعل هذا معناه أن آيجيوس كان في الاصل إلهاً ثم صور كملــك من البشر . وعندما بلغ ثيسيوس أشده أنجز عدة أعمال خارقة ، إذ رفع صخرة ضخمة وجدتحتها سيف أبيه ونعليه . فامتشق السيف ولبس النعلين ، واتجه إلى أثينا عن طريق البر ، وهو طريق خطر ، حيث اعترضه بعض قطاع الطرق ، ولكنه تغلب عليهم جميعاً . وفي أثينا فــرح أبوه بلقائه بعد طول الفراق ، وجعله وريثاً بعد أن أثبت شجاعته مرة أخرى بقتل«ثور مراثون ».

وجاء في الأسطورة ، أو الحكاية الشعبية ، أن مينوس (راجــع ص ٨٩ هامش ١) : بعد أن صار ملكاً على كريت ، بدأ أعماله بأن أراد أن يثبت تلبية الآلهة لكل دعواتــة ، ومن ثم رضاءهم عنه ، وجدارته بالحكم . فدعا الإله بوسيدون أن يبعث إليه من البحر ثوراً ، واعــداً بذبحه قرباناً . وعندما جاء الثور استجابة لدعائه، وجد مينوس أنه حيوان عظيم فخم الصورة =

العلاقة قد تجاوز الجوانب المادية . لقد اقتبس الأخيون (الإغريق) من جيرانهم المينويين أشياء كثيرة ومن بينها وسائل الترف والرفاهية والتأنق وطريقة الكتابة .

= يسر الناظرين، ومن ثم أشفق من ذبحه وآثر أن يحتفظ به لينتج له سلالة من الثيران على شاكلته . ونحر حيواناً آخر عادياً . لكن بوسيدون أصاب الثور بالهياج أو الجنون . وزاد الطين بلة أن باسيفائي (Pasiphaé) ، زوجة الملك مينوس ، تولدت في نفسها رغبة شاذة نحو هذا الثور .

وتصادف في تلك الأثناء وجود ديدالوس (Daedalus) في كنوسوس وكان صانعاً ماهراً جداً برع في النحت والعمارة . لكنه حقد ـ عندما كان لا يزال في أثينا ـ على أحد تلاميذه ، وهو ابن أخيه في الوقت ذاته ، حقداً شديداً لأن التلميذ أظهر من المهارة ما كاد يفوق به أستاذه ، لذلك قتله ديدالوس ، مرتكباً إثماً كبيراً ، وهو قتل المحارم . وقبل المحاكمة هرب ديدالوس إلى كريت حيث رحب به مينوس لإعجابه بمواهبه الفنية . وقد رأت باسيفائي فرصتها سانحة لإشباع نزوتها الشاذة فأقنعت ديدالوس بمساعدتها . فصنع لها تمثال بقرة في حجم البقرة الطبيعية ، ويكاد ينبض بالحياة . ثم أخفى الملكة فيه . وبذلك تمكنت من مجامعة الثور ، وأنجبت منه وحشاً رهيباً ، عجيب الشكل ، نصفه انسان ونصفه الآخر ثور . ومن ثم فقد عرف باسم مينوتاووروس (Minotaurus) أي « مينوس متجسداً أو متقمصاً شكل الثور » . ونظراً لخطورة هذا المولود العجيب فقد التجأ الملك إلى ديدالوس مناشداً إياه أن يشيد بناء يخفي فيه هذا الثور . فبنى له قصراً عرف بقصر اللابيرنث (Labyrinthos) ، وهو « قصر التيه » الذي سمي كذلك لكثرة حجراته وتداخل ردهاته والتواء ممراته حتى ليتعذر على المرء بعد دخوله أن يخرج منه ، فيضل طريقه ويتوه .

وكان مينوس قد فرض على الأثينيين جزية سنوية قدرها سبعة فتية وسبع فتيات . ولعل ذلك يرمز إلى مبلغ ما وصلت اليه كنوسوس من قوة وسلطان في ذلك الحين . لكن هناك حكاية شعبية تقول إن مينوس لم يفرض هذا الشرط القاسي إلا انتقاماً من الأثينيين الذين قتلوا ابنه أندروجيوس (Androgeos) . فقد حدث أن ذهب أندروجيوس إلى أثينا للاشتراك في حفلات عيد الباناثينيا (Panathenaea) وتبارى مع بعض الأثينيين وفاز عليهم في مختلف الألعاب . وحقد عليه آيجيوس ، ملك أثينا ، وقتله . وأياً كان السبب فإن مينوس كان يحبس الرهائن الأثينيين من بنين وبنات في قصر اللابيرنث (قصر التيه) ليموتوا جوعاً أو ليفتك بهم الوحش الرهيب مينوتاووروس . وكان الهلاك دائماً مصيرهم لأنه لم يكن هناك سبيل إلى الخروج من قصر كالذي وصفناه .

كان البطل ثيسيوس ـ على نحو ما ذكرنا ـ قد عاد إلى أثينا فأبتاء من هذا الوضع المهين وقرر =

لكن الحضارة المينوية، برغم كنوزها الثمينة، لم تقهر نفوس الإغريق أو بالأحرى لم تغيّر من روح الحضارة الميكينية تغيراً يذكر . ولم تلبث كريت أن وقعت

= أن يضع له حداً . فتطوع ذات مرة ليكون واحداً من بين الرهائن المرسلة الى كريت . ولما نزل بالجزيرة التقى بالأميرة الجميلة أريادني (Ariadnê) ، إبنة الملك مينوس ، التي أعجبت بوسامته وبسالته ووقعت في حبه . فأعطته سيفاً ليقتل به الثور، وخيطاً ليسترشد به عندخروجه من قصر التيه . وأنجز ثيسيوس مهمته بنجاح ، وقتل الوحش ، وأنقذ زمـلاءه من براثنه ، وخرجوا جميعاً سالمين . ثم هرب مع أريادني وركب البحر . وما إن بلغ جزيرة ناكسوس حتى كان قد تنكر لأريادني أو نسي حبها فهجرها هناك . وقد التقى بها - فيما بعـد - ديونيسوس ، إله النبيذ ، واقترن بها . وتابع ثيسيوس رحلة العودة إلى وطنه . وعندما اقترب من ساحـل أتيكا نسي - مرة أخرى - أن ينشر الشراع الأبيض فوق مركبه (كما اتفق مع أبيه أيجيوس قبل رحيله كعلامة على عودته سالماً من رحلته الخطرة). وكان أبوه ينتظره على الساحل في قلق. فلما شاهد الشراع الأسود منشوراً حسب أن ابنه قد هلك فألقى بنفسه في البحر حزنـاً عليه . ومن هنا جاءت تسمية هذا البحر « بالبحر الإيجي » . واعتلى ثيسيوس عرش أثينا بعد أبيه ، واليه ينسب توحيد أتيكا السياسي (synoikismos) ، كما تنسب إليه أعمال أسطورية أخرى .

وبقي الآن أن تعرف أن قصر اللابيرنث (Labyrinthos) - الذي أصبح يرمز الى أي مبنى معقد - يشتق اسمه - على ما يرجح - من كلمة لابرو (labru) ، وهي كلمة ليدية الأصل (أي من ليديا بآسيا الصغرى) ، معناها « البلطة ذات الرأسين »، وأن لابيرنثوس معناها مكان أو « قصر البلطة المزدوجة » . ولقد عثر علماء الآثار في قصر كنوسوس على صورة لوحش رأسه في شكل الثور ، مرسومة على الجدران . ولا ندري أترمز إلى أرواح أو قوى خارقـة معينة (daimones) كالتي كان يؤمن بها الكريتيون أم هي أقنعة كان يلبسها الكهنة عنـد تأدية الطقوس الدينية إذ كان مينوس نفسه حاكماً مؤلهاً وكاهناً أعلى ، بل كان - كما يقول هوميروس - رفيقاً لزيوس نفسه . وكان حكمه يتجدد كل تسع سنوات وفقاً لطقوس معينة . ولا مراء في أن البلطة ذات الرأسين - التي وجدت أيضاً مرسومة على جدران قصر كنوسوس كـانت هي الأخرى ترمز (كأداة في ذبح القرابين المقدسة) إلى روح إله معين أو إلهة هو يعتقد أنها «ربة الارض» أو «الأرض الأم» التي كانت عبادتها منقولة عن إقليم ليديا وغيره من أقاليم آسيا الصغرى.

وأما عن ديدالوس فقد أراد أن يرحل عن كريت . لكن مينوس حاول منعه إما لرغبته في الاحتفاظ به والانتفاع بمواهبه الفنية أو لرغبته في معاقبته وسجنه لانه كان ضالعاً مع باسيفائي عندما ساعدها على إشباع غريزتها البهيمية. لذلك احتجزه هو وابنه إيكاروس(Icarus). =

في يد الميكينيين الذين هاجموا الجزيرة حوالى عام ١٤٠٠ ، واحتلوا كنوسوس ، وهدموا قصرها وغيره من القصور بعد حوالي نصف قرن فانطفأ بريق الحضارة المينوية منذ ذلك الحين وورثت ميكيناي مركز كريت في البحر الايجي بل في عالم المتوسط (١٤٠٠ — ١٢٠٠) .

لكن إذا كانت كريت قد أثرت تأثيراً قوياً في حضارة بلاد اليونان في فترة أثناء الألف الثاني قبل الميلاد ، فإن هذه الجزيرة نفسها لم تقم بأي دور هام في سياسة أو حضارة بلاد اليونان خلال العصور التالية سواء في العصر الهلليني (الكلاسيكي) ، وهو عصر ازدهار « دولة المدينة » اليونانية ، أو في العصر الهللينستي (الهلليني المتأخر) عندما احتلت رودس وديلوس مركزاً كان المرء يعتقد أن كريت أولى منهما به . ولعل أرجح تفسير لهذا التطور الغريب هو عامل الجنس . فمنذ مجيء الفوج الثاني الكبير من القبائل اليونانية ، وهو ما يعرف بالهجرة أو « الغزو الدُوري » ، تحولت كريت إلى جزيرة دُورية ، وبعدئذ سادتها حالة من الركود ولم تسهم بأي نشاط حضاري خلال القرون الكثيرة التالية . ومع هذا فقد كان بفضل الدوريين أنفسهم أن أصبحت كورنثة مركزاً من مراكز التجارة . وتحولت اسبرطة إلى دولة عسكرية تتمتع بأقوى نفوذ سياسي في بلاد اليونان ، كما تأسست في جنوب إيطاليا

= وبرغم إحكام الرقابة وسد جميع منافذ الهرب ، فإن ديدالوس لم يعدم حيلة للفرار ، إذ صنع أجنحة من الريش وثبتها بالشمع في جسمه وجسم ابنه ، وطار الإثنان هاربين من كريت . غير أن إيكاروس ، استخفه الطيران ، فحلق عالياً جداً حتى اقترب من الشمس فذاب الشمع من شدة الحرارة ، وتساقط جناحاه ، وسقط المسكين في البحر ومات غريقاً . لذلك عرفت هذه الناحية من البحر باسم « بحر إيكاروس » ، تخليداً لذكراه . وأما ديدالوس فشق طريقه عبر الفضاء وهبط سالماً في صقلية حيث لاذ بحمى ملك الجزيرة الذي أمنه على حياته . وتعقبه مينوس وجاء مطالباً بتسليمه . وراوغه الملك . وتظاهرت بناته بمساعدة الضيف الملكي عند اغتساله (وهو ما يرمز عند هوميروس إلى أقصى مظاهر تكريم الضيف) . وفي الحمام صبت عليه البنات ماء مغلياً فقضى نحبه . (وفي رأي البعض أن هذه الحادثة ربما ترمز لحملة قامت بها كريت ضد صقلية ، وانتهت بالفشل الذريع أو بكارثة كبيرة) .

وصقلية بعض مستعمرات على أكبر جانب من الرخاء والبذخ . وعلى ذلك فلن يستطيع أحد أن يعتبر الأصل الجنسي وحده عاملاً حاسماً ، وإن لم ينكر ارتباطه بالتطور الحضاري .

وقد حمل الفوج الأول من المهاجرين اليونان ، وهم الأخيون ، من البحر الايجي بحراً يونانياً إذ شرعوا بعد قرون قليلة من استقرارهم – يعتبرهـــا الباحثون حلقة مفقودة من سلسلة التطور – في بناء حضارة بدأت في الازدهار منذ عام ١٥٥٠ وتابعت هذا الازدهار حتى عام ١١٥٠ ، وهو ما يعرف «بالعصر الهللادي الحديث» أو «العصر الميكيني». وقد انعقد أثناءها لواء الزعامة لمدينة ميكيني (Mycênê) أو (Mycenae) الــتي تقع في سهل أرجوليس بالبلوبونيز[1]، إذ استطاعت هذه المدينة أن تبني قوة سياسية واقتصادية وتفرض سيطرتها علي جانب كبير من منطقة البحر الايجي . وقامت بالتعاون مع المدن الأخيّة الأخرى بالحملة الشهيرة على طروادة حوالي عام ١٢٠٠ . وأخيراً جاء الدوريون الذين أطاحوا بالأمراء الأخيين ودمروا قصور ميكيناي وتيرينس (Tiryns) وميديا (Midea) وقلبوا الأوضاع السياسية في بلاد اليونان رأساً على عقب .

الغزو الدوري : اللهجات «والهجرات اليونانية» :

هذا الفوج الثاني من القبائل اليونانيـــة ، وهو ما يعرف بالهجرة أو الغزو الدُوري، جاء إلى بلاد اليونان حوالي ١١٥٠، أي عند نهاية عصر البرونز وبداية عصر الحديد (١١٠٠). وقد اتضح الآن أن المهاجرين الجدد لم يكونوا أول من أحضر الحديد، لأن هذا المعدن كان مستعملاً قبل قدومهم على نطاق محدود في صناعة بعض الحلى في عصر البرونز. ويحدثنا المؤرخ الأثيني الكبير ثوكيديديس

(١) الاسم في اليونانية Mukéné أو صيغة الجمع Mukénai. وتمثل الـ K بحرف C في اللاتينية (راجع ص ٢٦ هـ ١) . وينطق - للأسف - سينا في اللغات الأوربية الحديثة. كذلك تمثل الـ u بحرف الـ y في اللغات الأخرى. وتنطق نطقاً بين الياء والواو: ميكيني أو موكيني (قارن في العربية بيزنطة أو بوزنطة ، لكن يقال دائماً سوريا (Syria) .

الذي عاش في القرن الخامس أنه في السنة الثمانين من بعد الحرب الطروادية غزا الدُوريون بقيادة أبناء هيراكليس (Heraclidae) منطقة البلوبونيز . وتعرف هذه الحادثة في الأساطير اليونانية باسم « عودة أبناء هيراكليس » الذين جاءوا من الشمال والشمال الغربي إلى بلاد اليونان لاسترداد إرثهم القديم وهي تتفق وفترة الانتقال بين عصر البرونز وعصر الحديد . على أن الغزو الدُوري وإن صحبه انقلاب في أحوال اليونان السياسية والإطاحة بمراكز الحضارة الميكينية لم يحدث أي توقف فُجائي في التطور الحضاري فظلت الحياة في جوهرها على ما كانت عليه ، وأن اصبحت أكثر بساطة وأقل مستوى عن ذي قبل .

وعندما استقرت الأحوال بعد الاضطراب المباشر الذي نجم عن الهجرة الدُورية التي استغرقت بضع عشرات من السنين حدث ذلك التوزيع الغريب للقبائل واللهجات اليونانية (الأيولية والدُورية والأيونية) . وهذا التوزيع – بجانب الآثار – هو أساس معرفتنا بتاريخ بلاد اليونان خلال عصرها الذي درج البعض على تسميته «بالعصر اليوناني المظلم» أو «العصر اليوناني الوسيط» (١١٥٠ – ٧٥٠) . ولعله مظلم بالنسبة لنا فقط لأن الحفائر الأثرية لم تمدنا إلا بمعلومات غير وفيرة ومعظمها عن أثينا [١] . لكن حسب هذا العصر أن هوميروس ، الذي يرجح أنه عاش في القرن التاسع او الثامن ، كان نجمه الساطع الذي بدد ظلمته بملحمتيه الخالدتين ، الإلياذة والأوديسيا . ومن المستحيل أن نفسر على أساس الظروف الجغرافية وحدها كيف استعمل سكان تساليا وبويوتيا – على سبيل المثال – اللهجة الأيولية التي تتفرع أصلاً من الآخيّة ، ولا يتبين فيها سوى أثر ضئيل للهجة الدُورية ، بينما استعملت عدة أقاليم تقع بينهما اللهجة الدُورية دون سواها . وقد انتشرت اللهجة الأخيرة في مجارا والبلوبونيز ، بينما احتفظت أتيكا على الرغم من وقوعها بين بويوتيا ومجارا ، بلهجتها الأيونية الخالصة إلى درجة أن أثينا كانت تعتبر بمثابة المدينة – الأم (Metropolis) لكل الأيونيين ، وكان الأثينيون يعتقدون اعتقاداً راسخاً أنهم أصلاء في أرضهم

(١) وإن كانت هذه المعلومات قد ازدادت في السنوات الأخيرة بفضل أعمال الحفر المستمرة.

(autochthonoi)[1] . وفي بعض الأحيان كانت الحدود الطبيعية تطابق الحدود اللغوية . لكن أهم من ذلك هو أن التنوع العام في مظهر العالم اليوناني كان إلى حد ما يرجع إلى التباين في الأصول الجنسية . فكأن اختلاف اللهجات كان إلى جانب الاستقلال السياسي لكل دولة من دول المدن الكثيرة حائلاً دون إدماج بلاد اليونان كلها في وحدة شاملة .

وينبغي أن نضيف أنه حدث خلال ذلك العصر أن نشطت حركة الهجرات من بلاد اليونان نشاطاً كبيراً كما زاد عددها عن ذي قبل إما بسبب ضغط غزاة جدد أو بسبب ازدحام السكان . وقد استقر الإغريق الذين هاجروا من ثساليا وبويوتيا ويسمون بالنسبة إلى لهجتهم « بالأيوليين » ، استقروا بجزيرة ليسبوس الكبيرة والأراضي التي تقع في شمال ساحل آسيا الصغرى الغربي المواجه لها ، وقد عرفت هذه المنطقة باسم أيوليس (Aeolis) . ومن وسط بلاد اليونان وبخاصة من أتيكا هاجر فريق من الإغريق إلى جزر الكيكلاديس بالبحر الايجي ومنها إلى وسط ساحل آسيا الصغرى الغربي ، الذي عرف فيما بعد باسم أيونيا (Ionia) . وقد أسس هؤلاء المهاجرون مدناً صغيرة مكان القرى التي وجدوها . وكان المستعمرون الجدد خليطاً غريباً وزاد في عدم تجانسهم امتزاجهم بالسكان الأصليين . ولعل ذلك العامل إلى جانب جمال الجو الذي يعتبره هيرودوت أفضل أجواء العالم ، وكذلك التربة الخصبة وملاءمة الساحل للتجارة وموقعه بين الشرق والغرب ، هو الذي جعل « الأيونيين » أكثر الإغريق ذكاءً وحذقاً لفنون شتى ، حتى ليبدو أنهم تقدموا غيرهم في موكب الحضارة اليونانية . وأخيراً نزح من أرجوليس ولاكونيا مهاجرون بعضهم من الأخيين وبعضهم الآخر من الدوريين إلى مدن ميلوس وثيرا وكريت . وقد توسعت حركة الهجرة الدورية إلى ما وراء كريت فبلغت كرباثوس ورودس ، وأخيراً بلغت جنوب ساحل آسيا الصغرى

---

(١) وهو اعتقاد باطل كما يتضح مما ذكرناه عن السكان القدامى في شبه الجزيرة قبل مجيء الأخيين .

الغربي الذي عرف باسم دوريس (Doris) . ومعنى هذا أن « الدُوريين» انتشروا من بلاد اليونان الأصلية عبر البحر الإيجي إلى نقطة تواجه نقطة بداية هجراتهم ، وكان الأيوليون والأيونيون – كما ذكرنا – قد فعلوا نفس الشيء .

وفي خلال الفترة التي هاجر فيها اليونان إلى داخل شبه الجزيرة ، كانت القبيلة هي العامل الأساسي في التنظيم السياسي . ولما كانت دول المدن قد نبعت من القبائل فإن أقسام القبيلة أصبحت هي أقسام « دولة المدينة ». ويرجع أصل القبائل (phylae) والبطون (phratriae) ، التي انقسمت إليها كل دولة مدينة يونانية ، إلى فترة الهجرة عندما كانت الحياة تخضع لأحكام النظام العسكري والقانون الأسرى . ومن ثم لم يكن للقبائل أو البطون صلة بعملية الاستقرار أو بأراضي دولة المدينة الجديدة . لقد كان من الضروري أن يستقر الناس وتتوطد دعائم دولة المدينة أولاً قبل أن يظهر أي تقسيم محلي أو إقليمي يكسب قانون الأراضي أو الملكية قوته الكاملة . غير أن التغيرات التي طرأت على البناء الاجتماعي عقدت من صورة هذا التقسيم . فمنذ وقت مبكر يرجع إلى فترة الهجرة انفصلت طبقة من الأشراف (Eupatridae) عن الجماعة كلها وابتدعت لنفسها شكلاً جديداً من الحياة المشتركة التي تقوم على أساس الزمالة أو الإخاء (hetaireia) ، الزمالة في ميدان القتال والإخاء المتين . وقد عارضت هذه الطبقة المتضامنة منذ البداية أي تنظيم شامل للمجتمع ، سياسياً كان أم إقليمياً. ومن هذا المجتمع الأرستقراطي ، الذي تشيع صورته في ملاحم هوميروس ، نشأت العشيرة (genos) نتيجة لاكتساب القانون الأُسَري قوة بين الجماعة المستقرة في دولة مطردة النمو . وكانت العشيرة ، وهي مجموعة الأفراد الذين ينحدرون أو يعتقدون أنهم ينحدرون من جد واحد ويشتركون في عبادة واحدة ، هي الشكل التي دخلت به الأرستقراطية دولة المدينة وأصبحت جزءاً منها لا يتجزأ . وكان لها مركز محلي ، وهو مقر زعيم العشيرة . وبذلك تضافرت لأول مرة عناصر الرابطة العشائرية والرابطة المكانية واطرد نموها معاً . ومن

طبقة العشائر الشريفة نشأ البناء السياسي والاجتماعي الجديد، وهي «دولة المدينة» التي سارت بمرور الزمن في اتجاه مضاد لتلك الطبقة، حتى أصبح جميع المواطنين بمثابة شركاء أو زملاء .

وترتب على الاستقرار ارتباط قوي بين الفرد والأرض . وقد تم ذلك بين الإغريق كما تم بين غيرهم من شعوب العصور القديمة التي فتحت أو استعمرت أراضي جديدة ، بتقسيم المنطقة إلى أنصبة أو حصص متساوية (kléroi) بقدر المستطاع . وكانت الملكية الخاصة للأرض ، وإن لم يصحبها أول الأمر حق التصرف فيها ، هي الأساس الذي ارتكز عليه بناء دولة المدينة اليونانية . وحتى في المناطق التي لم يطبق فيها مبدأ توزيع الأرض بين المواطنين على الفور تطبيقاً كاملاً ، انقضت مرحلة الملكية الجماعية في وقت مبكر . وسرعان ما عملت النزعة الفردية عند اليونان، وهي نزعة كان يقويها التكوين الطبيعي لبلادهم وصفاتهم القومية ، على إقصاء القبيلة والعشيرة عن ملكية الأرض ، سواء أكان السكان يعيشون في القرى المتناثرة أم حول المركز المدني للدولة .

وكان الملوك والآلهة من بين الملاك الذين منحوا منذ البداية نصيباً كبيراً من الأرض . وكان هؤلاء الآلهة قد هاجروا إلى مواطنهم الجديدة مع الأخيين ، كل مع القبيلة أو البطن التي ينتمي إليها من قديم الزمن . وقد جاء هؤلاء الآلهة الأجانب المرتبطون بالسماء ليأخذوا مكانهم بجانب الآلهة الوطنيين الذين كانوا كآلهة للزراعة ، مرتبطين بالأرض (chthonioi) ارتباطاً وثيقاً بوصفها «الأم الكبرى» التي تخرج من بطنها كل الثمرات . وكان من أبرز العوامل التي شكلت ديانة دولة المدينة اليونانية أن آلهتها القدامى والجدد أدمجوا بالمصاهرة أو اختلاق النسب في مجمع واحد (pantheon) على الرغم من اختلاف خصائصهم . وتفسير هذا الدمج إما على أساس أن هوميروس يجمع في ملحمتيه بين متناقضات زمنية فيما يتصل بالمسائل الروحية شأنه في الجمع بين متناقضات زمنية فيما يتصل

بالأشياء المـــادية ، أو على أساس أن الرواية المتواترة التي التزمها جماعته أصلا متناقضة تجمع بين عناصر متباينة وتتفق مع الأنساب الأسرية المختلفة الممثلة في شخصيات الإلياذة والأوديسيا .

ولم يتم هذا التطور ببساطة أو دفعة واحدة. وحسبنا أن نشير إلى ظاهرتين فيه تسترعيان النظر ، إحداهما انتشار عبادة آلهة المهاجرين – وهم من عرفوا بعد استقرار الأغريق بآلهة أوليمبوس(Olympioi) – في بعض أماكن معينة ، وتشبيههم بآلهة البلاد القدامى ، مكتسبين بذلك ألقابا كانت تميزهم في مكان عنهم في مكان آخر ، فكان زيوس (Zeus) في بلدة معينة يتميز عن زيوس في بلدة أخرى ، وأبوللون (Apollon) في مكان يتميز عن أبوللون في مكان آخر . وأما الظاهرة الأخرى فهي أن الآلهة لا يبدون متحررين من الارتباط بالأرض إلا في الجماعـــة الإلهية المسيطرة التي يتصورهـا هوميروس مقيمة فوق جبل أوليمبوس (Olympus) حيث يظهر أعضاؤها بأشخاصهم العظيمة المنطلقة ، التي عاشت في علم الأساطير وفي الفن وشكلت طابع الديانة اليونانية. وقد اتحد هذان المظهران بعد اندماج العناصر العديدة غير المتجانسة – التي نشأت منها الجماعة – في وحدة دولة المدينة .

التنوع والوحدة :

ويتضح من استعراض المظاهر التاريخية المتصلة بنشأة دولة المدينة اليونانية أن تأثير البيئة الجغرافية كان يوازيه – إلى حـــد ما – تأثير عوامل أخرى . غير أن مـــا يسترعي النظر حقاً هو أن الظاهرتين الأساسيتين والمتناقضتين في جغرافية بلاد اليونان ينعكس أثرهما على التطور التاريخي نفسه . وبغض النظر عن تأثير البيئة الجغرافية ، فإن التنوع والوحدة قـد شكّلا كل شيء تقريباً . وهـــذا هو السبب فيما نلحظه من ازدواج سواء في الصورة العامـة للتفكير اليوناني أو في اتجاه مجرى التاريخ اليوناني . وتتمثل هذه

الثنائية تمثيلاً جلياً في الحقبتين الكبيرتين لهـذا التاريخ : عصر دولة المدينة ، والعصر الهلينستي . غير أن الظاهرة نفسها يمكن أن نلحظها في كل حقبة من هاتين الحقبتين ، بل في كل فرع من فروع الحياة والتفكير اليوناني .

ولم يكن مركز اسبرطة الفريد في العالم اليوناني يرجع - كما يذهب البعض - إلى أن الإسبرطيين (وهم دُوريون) قد وفدوا أصلاً إلى موطنهم كغزاة ، وإنما يرجع إلى تلك العلاقة الفريدة بين دول المدينة وأراضيها. فدول المدن اليونانية التي لم تعبر البحر أبداً لإنشاء مستعمرات في الخارج كانت قليلة بوجه عام. غير أن ذلك كان في اسبرطة مبدأ أساسياً في سياستها العامة. ولم يدفع اسبرطة إلى ركوب البحر إلا طموح قليل من كبار قادتها ، ولكنها سرعان ما كانت تعدل عن هذا الاتجاه وتعود إلى عزلتها. لقد حاولت اسبرطة (Sparta) أن تقهر ضيق حيزها في البر . وكانت هي دولة المدينة الوحيدة التي انتهجت متعمدة سياسة إقليمية بحتة ، وهي سياسة كانت في الوقائع فوق طاقتها . وبينما أفضى صغر المساحة في غيرها من دول المدن إلى تضخم السكان واشتداد نبض الحياة وأخيراً إلى التوسع عبر البحر ، كانت أراضي اسبرطة المتسعة بالقياس إلى غيرها تتحكم فيها فئة قليلة من المواطنين تهددها طوال الوقت جموع كبيرة من أشباه العبيد وأنصاف المواطنين . وهذا يفسر على الأقل تفسيراً جزئياً لماذا اتبعت اسبرطة ، على الرغم من الروح العسكرية التي تفشت فيها ، سياسة خارجية سلمية منذ حوالي منتصف القرن السادس . ففي ذلك الوقت كانت دولة المدينة قد بلغت في نطاق حدودها المتسعة مرحلة التشبع . غير أن اتساع رقعة أراضيها لم يؤثر أي تأثير جوهري في طبيعة مواطنيها الحكام وهم الإسبرطيّون (Spartiatai) الذين انطووا على أنفسهم وأحكموا إغلاق دائرة طبقتهم . وبينما كانت الحشود الغفيرة المستعبدة من الهيلوتيس (heilotes) تفلح الأرض

وتسام سوء العذاب [١]، تولد في اسبرطة نفسها شكل جديد من الحياة المغلقة المركزة ، قوامه نظام التربية العسكرية الشامل (agôge) الذي حطم في النهاية الإسبرطيين عدديا ومعنويا .

وأياً كان أصل هذا النظام الآلي الجامد الذي انصقل فيما بعد على يد ساسة أقوياء الإرادة ، فقد أتيحت لاسبرطة ، بعد توسعها الإقليمي ، فرصة ثانيــة عندما أخفقت محاولة أثينا في بسط سيادتها عبر البحار [٢] . وقــد يستطيع النظام السياسي الصارم أن يسترد القوى الـتي تحطمت بتأثير ضيق المساحة . ولذا نرى المفكرين السياسيين يتخذون من النظام الإسبرطي نموذجاً ويحولونه إلى مثل أعلى ينبغي الاقتداء به . وقد برزت في نظرياتهم حينئذ فكرة جديدة وهي أن الدولة المثالية يجب أن تكون بعيدة عن البحر . « فلعل من الملائم أن يكون البحر على مقربة من الإنسان في حياتــه اليومية . غير أن البحر ، في حقيقة الأمر ، جـــار ملح أجاج ، مر المذاق » . بهذه الكلمات المقتبسة من الشاعر الإسبرطي ألكمان (Alcman) يحذر أفلاطون — في الصورة الواقعية نسبياً التي رسمهـــا للدولة المثالية في كتاب « القوانين » — مؤسسي أي دولة جديدة من البحر . وكان البحر قـــد ائتلف مع الأرض في خلق دولة المدينة اليونانية ، بتنوعها وضيق حيزها . فكأن أفلاطون ، باستبعاده البحر ، يحاول أن يعود إلى ضيق الحيز الذي كان مظهراً جوهرياً من مظاهر دولة المدينـــة الحقيقية . غير أنــه يستبعد بذلك مظهرها الجوهري الآخر ألا وهو التنوع ؛ ومع هذا فليس من المؤكد أن استبعاد التنوع من أجل وحدة مثالية كان

(١) الهيلوتيس (Heilotes) هم أشباه العبيد من الأخيين القدامى (قبل الدوريين) وسكان إقليم مسينيا (غربي لاكونيا) الذين أخضعتهم اسبرطة بالقوة .

(٢) الإشارة هنا إلى زعامة اسبرطة للعالم اليوناني في مستهل القرن الرابع بعد انتصارها على أثينا في الحروب البلوبونيزية عام ٤٠٤ ق.م. وقد استمرت هذه الزعامة حتى عام ٣٧١ ق.م. عندما انهزمت في معركة ليوكترا على يد إبامينونداس قائد طيبة .

يناقض الواقع إلى الحد الذي يبدو لأول وهلة . لقد كان أفلاطون نفسه كأرسطو مواطن (politês) إحدى دول المـــدن (polis) غير أن نظرتيهما أو بالأحرى نظرتهما كانت أبعد من حدود مدينتهما وأعمق من مجرد الإلمام بتنوع دول المدن اليونانية . لقد اكتشف أفلاطون ببديهته ، مثلمـــا اكتشف أرسطو الذي درس عدداً كبيراً من دساتير الدول اليونانية ، بمنهجه التجريبي ، الحقيقة الخالصة ، وهي أن الوحدة تكمن وراء التنوع [1] .

لقد نتجت كثرة الأقاليم اليونانية وكثرة دول المـدن اليونانية عن طبيعة الأرض وطبيعة سكانهـا ، ومن ثم تعددت أشكال الجماعات السياسية وتباينت صور الحكم تبايناً شديداً . وإننا لنجد بين الجماعة القبلية المفككة التي تعيش في القرى والمدينة الكبيرة المترابطة الرقعة ، وبين دولة المدينة الزراعية البحتة ودولة المدينة التي لا تشتغل إلا بالتجارة ، وبـــين حكم طبقة ملاك الأراضي الأشراف وسيادة دهماء المدينة ، نجد اشكالاً أخرى من الحكم تتراوح بـــين هذه المتناقضات في أماكن مختلفة وأوقـــات مختلفة . فإذا تأملنا صفحة بلاد اليونان نرى صوراً متنوعة لا حصر لها . وكان هذا التنوع الشديد سبباً في تلك الحيوية المدهشة التي فاضت بها حضارة اليونان الفريدة ، كما كان سبباً في مأساة تاريخهم الذي جرى إلى نهايته المحزنة بسرعه مذهلة . ومع هذا ، فوراء هذا التنوع كانت تكمن دائمـاً وحدة الحياة اليونانية ووحدة الإنسان اليوناني . لقد كان اليوناني بسليقته وتقاليده وتاريخه « حيواناً سياسياً » قبل أي شيء آخر ، وقد نبتت الوحدة التي نتحدث عنها من الجماعة السياسية . وإذ كانت الدولة هي إطار تلك الوحدة ، فقد كانت نفسها مظهراً من مظاهر الوحدة . ومن يبحث بإمعان بين مختلف النظم السياسية اليونانية يجد أن الـ « Polis » هي الدولة اليونانية . وفي وسعنا أن نقول إن جميع دول المدن اليونانية مع تميزها واستقلالها الواحدة عن الأخرى لم تكن سوى صوراً مختلفـــة من الـ « Polis » .

---

(١) أفلاطون (حوالي ٤٢٩ - ٣٤٧). أرسطو المعروف بأرسططاليس (٣٨٤ - ٣٢٢).

وبقي أن نبحث عن جوهر وحدة هذه الـ « Polis » . إننا لن نجد من الفلاسفة عوناً في هذا الصدد ، وعلينا أن نسترشد بأدلاء غيرهم لكي نكشف ذلك الجوهر، لأنه لم يكن شيئاً مثالياً بل شيئاً واقعياً شكلته الحياة والتاريخ . فقد اتخذ المفكرون السياسيون من اسبرطة التي تجمع بين النظم البدائية والمفتعلة ، نموذجاً واعتبروها الصورة الكاملة « لدولة المدينة » عندما رأوا أن أثينا الديمقراطية قد تدهورت وأوشكت على الانهيار (١) . غير أن أثينا في الحقيقة هي التي اقتربت من صورة الكمال قرباً شديداً ، ففيها بلغ الفن والفكر ذروته لأن فيها اقترب الفرد والدولة من الهدف الذي رسمه القدر ، وهما مرتبطان ارتباطاً أقوى منه في أي مكان آخر .

تلك إذن هي صورة « دولة المدينة » بخصائصها الجوهرية: جماعة حرة مستقلة مكتفية بذاتها ، معتمدة على نفسها ، تتركز مكانياً حول المدينة وروحياً حول إله المدينة ، فهي وحدة في حيز صغير . وتكاد هذه الصورة تكون نسخة من صور العالم الإيجي عندما نتمثله أساساً جغرافياً للحياة اليونانية والتاريخ اليوناني . فالمنطقة الإيجية أيضاً يمكن أن توصف بأنها منطقة حرة مستقلة مكتفية بذاتها معتمدة على نفسها في وجه شعوب أجنبية تعيش حول البحر ، فهي وحدة في حيز صغير . وكانت دولة المدينة اليونانية بوجه عام تزداد حيوية وأهمية كلما ازداد ارتباطها بالبحر الإيجي . غير أن الأمر لم يقتصر على مجرد الارتباط ، إذ كان هناك بين « دولة المدينة » وبين العالم الإيجي نوع من الوحدة أكسب جميع دول المدن اليونانية ، بل المستعمرات البعيدة ، خصائص متشابهة أو واحدة . ولا يغير من جوهر الأمر أن التراث المشترك قد ظهر في درجات متفاوتة أو صور متنوعة . فمن المؤكد أن وحدة « دولة المدينة » التي تكمن وراء تعدد دول المدن اليونانية وكثرتها إنما هي نتيجة

(١) بانهزامها في الحروب البلوبونيزية على يد اسبرطة في أخر القرن الخامس ق.م. وكان أفلاطون الأثيني المولد أحد هؤلاء المفكرين .

لذلك التراث المشترك .

لقد سارت بلاد اليونان في اتجاه عام من التنوع نحو الوحدة . غير أن المصير الذي كتب على اليونان شاء ألا تبلغ « دولة المدينة » أبداً الهدف الأخير وهو الوحدة التامة بين الفرد والجماعة ، أي بين الإنسان والحياة .

دولة المدينة والبحث عن تعريف للحضارة الهللينية [١] :

« الحضارة اليونانية ـ وبعبارة أصح الهللينية ـ حضارة نشأت قرب أواخر الألف الثاني قبل الميلاد ، وظلت قائمة منذ ذلك الحين حتى القرن السابع الميلادي . وقد ظهرت أولاً في حوض البحر الإيجي وانتشرت من هناك إلى المناطق الواقعة حول سواحل البحر الأسود والبحر الأبيض المتوسط ، ثم امتدت عبر القارة شرقاً إلى آسيا الوسطى والهند ، وغرباً إلى سواحل شمال إفريقيا وأوروبا المطلة على المحيط الأطلسي ، حتى لقد دخل في نطاقها جزء من الجزيرة البريطانية . ومن الخطأ أن نقرن الحضارة اليونانية ببلاد اليونان الأصلية وحدها ، لأن الأخيرة لم تكن إلا مركزاً واحداً من مراكزها العديدة المتناثرة في منطقة البحر المتوسط . وعلى سبيل المثال فإن ساحل آسيا الصغرى الغربي كان يمثل مركزاً رئيسياً للحضارة اليونانية مع أنه لا يقع في

---

(١) رأيت أن أدمج في هذا الفصل الموضوع الطريف المقتبس مع التعديلات الضرورية من الفصل الأول من كتاب للمؤرخ العالمي الكبير أرنولد توينبي (Arnold Toynbee) بعنوان:

Hellenism : The History of A Civilization - (HUL) Oxford. 1959.

محاولاً فيه تعريف الحضارة اليونانية. وقد ترجمه السيد رمزي عبده جرجس إلى العربية بعنوان: تاريخ الحضارة الهلينية (سلسلة الألف كتاب) ـ القاهرة ، ١٩٦٣ .

بلاد اليونان بالمعنى المألوف بل يقع على ساحل تركيا الحديثة . ومن ناحية أخرى لم يندمج الجزء الشمالي المنتمي إلى القارة الأوروبيـة في العالم الهلليني اندماجاً تاماً حتى القرن الرابع قبل الميلاد .

وثمة ملاحظة جديرة بالانتباه وهي أن لفظ « إغريقي »(يوناني في العربية) مرتبط في اللغات اللاتينية والأوربية الحديثة ارتباطاً وثيقـاً باللغة الإغريقية (اليونانية في العربية) ،غير أن اللغة اليونانية والحضارة الهللينية لم تتفقا دائماً سواء من حيث العصر الذي ازدهرتا فيه أو من حيث مدى انتشارهمـا . ونجد اليوم بعدمضي حوالي ألف وثلاثمائة سنة على اندثار الحضارة الهللينية أن اليونانية لا تزال لغة حية[1]، وكانت لغة حية لعدة قرون غير معروفة قبل ميلاد الحضارة الهللينية . فمنذ الحرب العالمية الثانية استطاع أحد العلماء الإنجليز، وهو المرحوم مايكل فنتريس ، أن يحل رموز وثائق مكتوبة باليونانية يتراوح تاريخهـا بين أواخر القرن الخامس عشر والقرن الثالث عشر [2].وقد اكتشفت هذه الوثائق في كنوسوس بجزيرة كريت ، وميكيناي وبيلوس بشبه جزيرة المورة، وكانت هذه ثلاثاً من عواصم الحضارة المينوية ــ الميكينية . والوثائق محفورة على ألواح من الطين ، وهي ليست مكتوبة بالأبجدية الفينيقية (التي أصبحت اللغـة اليونانية تكتب بها منذ القرن الثامن ق.م.)بل بأحرف الكتابة المينوية التي يسميها العلماء الخطية ب (Linear B)، وهي ليست ألفبائية بل مقطعية. لعل اللغة اليونانية دخلت إلى البلقان حوالي عام ٢٠٠٠ق.م. [أو ١٩٠٠ ق.م.] أي مع دخول الآخيين إلى بلاد اليونان لأول مرة . وأيا كان الأمر فإن اللغة اليونانية كان لها تاريخ أطول من تاريخ الحضارة الهللينية ، إذ سبقت اللغة اليونانية هذه الحضارة

---

(١) ظلت الثقافة اليونانية قائمة كنعصر أساسي في الحضارة البيزنطية حتى القرن السابع الميلادي .

(٢) راجع ما تقدم في ص ٨٨ ، حاشية ١ .وتاريخ هذه الألواح يتراوح بين عـام ١٤٠٠ (أو قبله بفترة قصيرة) وعام ١٢٠٠ ق.م.

إلى الوجود كما عمرت بعدها زمناً طويلاً . بل إنه خـلال الفترة التي تعاصرت فيها اللغة اليونانية والحضارة الهللينية ، فان مناطق انتشار إحداهما لم تتطابق أبداً ومناطق انتشار الأخرى .

وخلال الشطر الأكبر من التاريخ الهلليني كانت هناك شعوب تتكلم اليونانية دون أن تكون أعضاء في المجتمع الهلليني . ومن أمثلتها تلك الشعوب التي كانت تقطن شمال بلاد اليونان وشمالها الغربي في مناطق لا تبعد كثيراً عن غرب دلفي وثرموبيلاي . وهذه الشعوب لم تعتنق الحضارة الهللينية حتى القرن الرابع ق.م وعلى الجانب الآخر من البحر الإيجي نجد أن الشعوب المتكلمة باليونانية في قبرص وفي السهول الساحلية لإقليمي كيليكيـا وبامفيليا على امتداد الشاطىء الجنوبي لآسيا الصغرى ، لم تصطبغ تماماً بالصبغة الهللينية حتى حوالي التاريخ المذكور ، بل إن بعض القبائل المتخلفة التي كانت تتكلم اليونانية في الركن الشمالي الغربي من طراقيا (حوال الروافد العليا لنهري استريمون وأويسكوس [إسكر]) ظلت خارج دائرة الحضارة الهللينية حتى القرن الأول الميلادي عندمـا فرض عليهم الرومـان المتكلمون باللاتينية هذه الحضارة .

وبدهي أن الرومان كانوا أعظم الشعوب التي جذبتها الحضارة الهللينية إلى حظيرتها سواء أكانت شعوباً تتكلم اليونانية أم لم تتكلمها . لكن الرومان لم يعتنقوا الهللينية إلا في وقت متأخر . فقد اصطبغت بالحضارة الهللينية قبـل الرومان أنفسهم شعوب أخرى لا تتكـلم اليونانية كالسّابيين والأبوليين والأتروسكيين في إيطاليا ، والليديين في آسيا الصغرى. وفي الطرف الجنوبي من الساحل الغربي لآسيا الصغرى كانت هناك شعوب أخرى لا تتكلم اليونانية وهم الكاريون والليكيون الذين كانوا أعضاء قدامى في المجتمع الهلليني كجيرانهم من الشعوب المتكلمة باليونـانية على جانبي البحر الإيجي . ولا جدال في أن الدور الذي قامت به هذه الشعوب في التاريخ الهلليني لم يبلغ أبـداً في أهميته

مبلغ الدور الذي قدر للرومان أن يقوموا به ، غير أنه كان لها شرف التميز بالطابع الهلليني في أسلوب حياتها منذ الفصل الأول حتى الفصل الأخير من قصة الحضارة الهللينية .

وفي الفصل الأخير لم يهيىء الرومان لكافة الهللينيين القاطنين حول سواحل البحر المتوسط الوحدة السياسية والسلم الداخلي فقط بأن بسطوا عليهم ظل حكومة واحدة بل هيأوا لهم أيضاً أداة لغوية ثانية لتكملة اللغة اليونانية وتزويدها بطاقة جديدة. لقد كان للمساواة الرسمية بين اللغتين اليونانية واللاتينية في الإمبراطورية الرومانية ما يبررها في روائع شيشرون وفرجيليوس وهوراتيوس وغيرهم من أدباء الرومان الذين انتجوا باللغة اللاتينية أعمالاً فنية هللينية الطابع تضارع أجود المؤلفات التي كتبت باليونانية . وفي ذلك العصر الإمبراطوري من التاريخ الهلليني ، كان قادة الفكر يتكلمون لغتين . فقد كتب الإمبراطور ماركوس أوريليوس الذي كان ينحدر من أسرة وافدة من أسبانيا ، وكانت لغة آبائه اللاتينية ، كتب مذكراته اليومية أو « تأملاته » باليونانية. وقد نشأ المؤرخ أميانوس ماركلينوس في أنطاكية كما نشأ الشاعر كلوديانوس في الإسكندرية ، وكانت لغة الإثنين الأصلية هي اليونانية ولكن كليهما كتب مؤلفاته باللاتينية .

هذه هي بعض الأسباب التي تبين خطأ تسمية الحضارة الهللينية بالحضارة الإغريقية (= اليونانية) أو بلاد الإغريق (= اليونان) . ومع أن ألفاظ « الهللينية » و « هلليني » و « هللاس » أقل شيوعاً من لفظتي « بلاد الاغريق» و « الإغريقي » إلا أن لها ميزتين الأولى أنها ليست مضللة لبعدها عن اللبس والإبهام ، والثانية أنها هي عين الألفاظ التي استخدمها الهللينيون أنفسهم للدلالة على حضارتهم وعالمهم وأشخاصهم . ويبدو أن هللاس (Hellas) كان في الأصل اسماً للمنطقة الواقعة حول رأس خليج ماليا عند الحدود التي تفصل بين

وسط بلاد اليونان وشمالها [1] ، وكانت تضم معبد « ربة الأرض » وأبوللون في دلفي ، ومعبد [ديميتير] في أنثيلا بالقرب من ثرموبيلاي (وهو الممر الضيق بين البحر والجبل ،والطريق الرئيسي الذي يصل بين وسط بلاد اليونان وشمالها) .
ومن المرجح أن لفظة : « الهيللينيين » بمعنى « سكان هللاس » قد اكتسبت معناها الواسع للدلالة على « أعضاء المجتمع الهلليني » عن طريق استخدامها كإسم جامع لحلف الشعوب المحليـة المعروفة باسم الأمفكتيونيين (Amphictuones) أي « الجيران » والذي كان يتولى إدارة المعابد الكائنة في دلفـــي وثرموبيلاي ، وتنظيم « الاحتفال البيثي » المقترن بهذه المعابد. وكان هذا الاحتفال أحد الاحتفالات الأربعة التي اكتسبت في العالم الهلليني صفة هللينية جامعة أي صفة « دولية » ، وليس مجرد صفة محلية . وكانت الاحتفالات الثلاثة الأخرى هي « الاحتفـال الاسثمي » الذي كان يعقد في ناحية البرزخ(Isthmus) بمنطقة كورنثة ، و« الاحتفال النيمي » الذي كان يعقد في بلدة نميا (Nemea) بمنطقة افليوس بالبلوبونيز (على بعد مسافة قصيرة من الجنوب الغربي لبرزخ كورنثة) ، و« الاحتفال الأوليمبي » في بلدة أوليمبيا بمنطقة إيليس في غرب البلوبونيز . وفي هذه الاحتفـالات التي اكتسبت صفة دولية كانت الجوائز التي تمنح للفائزين في المسابقـــات الفنية والرياضية جوائز رمزية ليس لها قيمة مادية ، أما الاحتفالات المحلية فقد كـان عليها أن تجتذب إليها المتسابقين بعرض جوائز ثمينة. غير أن شرف الفوز في أحد الاحتفالات الهللينية الجامعة (الدولية) كان عظيما إلى درجة تتضاءل إلى جانبها الحاجة إلى الجوائز المادية .

ومع أن الاحتفـــال البيثي الدولي (بمنطقة هللاس) هو الذي أكسب

---

(١) راجع ما تقدم في ص ٧ هامش ١ ، ص ٨ حاشية .

الهللينيين تسميتهم المشتركة ، إلا أن الاحتفال الأوليمبي كان أسبق الاحتفالات إلى اكتساب صفة دولية في العالم الهلليني . فقد جرى المؤرخون الهللينيون على تأريخ الحوادث العامة بهذا الاحتفال الأوليمبي أو ذاك (وكان الاحتفال الأوليمبي يعقد مرة كل أربع سنوات) ولم يلبث أن أصبح قبول الشخص للاشتراك في مسابقات أوليمبيا بمثابة معيار لقبوله عضواً في المجتمع الهلليني . ومثال ذلك أن الإسكندر الأول ملك مقدونيا ، الذي خضع مكرهاً للإمبراطور الفارسي ، والذي نقل معلومات قيمة إلى القيادة العليا للجيوش الهللينية المؤتلفة أثناء الغزو الفارسي لبلاد اليونان بين عامي ٤٨٠ و ٤٧٩ ق م ، قد كوفىء على خدماته بأن سمح له بالاشتراك في مسابقات أوليمبيا ، لا لأن لغة آبائه المقدونيين هي اليونانية ، بل استناداً إلى نسب الأسرة المالكة المقدونية الذي جاء في الأساطير أنه ينحدر من أرجوس ، وهي مدينة تقع في شمال شرق البلوبونيز وكانت من أقدس مدن هللاس قاطبة . وسمح للرومان بالاشتراك في مسابقات الاحتفال الاسثمي كرمز للاعتراف بجميلهم إذ أسدوا للعالم الهلليني خدمة جليلة في عام ٢٢٩ باستئصالهم شأفة قراصنة إلليريا الذين دأبوا على نهب الساحل الغربي لشمال اليونان [١] .

وإذا كان من المتعذر أن نقرن الحضارة الهللينية بدولة بعينها أو بلغة بعينها فما السبيل إلى تعريفها ؟ إن جوهر الهللينية ليس جغرافياً أو لغوياً بل هو اجتماعي وثقافي . كانت الهللينية أسلوباً مميزاً من أساليب الحياة ، وقد تجسم في نظام رئيسي هو « دولة المدينة » . وكل امرىء استطاع أن يتأقلم مع الحياة على النسق الذي تجري عليه داخل دولة المدينة كان يعد هللينيا بغض النظر عن نشأته وتربيته . ومن الأمثلة البارزة على هؤلاء الهللينيين بالتبني الإسكندر الأول ملك مقدونيا واسكوليس أمير القبائل الرحل في اسكيثيا (في جنوب روسيا) في القرن الخامس ق.م . ، وفلامينينوس القائد الروماني ، ويشوع الكاهن الأكبر اليهودي في القرن الثاني ق. م .

(١) عن « دورات المباريات الدولية » ، أنظر ص ١١٢ وما بعدها فيما يلي .

غير أن تعريفنا للحضارة الهللينية ما يزال قاصراً لأن النظام المميز لها وهي دولة المدينة لم يكن مقصوراً عليها وحدها . ذلك أن دولة المدينة لم تكن ابتكاراً هللينياً بحتاً على الرغم من أن اللفظ اليوناني (polis) الدال على معنى دولة المدينة هو الذي انتقل إلى اللغات الأوربية الحديثة لتشتق منها كلمات مثل (political . politics , policy). كانت دول المدن موجودة في بلاد سومر (الحوض الأدنى لنهري الدجلة والفرات) حوالي عام ٣٠٠٠ ق.م . أي قبل ميلاد الحضارة الهللينية بحوالي ألفي سنة. كذلك كانت دول المدن إحدى مميزات حضارة نشأت في أرض كنعان وكانت معاصرة للحضارة الهللينية . ومن الأمثلة الشهيرة على دول المدن الكنعانية صور وصيدا وأرواد الفينيقية التي تقع على ساحل الشام، وقادش وقرطاجنة وغيرهما من المستعمرات الفينيقية التي نشأت في جنوب أسبانيا وشمال غرب إفريقيا . وقد ورد في العهد القديم (التوراة) نص يشير إلى تحويل إقليم يهوذا إلى دولة مدينة أورشليم على يد الملك يوشيا في القرن السابع ق. م . كما انبعث هذا النظام من جديد – بعد انحلال المجتمع الهلليني – في دول الغرب المسيحي ، وهي دول ينتسب مجتمعها إلى المجتمع الهلليني. ومن الأمثلة الشهيرة على دول المدن في العصور الوسطى البندقية وميلان وفلورنسة ، ومرسيليا ، وبرشلونة . وحتى في العصر الحديث ، أي بعد مضي حوالى ٥٠٠ عام على التاريخ الذي أصبحت فيه الدولة القومية هي النظام المميز للعالم الغربي ، ما يزال النظام العقيم لدولة مدينة العصور الوسطى ممثلاً في بعض مدن شهيرة كهمبرُج وبرين وجنيف وزيورخ وسان مارينو .والأخيرة برغم أنها أصغرى هذه المدن مثيرة للدهشة إذ لا تزال متمتعة بالسيادة والاستقلال التام .

هكذا يتضح أن نظام « دولة المدينة » ليس في حد ذاته سمة مميزة لأسلوب الحياة الهلليني ، وإنما الشيء الذي يميز الحضارة الهللينية هو انتفاعها بهذا النظام كوسيلة للتعبير العملي عن نظرة خاصة إلى الكون . وقد عبر الفيلسوف اليوناني، بروتاجوراس الأبديري ، في القرن الخامس ق .م . عن هذه النظرة بقوله

المأثور « إن الإنسان مقياس كل شيء » ، وهو قول معناه في لغة الأديان الكبرى (اليهودية والمسيحية والإسلام) أن الهللينيين رأوا في الإنسان « سيد الخلق » ،وعبدوه كإله من دون الله .

وعبادة الانسان أو مذهب الإيمان بالانسان ليست ضرباً من عبادة الأوثان يقتصر على الهللينيين وحدهم . فهناك ما يوحى بأنها كانت العقيدة المميزة للجنس البشري في طور تحضره في كل زمان ومكان . لكن ما يميز التجربة الهللينية في مجال مذهب الإيمان بالانسان عن غيرها هو أنها كانت أصدق وأصلب عبادة للإنسان سجلها التاريخ حتى يومنا هذا. هذه هي السمة المميزة للتاريخ الهلليني. لقد كانت الحضارة الهللينية هي أولى الحضارات التي اعتنقت مذهب الإيمان بالإنسان اعتناقاً مطلقاً صريحاً . والحضارة الوحيدة التي فعلت ذلك حتى هذا التاريخ . وما من حضارة ظهرت بعد ذلك ، ولا حضارتنا الحديثة نفسها ، قد ارتبطت قط بمذهب الإيمان بالإنسان على هذا النحو الوثيق » .

المباريات الهللينية الدولية :

ولما كانت دورات المباريات الهللينية الجامعة – التي تكرر ذكرها – مظهراً هاماً من مظاهر الحضارة الهللينية، فمن الملائم أن نختتم هذا الفصل بالحديث عنها . كان عدد هذه الدورات الكبرى أربعاً على النحو التالي :

١–**الدورة الأوليمبية** :سميت كذلك نسبة إلى بلدةأوليمبيا(Olympia) علىالضفة الشمالية لنهر ألفيوس بإقليم إيليس(غرب البلوبونيز) .وقد انشئت فيعام ٧٧٦ تمجيداًللإلهزيوس الأوليمبي.وهي أهم دورةللاحتفالات عندالإغريق.كانت تعقد مرة كل أربع سنوات(في منتصف الصيف)، وتستمر خمسة أيام.وتشتمل على مهرجانين : المواكب الدينية وتقديم القرابين ، ثم عقد المباريات . وفي أول الأمر كانت المباريات مقصورة على سباق المسافات القصيرة في الاستاديوم (stadium) ، وهي كلمه معناها الأصلي مسافة طولها ٢٠٠ ياردة ، وأصبحت تدل على « مرماح » أو ملعب مستطيل الشكل في مثل هذا الطول وعرضه

٣٠ ياردة ، كما أطلقت أيضاً على هذا النوع من سباق المسافات القصيرة [١] .

وبعد ذلك أدخلت مباريات سباق المسافات المضاعفة (diaulos) حيث كان على المتسابقين الجري إلى الهدف (وهو عبارة عن عمود قصير)والاستدارة حوله والعودة إلى نقطة الانطلاق الأولى . ولم يلبث أن أدخل سباق المسافات الطويلة (dolichos) التي تتراوح بين ميلين وثلاثة أميال .

وأخيراً أدمجت المباريات فيما يسمى « بمباراة الألعاب الخمسة » أو بنتاثلون (pentathlon)،وتشمل ا – القفزالطويل ب – رمي القرص حـ رمي الرمح. ى – الجري . هـ – المصارعة وأضيفت بعد ذلك لعبة تجمع بين المصارعة والملاكمة في وقت واحد وتسمى بانكراتيون (pankration) . وانشئت لها حلبة خاصه تسمى باليسترا(palaestra) ونجدها في المدن اليونانية ملحقة بالنادي الرياضي الثقافي المسمى جيمنازيوم (gymnasium).

وفي فترة لاحقة أضيف إلى المبارياتفي الدورة الأوليمبية سباق العجلاتفي حلبة أو ميدان سباق الخيل المسمى هبودروموس (hippodromos) . وكان طول حلبة سباق الخيل ضعف طول مرماح الجري (الاستاديوم). ومعهذافقد كان على المتسابقين أن يقطعوا مسافة الحلبة عشر مرات في الاتجاهين (ذهاباً وإياباً) . وكان ذلك في البداية يتم بعجلات تجرها أربعة خيول ، ثم أصبحت (بعد عام ٥٠٠ق.م) تجرها بغال ، وأخيراً صار يجرها جوادان فقط . .

كذلك كانت هناك مباريات سباق بين الصبية فقط ، وبين الرجال وحدهم، وبين الرجال وهم حاملون اسلحتهم (hoplitae) أو حاملون المشاعل (lampadêdromia) ومباريات أخرى كان على الفرسان أن يقفزوا فيها من صهوات جيادهم ويجرون بجوارها وهم ممسكون بأجمتها . هذا فضلاً عن مسابقات بين المنادين ونافخي الأبواق .

---

(١) وأشهر ملاعب الجري أو الاستاديات في بلاد الإغريق هي التي كانت في أوليمبيا ودلفي وإبيداوروس وأثينا . وكان الاستاديوم في المدينة الأخيرة يسع ٥٠٠٠٠ شخص .

كانت المباريات في الدورة الأوليمبية مباحة لكل المواطنين الأحرار المنحدرين من أبوين إغريقيين صميمين ، ولم تلحق بهم أي وصمة تشين سمعتهم . وكانت محرّمة على البرابرة (الأجانب) والعبيد . غير أن الرومان كانوا لا يُعتبرون من البرابرة ، وسمح لهم بالاشتراك في هذه المباريات . لكن النساء حرمن حتى من حضور هذه المهرجانات (فيما عدا كاهنة ديميتير ، ربة القمح) .

كان الإشراف على حفلات الدورة الأوليمبية وعملية التحكيم تسند إلى لجنة من الحكام يعرفون باسم هللانوديكاي (Hellanodikai)[1]. وكانوا يُختارون من بين الأسرة النبيلة في إقليم إيليس (حيث تقع بلدة أوليمبيا) . وهؤلاء الحكام العشرة كانوا يحصلون إيراد الاحتفال ، ويلبسون «أروابا» حمراء ، ولهم مقاعد مخصوصة . ويقدمون أكاليل النصر للفائزين ، ويترأسون الوليمة في ختام الدورة ، ويمارسون سلطة تأديبية على المتبارين ويوقعون الجزاءات عند خرق قواعد الألعاب .

وفي ختام الدورة الأولمبية كان الفائزون الذين تزين أكاليل الزيتون جباههم ، يقدمون قربانا . وتقام – على نحو ما أشرنا – وليمة أو مأدبة كبيرة في دار البلدية (Prytaneum) الموجودة في «ألتِس» وهو أهم وأقدس مكان في أوليمبيا . وكان يحضرها الفائزون وأقاربهم الفخورون بهم . وفيها كانت «جوقات» من المغنين تنشد نشيداً للنصر وهو من نظم أحد كبار الشعراء . وكان كثير من الكتاب والشعراء والخطباء اليونان ينتهزون فرصة وجود جموع غفيرة من النـــاس في احتفالات الدورة الأوليمبية فيحضرون بقصد الإعـــلان عن أنفسهم وعرض انتاجهم الفكري أو للإدلاء بآرائهم حول المسائل العامة أو لالقاء خطب سياسية . لقد كانت الدورة فرصة لتبادل وجهات النظر بين مختلف الاغريق ، وتوثيق الروابط بينهم والتعرف على اتجاهات الرأي العام الاغريقي ، فضلاً عما كان يجري بالضرورة من معاملات أخرى كالبيع والشراء أو تبادل التجارة . ومما

(١) ويعرفون بأسماء أخرى في الدورات الأخرى مثل agonothetai أو athlothetai أو epimeletai.

يدل على أهمية دورات المباريات ونجاح دورة أوليمبيا - عند الاغريق - أن جميع الطرق المؤدية إليها كانت تؤمَّن بمناسبة انعقادها بمقتضى اتفاق ضمني أو هدنة مقدسة مؤقتة (ekeeheiria) تتوقف فيها كل الأعمال العدوانية .

ولقد أشرت إلى ألتِس (Altis) التي وصفتها بأنها كانت أهم وأقدس مكان في كل أوليمبيا . ففيها كانت توجد غابة صغيرة مقدسة لزيوس . وكانت بمثابة حرم مقدس محاط بسياج ومزين كالمنطقة المتاخمة له بالمعابد والتماثيل والمباني الأنيقة . وكان معبد زيوس الأوليمبي (Zeus Olympios) أهم تلك المعابد . وكان يضم تمثاله الضخم الفاخر الذي يروى أن فيدياس (Pheidias) المثّال الأثيني الأشهر (مصمم البارثنون وتمثال أثينة فيه) قد نحته من الذهب والعاج (أي كساه بهما) في القرن الخامس (عصر بريكليس) . وقد اكتشفت بعثات الحفر الألمانية في القرن الماضي مجموعة كبيرة من أنقاض المباني وبقايا المنحوتات والتماثيل الفخمة في بلدة أوليمبيا .

ودليل آخر على مدى أهمية الدورة الأوليمبية هو أن بعض الكتاب والمؤرخين الإغريق (من أمثال بوليبيوس وديودور الصقلي وديونيسيوس الهاليكرناسي) اتخذوا من بداية الدورة الأوليمبية الأولى (عام ٧٧٦ قم) أساساً للتقويم الزمني بمعنى تأريخ الأحداث بالقياس إليها . فيقولون - على سبيل المثال - حدث الحادث الفلاني في السنة الثالثة من الأولمبياد الخامس . ولتحديد الأولمبياد يضرب رقمه خمسة في أربعة (المدة بين أوليمبياد وآخر) ثم يطرح حاصل الضرب من ٧٨٠ . وفي هذا المثل يكون تاريخ بداية الاولمبياد الخامس هو (٧٨٠ - ٢٠) = ٧٦٠ . وتكون السنة الثالثة منه هي ٧٥٨ قم . وأما إذا كان الاولمبياد قد حدث بعد الميلاد ، فيضرب رقمه في أربعة . ثم يطرح حاصل الضرب من ٧٠٦ ، فيكون الناتج هو تاريخ الاولمبياد بعد الميلاد . وعلى سبيل المثال إذا كان الحدث قد وقع في السنة الأولى من الأولمبياد رقم ٢٠٠ ، يضرب

٢٠٠ × ٤ = ٨٠٠ ثم يطرح هذا الرقم من ٧٠٦ فيكون الناتج ٩٤ ميلادية .

وقد ألغيت الدورات الاوليمبية في عام ٣٩٤ م أي في عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الأول (الاكبر) الذي أعلن المسيحية ديانة رسمية للدولة الرومانية مع تحريم سواها من الديانات والعقائد (٣٨٠ – ٣٩٢ م) . ومنذ ذلك الحين يرين على أوليمبيا التي ظلت صاخبة عدة قرون ، صمت رهيب !

٢ – **الدورة البيثية** : سميت كذلك نسبة إلى بيثو (Pythô) وهو اسم قديم لمعبد أبوللون ونبوءته في دلفي . إذ يروى في الأساطير أن الإله أبوللون صرع التنين أو الأفعى الضخمة بيثون (Pythôn) التي كانت تسكن كهوف برناسوس وتحرس حجر دلفي المقدس . ومن ثم فقد لقب الإله نفسه بلقب البيثي ، وكاهنته باسم بيثيا (Pythia) . والمدينة نفسها باسم بيثو أو بيثون. (كما ورد عند هوميروس وهيرودوت) .وتقع دلفي (أو دلفوى كما تسمى في الأصل اليوناني) على السفوح الجنوبية السفلى من جبل برناسوس الشهير ، وعلى بعد حوالي ستة أميال من الخليج الكورنثي في الجنوب . وكان يقوم فيها معبد لأبوللون ، إله النبوءة . وكان أقدم معابد بلاد اليونان وأقدسها إذ يرجع تاريخه إلى الألف الثاني ق.م . وكان أشهر مركز للنبوءة في العالم الهلليني . وقد أعيد تنظيم احتفال قديم – كان مرتبطاً بهذه النبوءة – في شكل دورة هللينية جامعة أي دورة دولية في عام ٥٨٢ . وكانت هذه الدورة البيثية تعقد مرة كل ثلاث سنوات ، وتوافق دائماً السنة الأولى منها السنة الثالثة من الدورة الأولمبية ، وذلك في خلال شهر أغسطس/سبتمبر . وكانت تلي مباشرة الدورة الأولمبية في الأهمية . وكان يشرف على تنظيم الدورة البيثية المجلس الامفكتيوني .

ذكرت أن احتفالاً كان يقام في دلفي منذ زمن قديم مرتبطاً بهذه النبوءة .

وكان هذا الاحتفال يقام مرة كل ثماني سنوات (ولعل هذه الدورة الزمنية مأخوذة عن البابليين)، وكانت تجرى فيه مسابقة موسيقية حيث يعزف بصاحبة القيثارة نشيد ديني لأبوللون (nomos Pythicus) . لكن في عام ٥٨٢ - على نحو ما أشرت - أعيد تنظيم هذا الاحتفال كدورة هللينية جامعة (بانهللينية) تحت إشراف مجلس الحلف الامفكتيوني ، وهو حلف ديني الطابع اكتسب أهمية منذ القرن السابع وكان يتألف منذ حوالي عام ٦٠٠ من الدويلات المتجاورة (amphictiones) في بلاد الاغريق الشمالية (تساليا) والوسطى (بويوتيا وفوكيس ولوكريس وأيتوليا وغيرها). وكان الحلف يرتبط في بدايته بمعبد ديميتير في أنثيلا (Anthela) - بالقرب من ثرموبيلاي - ولكنه ارتبط منذ أواخر القرن السابع بمعبد أبوللون في دلفي. كان القصد من الحلف الأمفكتيوني حماية معابد الأقاليم المتحالفة وصيانة مقدساتها ، والحفاظ - بالتعاون مع دلفى نفسها - على ممتلكات معبد أبوللون ومقتنياته إذ كان يزخر بكنوز الهدايا والنذور التي درج الأفراد والمدن المختلفة على تقديمها للمعبد. فكان الحرم المقدس للمعبد (temenos) يضم داخل سياجه ما لا يقل عن عشرين مبنى صغير أيسميها الاغريق كنوزاً أو خزائن (thesauros) ، وهي في الحقيقة مخازن أو بيوت صغيرة (oikoi) كانت تودع فيها السجلات والمقدسات والأدوات الثمينة ، والنذور المهداة .. الخ . وقد اعتادت بعض الدويلات الاغريقية أن ترسل كل منها تماثيل بديعة وغير ذلك من النُصب والآثار التي تخلد ذكرى انتصاراتها أو غيرها من المناسبات القومية . وكان الحلف الأمفكتيوني- على نحو ما سنرى- أداة هامة وعلى الأخص من الناحية السياسية في يد دول المدن اليونانية القوية .

وأعود إلى الدورة البيثية لأقول إن احتفالات هذه الدورة كانت تقتصر

في أول الامر على مسابقات في العزف على الآلات الموسيقية والغناء ، والتمثيل، وإلقاء الشعر والنثر. لكن لم تلبث أن أضيفت إليها مباريات رياضية على غرار مباريات الدورة الأولمبية . وكان الاستاديوم (ملعب الجري) يوجد على مقربة من جبل برناسوس. كذلك أنشئت في سهل كريسا(Crisa)حلبة لسباق الخيل (هبودروموس) . وكانت جائزة الفائزين عبارة عن إكليل من ورق الغار (المأخوذ من أشجار وادي تمبي Tempé الجميل) .

٣ - **الدورة الاسثمية:** وهي منسوبة إلى بلد إسثموس (Ishhmus) ، أي بلدة « البرزخ » بجوار كورنثة . انشئت كاحتفال أو عيد هلليني دولي بعد الدورة السابقة بعام واحد أي من عام ٥٨١ . وكانت تقام مرة كل سنتين (وتوافق بدايتها دائماً منتصف الدورةالاوليمبية)وذلك تمجيداً لبوسيدون ، إله البحر ، الذي كانت كورنثة مرتبطة به ارتباطاً وثيقاً . وقد لوحظ إقبال الأثينيين على مشاهدة احتفالات هذه الدورة ، ولعل ذلك يرجع إلى اشتهار كورنثة بكثرة أماكن اللهو والتسلية . وكانت جائزة الفائزين في المسابقات الفنية أو المباريات الرياضية اكليلاً من الكرفس البري . وقد خلد بنداروس (Pindaros) — الشاعر البويوتي الغنائي الشهير في أوائل القرن الخامس — خلد في الكتاب الرابع من قصائده المسماة « بأهازيج النصر » (Epinicia) بعض الأبطال الفائزين في الدورة الإسثمية، مثلما خلد أسماء كثيرين من الأبطال الرياضيين الذين أحرزوا شرف النصر لأنفسهم ولمدنهم (Olympianikai) في الدورات الهللينية الجامعة الأخرى .

٤ — **الدورة النيمية :** نسبة إلى بلد نيميا (Nemea) بأرجوليس (في البلوبونيز) . أنشئت كمهرجان أو عيد هلليني دَوْري في عام ٥٧٣ . وتنسب

نشأتها أحياناً إلى أدراستوس(Adrastus) أحد أبطال أرجوس الأسطوريين . وفي نيميا أيضاً صرع البطل الإله هيراكليس (Heracles) الأسد المفترس . وكانت هذه الدورة تعقد مرة كل سنتين ، تكريماً وتمجيداً للإله زيوس «النيمي» تحت إشراف مدن كليوناي وأرجوس وكورنثه بالتناوب . وفي هذه الدورة كانت تجري كل المباريات الرياضية المألوفة للإغريق في الدورات الأخرى ما عدا سباق العربات . وكانت جائزة الفائزين إكليلاً من البقدونس البري . وقد مجد الشاعر بنداروس ـ الشهير ببندار ـ ذكرى كثير من هؤلاء الفائزين في قصائده المسماة « بالأناشيد النيمية » .

ومن يقرأ هذه « الأناشيد » و «أهازيج النصر » لهذا الشاعر ، ويتفحص ما تبقى من آثار الإغريق المتصلة بالألعاب الرياضية ، يدرك على الفور مدى ما كان للألعاب الرياضية (وروح التنافس بوجه في أي مسابقات) من أهمية كبيرة عند الاغريق . لقد مجد الاغريق هؤلاء الأبطال الرياضيين الذين سعوا إلى إحراز الشرف والمجد والشهرة الخالدة لأنفسهم ولمدنهم المختلفة . وقد أعجبوا بالرياضة وجعلوها عنصراً رئيسياً في التربية ، بل إن التربية البدنية كانت عندهم تشكل مع التربية العقلية ، أساس التربية كله . وكان هوميروس قد أفرد للمسابقات الرياضية مكاناً ملحوظاً في الإلياذة (كاحتفالات دينية مرتبطة بالطقوس الجنائزية) ، فكأنه بذلك قد وضع للأغريق منهجاً في التربية لا يحيدون عنه[1]. وثمة ملاحظة أخرى عن مفهوم الحضارة الهللينية ، وهي أن الاغريق لم يملّوا أبداً من مشاهدة الألعاب الرياضية سواء في الدورات الهللينية الكبرى أو في نواديهم الثقافية ـ الرياضية أو بالأحرى معاهد التربية المسماة عندهم بالجيمنازيوم (gymnasium)[2].

(١) كان الإله هرميس (Hermes) هو إله الرياضة عند اليونان .

(٢) لفظ « جيمنازيوم » عند الإغريق معناه اللغوي الأصلي مكان التجرد أو التعري من الملابس لممارسة الرياضة دون ما عائق . ويقول أحد الكتاب القدامى انه لم يكن من المتصور قيام دولة مدينة يونانية بدون الجيمنازيوم (gymnasium) والأجورا (agora) وهي السوق العامة أو الميدان الرئيسي حيث يتجمع مواطنو المدينة لمختلف الأغراض .

وقد افتتنوا بالجسم الرياضي مع طول التطلع إليه ، إذ رأوه هناك مجرداً وقوياً فتياً . وأعجبوا بقوامه البديع حتى رسموه في أغلب الأحيان عارياً . ومن ثم نشأ إعجابهم بقوام الإنسان بوجه عام ، وأخيراً بالإنسان نفسه الذي اعتبروه آية ومعجزة ، وسيداً للخليقة ، فعبدوه كإله ، بل إنهم رسموا الآلهة على صورته .

الفصل الثالث

أقاليم بلاد اليونان

وتطورها السياسي

في وسعنا أن نقسم شبه جزيرة البلقان إلى ثلاثة أقسام كبرى : الشمال والوسط والجنوب التي يشتمل كل منها على عدة أقاليم . وهذه الأقاليم، باستثناء القليل ، ليست سياسية لأن كلا منها ينقسم بدوره إلى عدة وحدات مستقلة . ويرجع الأصل في انقسام البلاد إلى هذه الأقاليم إلى الأيام الأولى التي استقرت فيها القبائل اليونانية الوافدة إلى شبه الجزيرة ، كما يرجع أيضاً إلى انقسام البلاد إلى عدة إمارات في عصر الحضارة الميكينية وهي الفترة المتأخرة من عصر الحضارة الهلادية .

الشمال :

ويشمل القسم الشمالي إقليم مقدونيا وثساليا في الشرق وإلليريا وإيبيروس في الغرب . وأما مقدونيا (Macedonia) فسهل كان يسكنه شعب خليط من سلالات مختلفة كالطراقية والإلليرية (الألبانية) ويتكلم لغة تنتمي إلى

أسرة اللغات الهندية – الأوربية ، ولكنها تختلف عن الفرع اليوناني . ولهذا لم تعتبر مقدونيا بلداً يونانياً ، ولو أن التصاق حدودها الجنوبية ببلاد اليونان جعلها بمرور الزمن نصف يونانية ، هذا على الرغم من تشهير ديموسثنيس بملكها فيليب الثاني ، الذي يصفه الخطيب الأثيني بأنه متبربر . وترجع أهمية مقدونيا إلى سيطرتها على المداخل الشمالية لبلاد اليونان ، وإلى أنها كانت موطن تلك المملكة القوية التي قدر لها أن تخضع بلاد اليونان وتقضي على استقلال مدنها السياسي . وأهم أنهارها نهر أكسيوس Axius (الوردار) الذي يتجه من الشمال إلى الجنوب ويقسمها جزءين . ويفصل مقدونيا عن طراقيا (Thracia) في الشرق نهر استريمون Strymon ، (ستروما) ويفصلها في الغرب عن تساليا نهر هلياكمون (Haliacmon) . وقد نقل المقدونيون عاصمتهم من مدينة إديسا (Edessa) (أو آيجاي Aegae) إلى مدينة بللا (Pella) التي تقع في منطقة منخفضة غير استراتيجية أو صحية ، ولكنها أقرب كثيراً إلى البحر من الأولى . وأما سالونيك (Thessalonica) ، عاصمة مقدونيا بعد أن أصبحت ولاية رومانية ، فتحتل موقعاً ممتازاً عند رأس خليج ثرما (Therma) حيث كانت تسيطر على طريق التجارة المتجهة إلى داخل البلاد ، كما كانت تقع عند نهاية النصف الغربي من طريق إجناتيوس (Via Egnatia) ، الذي كان يبدأ من دُرّاخيوم (Dyrrachium) (وهي إبيدامنوس Epibamnus القديمة) ويصل بين البحرين الأدرياتي والإيجي ، وظل قروناً عدة خطاً رئيسياً للمواصلات بين روما وولاياتها الشرقية .

وإذا كانت مقدونيا بفضل موقعها وتضاريسها تصلح لأن تكون مقراً لدولة متحدة تحت ظل حكومة مركزية قوية وجيش قومي مدرب ، فإنها كانت أيضاً معرضة من جهات كثيرة لغزو القبائل القاطنة بالجبال المتاخمة لها ، ولإغارات الشعوب المهاجرة من حوض الدانوب عن طريق مورافا . وقد تحقق الخطر من هذه الناحية عندما أغار الجلاتيون في عام ٢٧٩ على مقدونيا واقتحموها من

أبوابها الشمالية وأحدثوا فيها تخريباً شاملاً [1]. وقد عامل الرومان مقدونيا بعد هزيمتها بشيء من اللين والتسامح تقديراً للدور الهام الذي قامت به في حماية حضارة البحر الايجي من خطر إغارات شعوب وسط أوروبا المتبربرة.

أما شبه جزيرة خالكيديكي (Chalcidicê)[2] التي تبرز من ساحل مقدونيا في شمال البحر الإيجي فتشبه بأرجلها أو ألسنتها الثلاثة الممتدة في البحر، شبه جزيرة البلوبونيز كل الشبه، بل أنها تنتمي وفقاً لشكل تضاريسها ونوع نباتها إلى جنوب بلاد اليونان لا إلى شمالها. وكان من الطبيعي إذاً أن تنشأ على سواحلها منذ وقت مبكر مستعمرات يونانية كثيرة. وكما يتبين من اسمها فإن المهاجرين من خالكيس بجزيرة يوبويا هم الذين سبقوا غيرهم إلى تلك المنطقة. ويتصل اللسان الذي يقع في أقصى الشرق من شبه الجزيرة، وهو ما يعرف باسم أكتي (Acté) يتصل بالقارة نفسها بواسطة برزخ عرضه حوالي ميل ونصف ولا تزال تشاهد عنده قناة الملك الفارسي خشيارشاي (Xerxes). وفي هذا اللسان يقع جبل أثوس (Athos)، وهو جبل منعزل شديد الارتفاع، تشتد عنده العواصف والأنواء مما يجعل الملاحة خطرة جداً، كما اتضح لمردونيوس القائد الفارسي الذي تحطم أسطوله هناك على نحو ما ذكرنا من قبل. وعند طرف اللسان الأوسط تقع مدينة توروني (Toroné) الهامة. وفي أول اللسان الغربي من شبه الجزيرة تقع مدينتان هامتان إحداهما بوتيديا (Potidaea)، إحدى مستعمرات كورنثة، والأخرى أولينثوس (Olynthus)، التي كانت مركزاً طبيعياً للمقاومة ضد عدوان أثينا أو مقدونيا أو اسبرطة، وعاصمة « للحلف الخالكيديكي » في مستهل القرن الرابع، وحليفة لأثينا في آخر الأمر ضد فيليب المقدوني الذي استولى عليها في سنة ٣٤٨ وهو عدوان أثار ديموسثنيس ودفعه إلى

---

(١) التواريخ كلها قبل الميلاد ما لم تقرن بما يفيد بأنها ميلادية.

(٢) تنطق الـ ch دائماً خاءاً، وتنطق الـ c دائماً كافاً.

إلقاء الخطب المشهورة باسم « الخطب الأولينثية » .

وكان سكان ثساليا (Thesalia) أقرب إلى اليونان من المقدونيين ولكنهم لا ينحدرون من سلالة يونانية خالصة . ويعتبر سهلهـا الخصب الفسيح الذي ينحصر بين الجبـــال من جميع جهاته تقريباً ، أوسع سهول بلاد اليونان . ويفصل ثساليا عن مقدونيا جبل أوليمبوس منزل الآلهة اليونانية ، وعن شمال غرب جبال اليونان سلسلة جبال بندوس . ويعزلها عن البحر الإيجي جبلان هما أستا (Ossa) وبيليون (Pelion) اللذان ورد في الأساطير أن العمالقـة وضعوا أحدهما فوق الآخر لكي يرقوا إلى السماء أثناء قتالهم ضد الآلهـــة . ولهذا لم تكن ثساليا على اتصال مستمر ببقية بلاد اليونان ، وقد ظلت تعتبر منطقة متخلفة حتى القرن الرابع.غير أن عزلتها لم تكن كاملة لأن قربها الشديد من دولتين قويتين مثل طيبة في الجنوب ومقدونيا في الشمال جذبها إلى محيطها السياسي وربط تاريخها بتاريخ بلاد اليونان بوجه عام . وقد أثرت طبيعـــة تضاريسها في تطورهـــا السياسي . فالسهول الفسيحة المنبسطة ساعدت على تكوين الضياع الواسعة ، كما أن اقتصادها « المغلق » أخّر قيام المراكز المدنية فيها. وقد ترتب على ذلك أن تجمعت القوة السياسية في يد كبار ملاك الأراضي الأشراف الذين وجدوا في مروج نهر بينيوس (P eneus) ، وهو من أكـــبر أنهـار بلاد اليونان ، مكانـاً ملائماً لتربية الجياد على نطاق واسع ، وفرصة لاحتراف الفروسية ، مما أتاح لهم السيطرة التامة على السهول والتحكم في عبيـد الضياع (Penestai) . وقد اشتهرت ثساليا في الفترة التاريخية بقوة جيشها في سلاح الفرسان حتى أنها أمدت الأسكندر الأكبر بوحدات منهـا في حملته على الشرق . كما أن جواده المشهور بوكيفالوس(Bucephalus)كان من سلالة ثسالية.

وفي وسعنا أن نقول إن ثساليا الأصلية كانت تنقسم سياسياً ألى أربعة أقسام رئيسية : هستيأيوتيس (Hestiaeotis) في الشمال الغربي حيث يقع جبـــل

أوليمبوس؛ وثساليوتيس (Thessaliotls) في الجنوب الغربي ويضم سهل فرساليا الذي شهد المعركة الفاصلة بين بومبي وقيصر في عام ٤٨؛ ثم بلاسجيوتيس (Pelasgiotis) في الشرق حيث تقع مدينتا لاريسا وفيراي القويتان ؛ وأما القسم الرابع افثيوتيس (Phthiotis) ، الذي يقع في الركن الجنوبي الشرقي من ثساليا ، فكان منطقة هامة فى العصور القديمة لأن ثوكيديديس يحدثنا بأنها الموطن الأصلي للجنس الهلليني كما أنها كانت مسقط رأس أخيل(Achilleus)، بطل الالياذة [١] . ويرتبط خليج بجَسَاي (Pagasae)[٢] الذي تطل عليه هذه المنطقة - في الأساطير اليونانية - بحملة ملاحي السفينة « أرجو » (Argo) . وقد روى أن هذه السفينة بنيت من أخشاب غابة الصنوبر الواقعة بالقرب من منحدرات بيليون ، وأنها بدأت رحلتها من موانى هذا الخليج إلى كولخيس (Colchis) بشرق البحر الأسود لاسترداد « الفروة الذهبية » . ومع أن ثساليا كانت أكثر من غيرها ملاءمة لقيام دولة متحدة إلا أنها لم تتخط في تطورها مرحلة النظام الإقطاعي حتى القرن الرابع . ولم تندمج في اتحاد سياسي متين حتى فرضت عليها السيطرة الأجنبية . وكان من الممكن أن تصبح ثساليا بفضل ثروتها المادية ومواردها البشرية زعيمة لبلاد اليونان ، وهو الدور الذي أعده لها ياسون (Jason) طاغية «فيراي» في أوائل القرن الرابع . ولكنها ختمت تاريخها السياسي باندماجها في اتحاد فيدرالي تحت سيطرة مقدونيا وبعدئذ تحت سيطرة روما. وقد سهل مهمة ملوك مقدونيا في السيطرة

---

(١) راجع ما تقدم في ص ٨٠٧ هوامش

(٢) هناك منطقتان أخريان يمكن إدراجهما تحت اسم إقليم ثساليا إحداهما مجنيسيا (Magnesia) ، وهي القطاع الطويل من الأرض الممتدة بمحاذاة البحر الإيجي من وادي تمبي (Tempè) في الشمال إلى خليج بجساي في الجنوب، والأخرى هي ذلك الوادي الصغير الضيق الذي يقع بين جبل أوثريس (Othrys) وجبل أويتا (Oeta) في أقصى الجنوب .

عليها خطان من المواصلات ، أحدهما طريق وادي تمبي (Tempê) الجميل الذي يقع بين جبلي أوليمبوس وأسّا – وهو ممر ضيق كان من المستطاع سده في وجه الغزاة لولا وجود ممرات أخرى قريبة يسهل اجتيازها ؛ والآخر هو الطريق البحري الذي يؤدي إلى خليج بجساي . وقد أقام المقدونيون عند رأسه قلعة ديميترياس (Demetrias) لتكون – إلى جانب خالكيس وكورنثة – أحد « الأغلال الثلاثة » التي سيطروا بها على اليونان .

وتقع إلليريا أو إلليريكوم (Illyricum) إلى الغرب من مقدونيا . وهي لا تعتبر في الواقع إقليماً يونانياً ، لأنها لم تؤثر في مجرى التاريخ اليوناني أو تتأثر به إلا قليلاً . ومعظمها عبارة عن منطقة جبلية وعرة غير منتظمة التضاريس ، وتجري فيها عدة أنهار أهمها نهر آووس (Aous) ، وتتخلل ساحلها بعض سهول كانت محاصيلها هي المصدر الرئيسي لثروة المستعمرات اليونانية القريبة مثل إبيدامنوس (دِرّاخيوم فيما بعد) وأبوللونيا (Apollonia) التي أسسها الإغريق على الساحل في القرن السادس والقرون التالية . غير أن صعوبة الاتصال بداخل إلليريا ، فضلاً عن اشتهار أهلها بحرفة القرصنة وقف حائلاً دون التوغل فيها واكتشاف أرجائها . كما أخرت كثرة قبائلها المستقلة قيام مملكة في جنوبها حتى القرن الثالث . وقد اشتبك الرومان مع هذه المملكة في حربين الإللّيرية الأولى (٢٢٩) والإلليرية الثانية (٢١٩) ، عندما وجدوا أن مصالحهم تقتضي إدخال البحر الأدرياتي في دائرة نفوذهم . وقد قسم الرومان هذه المملكة بعد هزيمتها في عام ١٦٧ إلى ثلاثة أقسام .

وأما إيبيروس Epirus (ومعناها القارة) فتقع على طرف بلاد اليونان وبالتالي على هامش التاريخ اليوناني . ولم يكن لها أي صلات هامة بالإغريق إلا في أيام ملكها الشهير بيروس (Pyrrhus) . وعزلتها الجغرافية وحدها

تفسر سبب عزلتها السياسية ، فساحل إيبيروس تضرب عليه الجبال ستاراً حديدياً يتعذر اختراقه ، ولا يشتمل على ميناء صالحة لرسو السفن . وعلى حدودها الشرقية تقع سلسلة جبال بندوس التي تعزلها عن ثساليا عزلاً تاماً . وإذا كانت إيبيروس قد تأثرت بالحضارة اليونانية فإن ذلك قد حدث عن طريق أمبراكيا (Ambracia) وجزيرة كركيرا (Corcyra) . وتقسم المرتفعات التي تتقاطع طولاً وعرضاً وتطل على وديان عميقة ، قلب الإقليم إلى مناطق منعزلة إحداها عن الأخرى. وأعمق هذه الوديان هو خانق نهرأخيرون (Acheron) الذي يكاد يكون محجوباً عن أشعة الشمس حجباً تاماً ، حتى أن الإغريق خيل إليهم أنه الباب المؤدي إلى العالم السفلي أو عالم الموتى (Hadés) . وقد ترتب على ذلك أن الإقليم كله انقسم سياسياً إلى أربع عشرة مقاطعة تسكنها قبائل دُورية أو إلليرية الأصل. وفي خلال الشطر الأكبر من تاريخ إيبيروس لم تقم أي رابطة بين هذه المقاطعات سوى ذلك الاتحاد الفيدرالي الواهي الذي جمع بين ثلاث منها فقط .

وتقع بين جبال إيبيروس الوسطى بلدة دودونا (Dodona) التي اشتهر معبدها بأنه مركز نبوءة الإله زيوس في منطقة مليئة بغابات البلوط. وقد كانت هناك مراكز أخرى للنبوءة (oraculum)[1] في بلاد اليونان وفي خارجها، ومن أوسعها شهرة نبوءة الإله أبوللون البيثي في بلدة دلفي (Delphi)، ونبوءة الإله آمون المصري في واحته التي تعرف اليوم باسم سيوه . غير أن نبوءة

---

(١) كلمة oraculum هي اللفظ الدال على « نبوءة » في اللغة اللاتينية ، وهو شائع، وقد اشتق منه لفظ oracle في الإنجليزية والفرنسية ، لكن اللفظ الدال عليها في اليونانية هو manteion أو chrestêrion ومعناه إجابة الإله (عن طريق كاهنة أو كاهن) على أسئلة السائلين .

زيوس في دودونا كانت أقدمها جميعاً [1] ، ولو أن تعذر الوصول إليها كان من العوامل التي جعلت نبوءة أبوللون في دلفي — على نحو ما سنفصله بعد قليل — تنتزع منها الزعامة منذ القرن السابع ق م.

وعلى مقربة من دودونا كان يقع سهل خصيب ، على اتصال بأمبراكيا في الجنوب ، تشغله مقاطعة مولوسيا (Molossia) ، التي كانت بمثابة نقطة التجمع للإلليرين وكان ملكها الإسكندر الأول ، والأخ غير الشقيق لفيلب الثاني ملك مقدونيا ، هو الذي حقق وحدة البلاد كلها في القرن الرابع (٣٤٢ — ٣٣٠). وقد نقل بيروس (٣١٩ — ٢٧٢) ، أشهر ملوك إيبيروس ، العاصمة من الداخل إلى أمبراكيا ، لكي يتسنى له الاتصال بالعالم الخارجي الذي كان يطمع في فتحه. غير أن فشل الحملة التي قام بها في إيطاليا لمساعدة مدينة تارنتوم (Tarentum) اليونانية (٢٨٠ — ٢٧١) كان من العوامل التي أدت إلى ضعف إيبيروس ووقوعها فريسة لهجمات آيتوليا ومقدونيا وإلليريا ، وسقوط الأسرة المالكة في مولوسيا في أواخر القرن الثالث ق.م.

الوسط :

فإذا انتقلنا إلى بلاد اليونان الوسطى نجدها تنقسم بدورها إلى عدة أقاليم . ففي الغرب تقع **أكارنانيا** (Acarnania) التي تشمل المنطقة الواقعة بين خليج أكتيوم (Actium) وخليج كورنثة . وهي هضبة من الحجر الجيري لا تختلف كثيراً في مناخها أو نباتها عن الأقاليم اليونانية الأخرى. وأهم ظاهرة جغرافية تتميز بها أكارنانيا هي نهر أخيلوس (Achelous) **أطول أنهار بلاد اليونان**، الذي ينبع من وسط إيبيروس ويصب في الطرف الغربي من الخليج الكورنثي ، ويتردد ذكره كثيراً في الأساطير ، ولكنه ليس بذي أهمية

كطريق للمواصلات . وتقع على ساحلها بعض موان صغيرة لم تستطع أن تنافس جزر البحر الأيوني القريبة في تحويل التجارة إليها. ولهذا ظلت أكارنانيا منطقة منعزلة . وقد نشأ بين مقاطعاتها ، مثلما نشأ في إيبيروس ، اتحاد فيدرالي غير متين ، وكانت عاصمته استراتوس (Stratos) مركزاً طبيعياً للمواصلات .

وإلى الجنوب الشرقي من أكارنانيا تقع أيتوليا (Aetolia) التي كان يسكنها قوم ظلوا متأخرين فترة طويلة ، ولم يتخلصوا أبداً من عاداتهم البدائية الهمجية . وليس معنى هذا أن أيتوليا كانت منطقة جدباء مقفرة ، فهي تشتمل على بعض مساحات واسعة من الأراضي الصالحة للزراعة ، وعدة بحيرات تمدها بكمية وافرة من المياه . ويربط شمالها الشرقي بوادي اسبرخيوس وخليج ماليس ممر من السهل اجتيازه . غير أن الممرات الشمالية التي تؤدي إلى ثساليا وعرة شاقة ، فضلاً عن أن جبل كوراكس الشاهق يقف كالسد المنيع بينها وبين غرب إقليم لوكريس . وتطل أيتوليا من الجنوب على خليج كورنثة ، ولكن سلسلة من الجبال الساحلية تعزل نصفها الشرقي عن البحر . وأما نصفها الغربي المطل على البحر الأيوني فكان مليئاً بالمستنقعات ويسده الطمي الذي يجرفه تيار شديد من مجرى نهر أخيلوس إلى الخليج الكورنثي. ولهذا عاش الأيتوليون مدة طويلة ، كسكان إيبيروس وأكارنانيا ، بعيدين عن تيار الحياة والتاريخ اليوناني . وقد ظل الإقليم منقسماً إلى ثلاث مقاطعات لم تكن تتعاون إلا في حالة تعرضها للغزو الأجنبي. وحتى الاتحاد الفيدرالي أو الحلف الذي قام بين هذه المقاطعات في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد لم يكن يتفق وطبيعة الإقليم الجغرافية . وكانت ثرمون (Thermon) ، مركز حكومة هذا الاتحاد ، حرماً مقدساً أكثر منه مدينة طبيعية . وعندما بنى « الحلف الأيتولي » أسطولاً ، اضطر إلى أن يستعير ميناء ناوباكتوس من لوكريس لكي ترابط سفنه

في مياهها . كما أن « الحلف الأيتولي » بعد اتساع نطاقه وامتداده في وسط بلاد اليونان بين البحرين الأدرياتي والإيجي في القرنين الثالث والثاني ، كان يجري في اتجاه مضاد لخطوط المواصلات الطبيعية . وفي الواقع إن هذا الحلف كان أشبه بالحلف العسكري منه بالاتحاد السياسي أو الاقتصادي ، إذ كانت الرابطة الأساسية فيه هي جيشه الممتاز الذي يتألف من مشاة ذوي عتاد خفيف لم يفقهم جيش يوناني آخر في سرعة الحركة .

ويلي ثساليا إقليمان هما لوكريس وفوكيس . لكن ينبغي ألا نغفل ذلك الإقليم الساحلي الصغير الذي يقع بينهما وهو إقليم ميليس أو ماليس (Malis) ، حيث يجري نهر اسبرخيوس (Spercheus) . ولم تكن لوادي هذا النهر الخصيب أية أهمية سياسية سوى استخدامه كطريق بري حيوي للمواصلات . ومن الجائز أن المهاجرين الأخيين استخدموه في العصور الأولى للوصول إلى البحر الإيجي ، وأما في العصر الهللينستي فقد هيأ « للحلف الأيتولي » منفذاً إلى نفس البحر . على أن الأهمية الكبرى لوادي اسبرخيوس قد استمدها من كونه الطريق البري الوحيد الذي يصل بين ثساليا ووسط بلاد اليونان ، وأنه يحرس المدخل المؤدي إلى ممر ثرموبيلاي (Thermopylae) والممرات الأخرى المتصلة به .

وأما عن ممر ثرموبولاي فهو طريق محصور بين جبل أويتا (Oeta) وخليج ماليس . وعند طرفيه الشرقي والغربي مدخلان ضيقان ، وفي وسطه منفذ لم يكن يسمح كما يقول هيرودوت إلا بمرور عربة واحدة . وقد أقام أهالي فوكيس عنده سداً من الحجر في وجه إغارات الثساليين . وتنحدر حافة الجبل انحداراً شديداً في اتجاه البحر بحيث يتعذر على أي جيش أن يجتازه

بشكل منتظم . بيد أن انحسار البحر وتوغل سهل ماليس فيه بسبب رواسب النهر ، غيّر من شكل هذا الممر المشهور بحيث لم يعد من السهل أن يتبين المرء معالمه القديمة . فعند هـــذا الممر صمدت قوة اسبرطية قليلة تحت قيادة الملك ليونيداس (Leonidas) أمام قوات فارسية ضخمة في عام ٤٨٠ . ولولا أن أحد الخونة الإغريق دل ملك الفرس «خشيارشاي» على ممر جانبي محاذ لمجرى نهر أسوبوس ، أتاح له أن ينفذ منه ويطوق الإسبرطيين ويقضي عليهم ، لما استطاع الفرس أن يشقوا طريقهم إلى الجنوب إلا بعد خسائر فادحة [١] .

وكان إقليم لوكريس (Locris) الذي يشغل منطقة فسيحة بـــين خليج ماليس وخليج كورنثه ، موزعاً بين ثلاث قبائل تكوّن كل منها دويلة مستقلة. ولا يعنينا منها سوى لوكريس الشرقية « الأبونتية » التي تطل على قنال يوبويا ولا تشتمل إلا على مساحة صغيرة من الأراضي المنزرعة . ولم تكن لهـا تجارة بحرية رائجة لأن خالكيس كانت تتحكم في مياه القنال . وترجع أهمية لوكريس الشرقية في التاريخ اليوناني إلى أنهـا كانت ، مثل وادي اسبرخيوس ، معبراً وطريقاً موصلاً إلى بلدة إلاتيا في وادي نهر كيفيسوس (Cephissus) . وأما لوكريس الغربية « الأوزولية » فتشغل المنطقة المطلة على الخليج الكورنثي وخليج كريسا في الجنوب الشرقي من أيتوليا . وفيهـــا تقع مدينة ناوباكتوس (Naupactus) الهامة ، التي كانت تسيطر ، بفضل موقعها الساحلي الممتاز ، على مدخل الخليج الكورنثي من الغرب . ولمـــا كان سكان لوكريس الغربية لم يهتموا بالملاحة ، فقد تركوا هذا الميناء الهام يقع في يد الأثينيين الذين أدركوا قيمته الاستراتيجية في القرن الخامس أثناء حربهم ضد كورنثة. وكانت لوكريس

---

(١) حدث ذلك فى الحملة الثانية للفرس على بـلاد اليونان فى الحروب المسماة بالحروب الميدية أو الفارسية . وقد دمر فيها الفرس أثينا نفسها . ولكنها انتهت بهزيمتهم في معركـــة سلاميس البحرية سنة ٤٧٩ .

الغربية ، كجارتها أيتوليا ، في عزلة شبه تامة عن بقية بلاد اليونان . ولذلك ظلت منطقة متأخرة الحضارة ، غير أن الحافة الشرقية منها كانت تنتظم جزءاً من سهل كريسا (Crisa) الخصيب والطريق الواصل بين الخليج الكورنثي وثرموبيلاي . وعلى هـذا الطريق تقع بلدة أمفيسا (Amphissa) ، التي اشتهرت بعداوتها لفوكيس وتحالفها مع بويوتيا ، وقامت بدور هام في «الحرب المقدسة الثالثة » التي نشبت في القرن الرابع [١] .

وأما فوكيس (Phocis) فتشغل المنطقة الوسطى من سهل كيفيسوس وشريطاً من ساحل الخليج الكورنثي إلى الشرق من خليج كريسا . وتنقسم في الواقع قسمين : الوادي الأعلى لنهر كيفيسوس ، وسلسلة جبل برناسّوس . وقد اكتسب القسم الأول أهميته من وقوع إلاتيّا (Elatea) فيه ، لأن هذه المدينة تسيطر على الطرق التي تربط بين فوكيس وبويوتيا عبر وادي كيفيسوس ، وبين فوكيس وأوبوس الواقعة على بحر يوبويا ، وبين بويوتيا وثرموبيلاي عبر جبل كاليدروموس . وهـذا يفسر سبب الذعر الشديد الذي استولى على الأثينيين عندما بلغهم في عام ٣٣٩ أن فيليب المقدوني استولى على إلاتيّا ، مهدداً بذلك طيبة ، أهم مدن بويوتيا ، التي تقع على بعـد أميال قليلة في الجنوب ، وأثينا نفسها التي لا تبعد عنها سوى مسيرة ثلاثة أيام . غير أن تاريخ فوكيس لا يرتكز على الحلف الفوكي بقدر ما يرتكز على مدينة واحدة فيه ، وهي دلفي (Delphi)

---

(١) هذه « الحروب المقدسة » كانت تثور بسبب طمع إحـدى المدن في السيطرة على دلفي ومعبد أبوللون والاستئثار بكنوزه والانتفاع بزراعة سهل « كريسا » وكلها كانت مقدسة وموقوفة على الإله أبوللون . وقامت « الحرب المقدسة » الأولى حوالي ٥٩٠ وفيها دمر الحلف الأمفكتيوني مدينة كريسا . وقامت الحرب الثانية في ٤٤٨ وفيها أعاد بريكليس دلفي إلى فوكيس بعد أن طردتها منها أسبرطة . وقامت الحرب الثالثة في خريف عام ٣٥٥ وفيها انتصرت فوكيس أولاً تحت زعامة فيلوميلوس وبعدئذ تحت زعامة أونومارخوس على طيبة زعيمة بويوتيا وحلفائهـا . واتسع نطاق هذه الحرب مما أدى إلى تدخل فيليب الثاني ملك مقدونيا .

مركز نبوءة الإله أبوللون ، التي تقع على السفح الجنوبي الغربي من جبل برناسّوس (Parnassus) الشاهق (٨٢٠٠ قدم) [١]. وكان الوصول إلى دلفي رحلة شاقة مجهدة . وقد توطد مركز المدينة المالي بفضل شهرتها الدينية ، وانفصلت بوصفها مدينة محايدة عن الحلف الفوكي منذ القرن السادس . وقد رأينا كيف تصور هكاتايوّس دلفي مركزاً لقرص الأرض [٢] وفي الحق إنها كانت في نظر اليونان مركزاً لدائرة بلادهم . وإذ كانت بلاد اليونان نفسها تحتل مركزاً وسطاً بين طرفي العالم القديم ، فقد اشتهرت دلفي أو بالأحرى الحجر المقدس في معبدها بأنه « سرة الأرض » (Omphalus) [٣] .

---

(١) أشتهر هذا الجبل بأنه كان ـ مثل جبل هليكون في بيوتيا ـ منزلاً لربات الفنون التسع .

(٢) راجع ص ١١ فيما تقدم .

(٣) كانت الأومفالوس (omphalos) أي السرة أسماً يطلق على الصخور أو الأحجار التي في شكل السرة . ومثل هذه الأحجار كانت مقدسة ومرتبطة بالعبادات في الديانات البدائية بمنطقه البحر الإيجي . وظلت مرتبطة بعبادات كثيرة حتى بعد أن تطورت الديانات وارتقى مستواها . وكان أشهر حجر في شكل السرة هو الموجود في قدس أقداس (adyton) معبد أبوللون في دلفي . وكان مقدساً منذ أقدم العصور ، وعثرنا على بقايا قرابين تؤيد ذلك . ولعل مكانها كان في الأصل مركزاً لعبادة الأرض بوصفها ربة الأمومة ثم أصبح فيما بعد مركزاً لعبادة أبوللون ، وموضع نبوءته الشهيرة . ويرسم أبوللون في الفن الإغريقي جالساً فوق هذا الحجر . وكان كل مكان في موضع مركزي يسمى « أومفالوس » أي « سرة المنطقة » . هكذا ساد الاعتقاد بأن حجر معبد دلفي ، القائم في وسطه ، هو علامة تميز مركز الأرض . وثمة أسطورة طريفة لتعليل ذلك تقول : أراد زيوس يوماً أن يعرف مركز الأرض فأطلق في الجو نسرين متماداين في السرعة في نفس اللحظة ، أحدهما من الطرف الشرقي للدنيا ، والآخر من طرفها الغربي ، فالتقى النسران عند دلفي . وقد أدى ذلك إلى وضع تمثالين لنسرين من الذهب بجانب الأومفالوس ، وهما اللذان نهبهما فيلوميلوس ، القائد الأعلى لقوات فوكيس ، في « الحرب المقدسة الثالثة » عام ٣٥٦ .

وأما الكتاب المتأخرون وغيرهم ممن لا يوثق برواياتهم فيسمون « السرة » مقبرة بيثون ، الأفعى الضخمة التي صرعها أبوللون ، أو مقبرة ديونيسوس ، إله النبيذ . وقد عثر الأثريون على هذا الحجر الشهير في دلفي .

ولقد سبقت الإشارة إلى أنهـــا كانت مركزاً لأشهر النبوءات في العـــالم الهلليني [١] . ومن الخير أن نتوقف هنا لحظة لنتعرف على دلفي ومركزها الديني والسياسي الهام ، ومعبدها الشهير ، ونبوءتها الأكثر شهرة.

دلفي ونبوءة أبوللون :

كان أبوللون (Apollôn) كغيره من آلهة أوليمبوس إلهاً متعدد الاختصاصات. لكنه كان يتميز عنهم بقدرته على كشف حجب الغيب [٢] . كان إلهـاً للغيب ،

---

(١) راجع ما تقدم في ص ١١٦ - ١١٧ ، ١٢٧ - ١٢٨.

(٢) لا ننسى أن زيوس ، كبير الآلهة ، قد عرف أيضاً بقدرته على التنبؤ . لكن شهرته في هذا المجال كانت أقل من شهرة أبوللون ، وكان أهم مركز لنبوءة زيوس هو معبده في بلدة دودونا (Dodona) في إبيروس (راجع ما تقدم في ص ١٢٧-١٢٨) وكذلك في بلدة أوليمبيا (Olympia) في إقليم إيليس . وكانت الأولى هي أقدم النبوءات في بلاد الاغريق ، وكانت الإجابات على أسئلة السائلين يحصل عليها عن طريق تفسير حفيف أوراق شجرة بلوط قديمـــة عندما تهب عليها الرياح . وفي بعض الأحيان كانت تعلق في الشجرة أوان نحاسية لتجعل الحفيف أكثر وضوحاً ورنيناً . وأحياناً أخرى كانت الإجابات على أسئلة السائلين تقوم على تفسير هديل الحمام الواقف على الأغصان أو خرير مياه أحد الينابيع . ومن ثم فقد عرفت كاهنات معبد زيوس في دودونا أحياناً باسم الحمام (Peleiai) . لكن سرعان ما حجبت نبوءة أبوللون في دلفي نبوءة زيوس في دودونا ، وصارت أهم نبوءة في كل بلاد الإغريق ، بل في العـــالم الهلليني كله .

- ومن النبوءات الأخرى في بلاد الإغريق نفسها نبوءة أسكليبيوس (Asclepius)البطل وإله الشفاء والطب، في إبيداوروس (Epidaurus)،التي تقع في شبه جزيرة ناتئة من الساحل الشرقي لأرجوليس ، ومطلة على الخليج الساروني . ففي داخل هذه المدينـــة كان يوجد معبد (hieron) للإله أسكليبيوس ، ابن أبوللون ، شيد في أوائل القرن الرابع ق.م وكان المرضى يأتون إلى حرم المعبد ويتطهرون ويصومون أو يمسكون عن أكل أطعمة معينة ثم =

ومن ثم إلهاً للنبوءة . وكان أهم مركز لنبوءته هو معبده في دلفي ولا سيا قدس أقداسه (adyton) حيث كان يوجد – في وسطه - حجر مقدس في شكل

=يضحون بحيوانات ويرقدون على جلودها أو فرواتها في رواق طويل ملحق بالمعبد . وينامون الليل فيرون رؤى وأحلاماً تتضمن وصفات لشفائهم من المرض . ويسمى هذا بالرقود «incubatio».

وفي الحق إن الشفاء كان عن طريق الإيمان حيث أن العلاج الطبي لا يذكر كثيراً ، أو لعـل الشفاء كان يتحقق بمزيج من الإيمان والأدوية . وتؤيد الإهداءات والنذور اعتقاد بعض المرضى بأن الشفاء تم بعد أن تجلى لهم الإله في الحلم . وعثرنا على نقوش مطولة في حرم المعبد دون عليها المرضى بالتفصيل كيف تم شفاؤهم بمعجزة من الإله . وفي بعض المعابد (كمعبد الإله المصري سرابيس في جزيرة ديلوس على سبيل المثـــال) كان يوجد مفسرون رسميون لتأويل الأحلام ، ومداحون يسبحون بنعم الإله وآلائه . ولا شك في أن بعض الوصفات الطبية أو « الروشتات » التي وجدناها منقوشة على الحجر في حرم المعبد كانت من تحضير الكهنة ، وهي ذات أهمية في دراسة تاريخ الطب القديم وكان لأسكيبيوس معبد شهير آخر في جزيرة قوس (Cos)

ـ كذلك اشتهرت نبوءة أمفياراوس (Amphiaraos) ، في بلدة أوروبوس (Oropus) في إقليم بويوتيا . وكان أمفياراوس عرافاً (نبياً) وبطلا من مدينة أرجوس . وقد تزوج أخت أدراستوس ، بطل أرجوس ، واشترك في الحروب المعروفة باسم « سبعة ضد طيبة » قبل الحرب الطروادية . وفي أثناء الحملة تعقبه العدو فهرب ولكن الأرض ابتلعته ، وكانت نبوءته في بلدة أوروبوس تقوم على تفسير الأحلام .

ـ وكان لتروفونيوس (Trophonius) ـ وهو في الأصل مهندس معماري عظيم من مدينة أورخومينوس في إقليم بويوتيا ـ نبوءة شهيرة جداً في بلدة ليباديا (Lebadea) في نفس الإقليم . وتقول الأسطورة إنه قـــام بالإشتراك مع أخيه ببناء معبد أبوللون في دلفي . وبعدئذ طالبا بالأجر فاستمهلتهما الكاهنة ثمانية أيام ناصحة إياهما بأن يعيشا هذه المدة في أقصى سعادة وسرور . لكنهما وجدا بعد انقضاء المدة ميتين في فراشهما . وفي روايه أخرى متأخرة أن الأرض انشقت وابتلعت تروفونيوس . وحدث بعد ذلك أن ابتلى إقليم بويوتيا بقحط شديد . ونصح العراف أهل الإقليم بالإتجاه إلى قبر تروفونيوس حيث أنه وحده قادر على أن ينبئهم بطريقة للخلاص من المجاعة . وقيل إن أسراب النحل هي التي دلت على مكان قبره في كهف ببلدة ليباديا . وكان تروفونيوس عند حسن ظنهم فأرشدهم إلى طريق الخلاص من المجاعة . =

السُرّة ، التي تعرف في اليونانية بلفظ « أومفالوس » . وفي هذا المكان كانت كاهنة أبوللون المسماة بيثيا (Pythia) هي التي تعطي الإجابات على أسئلة المتسائلين عن المستقبل . وكانت في أول الأمر إمرأة صغيرة السن ، لكن فيما بعد كانت إمرأة مُسنة . كانت الكاهنة تجلس على مقعد ذي ثلاثة قوائم أو ثلاثة أرجل يسمى تريبوس (tripous) ثم تروح فيما يشبه الغيبوبة بطريقة لا تزال خافية علينا . لعلها كانت تمضغ أوراق الغار أو تشرب سائلاً معيناً لا نعرف كنهه ، وتتقمصها روح الإله أبوللون فتهذى بالإجابات. وكان المستفسرون

= لذلك مجدوه ورفعوه إلى مصاف الآلهة . ومنذ ذلك الحين اشتهرت نبوءة تروفونيوس وأصبح كهفه في ليباديا مزاراً للناس من كل أنحاء بلاد الإغريق . كانوا يحجون إليه لاستشارة نبوءته في شتى المسائل . وكان عليهم أن يقوموا بعدة طقوس معقدة أهمها دخول السائلين الكهف ونزولهم في أغواره (أو اختطافهم في باطن الأرض مثلما اختطف تروفونيوس نفسه) حيث كانوا يتلقون الإجابات عن أسئلتهم أو يتلقون - إذا كانوا مرضى - وصفات طبية للشفاء من أمراضهم على غرار نبوءة أسكليبيوس في إبيداوروس .

- وأما عن الآلهة غير اليونانية فإن آمون ، الإله المصري ، كان له هو الآخر نبوءة في الواحة المعروفة قديماً بواحة آمون وحالياً بواحة سيوه . وقد اكتسبت هذه النبوءة شهرة واسعة في العالم الهلليني ، ويشير إليها شعراء المسرح الإغريقي في القرن الخامس ق.م. وقد تكبد الإسكندر الأكبر مشقة كبيرة لكي يزورها ويستشير الإله في مشروع حملة عندما غزا مصر (٣٣٢ - ٣٣٠) .

- وفي سوريا كانت توجد مراكز للنبوءة لآلهة يونانية أو آلهة شرقية شبهت بالآلهة اليونانية .

- وفي إيطاليا كانت أشهر النبوءات هي نبوءة الموتى في أفرنوس (Avernus) قرب بوتيولي وكوماي (عند خليج نابلي) ، ونبوءة الإله فاونوس (Faunus) ، وهي نبوءة شفاء - في بلدة تيبور Tibur (بإقليم لاتيوم) ، وأخيراً نبوءة ربة الحظ (Fortuna) في بلدة براينستي (Praenestê) بنفس الإقليم .

عن المستقبل يتطهرون أولاً ويقدمون القرابين قبل التقدم نحو مكان النبوءة ، ويدخلون في ترتيب معين لعله كان يتم عن طريق القرعة . وكان هناك كاهن يتلقى اسئلتهم ثم يأتي لهم بإجابة الكاهنة (بيثيا) ويفسرها لهم . وغالباً ما كان معنى الإجابة غامضاً ويحتمل تأويلين ، لأن الإله الذي تنطق النبيّة بوحي منه معصوم من الخطأ وصادق أبداً . فإذا حدث ولم تتحقق النبوءة أو جاءت الأيام بعكس ما تكهنت به ، فإن هذا لا يرجع إلى خطأ الإله ، إنما يرجع إلى أن السائل لم يفهم الإجابة على وجهها الصحيح ، بل فهمها على وجهها الخاطىء ، إذ أخذ بتفسير تاركاً التفسير السليم الآخر . وكانت الأسئلة تدّون كتابة وكذلك الإجابات التي كانت تعطى كأبيات منظومة شعراً (من البحر المسمى بالسداسي hexametron) وغالباً في اليوم السابع من الشهر ، وهو عيد ميلاد أبوللون[1] . وكان الناس يأتون إلى هذا المكان المقدس من كل فج عميق . كان يحج إليه الاشخاص العاديون التماساً لمشورة الإله قبل الإقدام على أي مشروع كالزواج ، والصفقات التجارية ، بل وعن أسباب العقم . وكذلك كانت دول المدن نفسها تبعث بوفود رسمية (theoroi) إلى دلفي لاستشارة نبوءة الإله قبل الإقدام على مشروعات هامة أو خطيرة وفي مقدمتها تأسيس المستعمرات ودخول الحرب[2] .

وكانت إجابات كاهنة دلفي على الأسئلة الدينية الشعائرية تتسم بالتحفظ وعدم التحيز . فكانت النبوءة تنصح المتسائلين بأن خير وسيلة للعبادة هي

---

(١) أبوللون هو ابن زيوس من الجبارة « ليتو » . ولد بجزيرة ديلوس . وقد سبقته أخته التوأم أرتميس ، ربة الصيد ، بيوم واحد .

(٢) وثمة ملاحظة جانبية وهي أنه كان يمكن عتق العبيد بنذرهم للإله أبوللون في دلفي أو ببيعهم له بيعاً صورياً . ويصبحون عتقاء (apéleutheroi) إذ يصبح الإله ضامناً لحريتهم . وكان من يعتقون بهذه الطريقة يعرفون أحياناً في العصر الهللينستي باسم « عبيد المعبد» (hierodouloi)

أن تكون وفقاً للعرف المتبع أو العادات المتوارثة في المدن التي ينتمون إليها .

كانت عبادة ديونيسوس (Dionysus) ، الشهير أيضاً باسم باكخوس (Bacchus) ، إله النبيذ ، قد وفدت متأخرة إلى بلاد الإغريق . وكانت ذات طابع يختلف جوهرياً عن العبادات الإغريقية المتسمة بالاعتدال وضبط النفس ، ومن ثم تتعارض مع المثل التي تتضمنها عبادة أبوللون . غير أن ديونيسوس وجد له مكاناً إلى جانب أبوللون في دلفي لأن طريقــة الكاهنة في إعطاء النبوءة كانت تتشابه وطريقة عبادة ديونيسوس حيث كانت المتعبدات له بوجه خاص يرحن في غيبوبة بعد شراب النبيذ ، هبة هذا الإله للبشر ، والرقص على أنغام الموسيقى ، وتطويح أجسامهن يمنة ويسرة ، والصخب الشديد ، يرحن في غيبوبة فيتصورن كأن روح الإله قد تملكتهن أو أنهن قد اتحدن به تماماً ، فيصرن شبه « مجذوبات » أو « مجنونات » . ولذلك أدت وجوه التشابه هذه إلى المصالحة بين أبوللون ، الإله القديم ، وبين ديونيسوس الجديد ، وتعايش الإلهان سلمياً في دلفي . وقد ساعد ذلك على نشر عبادة ديونيسوس وعلى الأخص بين النساء والعبيد والفقراء . هكذا لقي ديونيسوس ترحيباً في حرم دلفي المقدس بل أصبح شريكاً لأبوللون في معبده حتى لقد قيــل – فيما بعد – أن السرة أو الحجر الموجود في قدس أقداس المعبد كان يضم رفات ديونيسوس (١) .

وقد ازدادت أهمية دلفي وارتفع شأنهـا أثناء الفترة المسماة بعصر الإستعمار الإغريقي (٧٥٠ – ٥٥٠) إذ كانت دول المدن الإغريقية تبعث بانتظام بوفود رسمية (theôriai) إلى دلفي لتستطلع رأي الإله – عن طريق نبوءته – في مدى ملاءمة موقع المستعمرة المزمع إنشاؤها في الخارج ، وفي الإله الذي ينبغي أن

---

(١) راجع ص ١٣٣ حاشية ٣ .

تتخذه المستعمرة راعياً لها [١] . وتنسب الروايات المتواترة إلى أبوللون وضع كثير من قوانين المدن اليونانيـة كدستور ليكورجوس (Lycurgus) في اسبرطة ، على سبيل المثال لا الحصر . وبالتـالي مساهمته في تطوير الحضارة . ويتبين من التنبؤات السياسية التي صدرت عن معبد دلفي أن كهنتـه كانوا على معرفة واسعة بالأحداث الجارية والأحوال السائدة والأوضـاع القائمة في مختلف المدن الإغريقية . لقد كانت دلفي بمثابة مركز لجمع المعلومات من أنحاء العـالم الهلليني . ولذلك كانت تنبؤات معبدها صحيحة فيما عدا بعض استثناءات قليلة صارخة لا نعرف لها تفسيراً . كذلك يتبين من الإجابات ميل الدوائر المسئولة في دلفي إلى التحفظ والحياد، وإن لم تخل أحياناً من محاولات لمواءمتها دبلوماسياً مع الظروف المتغيرة . وليس من المستبعد أن يكون المعبد قد وقع أحياناً تحت تأثير عوامل قاهرة جعلته يعطي إجابات غير محـايدة [٢] . فمن المعروف أن

---

(١) كان أعضاء هذه الوفود الرسمية التي ترسلها مختلف المدن إلى مراكز النبوءة الكبرى (كدلفي مثلا) يعرفون باسم ثيوروي (theôroi) ، وهو لفظ معناه الأصلي « الشاهدون » أو المسافرون للسياحة . وأصبح يطلق على السـفراء الرسميين الذين كانت المدن اليونانية تبعثهم لحضور احتفالات المدن الأخرى ، ويقومون بتمثيلها هناك . وكانت الاحتفالات الهللينية الجامعة أي الدولية (كالدورة الأوليمبية) تحضرها وفود رسمية (theôriai) من كل الدويلات اليونانية. كذلك أصبح لقب ثيوروي (theôroi) يطلق على هؤلاء المبعوثين الذين ترسلهم المدن للإعلان عن موعد احتفال أو عيد ديني معين ، وعن إنشاء احتفالات رياضية دوليه جديدة (كما حدث في القرن الثالث ق.م) ، أو عن إبلاغ كل المدن عن إقامة مباريات جديدة . هكذا أصبحت كلمة « ثيوروي » لقباً لكل السفراء الرسميين المبعوثين في مهام ذات طابع ديني أو شبه‌ديني. وكانت المدن تعهد إلى لجنة رسمية بمهمة استقبال هؤلاء المبعوثين ، ويسمى أعضاؤهـا (theôrodokoi) .

(٢) يلاحظ أن مراكز النبوءة كانت غالبـاً في أماكن بعيدة عن الدويلات القوية ذات النفوذ الكبير .

السلطات في دلفي كانت تتعاطف مع الحكومات الأرستقراطية وتناوىء حكومات « الطغاة » الذين قاموا بانقلابات إبّان الأزمات الداخلية أو الخارجية بتأييد من الجماهير وأطاحوا بالحكومات الأرستقراطية في كثير من المدن الإغريقية خلال القرنين السابع والسادس : وكانت اسبرطة تبارك حكم الطغاة وتؤيد قيامه في المدن الأخرى . لقد كان موقف دلفي من الطغاة متمشياً مع مبادىء أبوللون الذي أشتهر بمناهضة حكمهم . ذلك أن الطغاة ، ولا سيما الجيل الثاني منهم تملكهم الزهو والغرور ، وانقلبوا قساة ، واتصفوا بالتجبر والغطرسة . وكانت الغطرسة التي يسميها الإغريق « هيبريس » (hybris) ، خطيئة مذمومة لأنها تنطوي على الإفراط في الكبرياء ، وتثير غضب الآلهة وتتعارض مع حكمة أبوللون في أن يعرف الانسان قدر نفسه ولا يتجاوز حدوده أو ينسى أنه بشر فيمشي في الأرض مرحاً ويتعالى حاسباً أنه قد اقترب من السماء أو صار كفواً للآلهة . لذلك قاومت دلفي أسرة الطاغية بيسستراتوس في أثينا ، وأورثاجوراس في سيكيون . ومع هذا فقد تنبأت باستيلاء معظم « الطغاة » على الحكم في المدن اليونانية ، وتعاطفت مع كرويسوس ملك ليديا الغني حتى سقوطه ، وحضت الإغريق على عدم مقاومة الفرس ، وتحيزت لاسبرطة في الحروب البلوبونيزية ، وأيدت فيليب المقدوني في غزوه لبلاد الإغريق . وقد يبدو هذا الموقف غريباً ، لكنه يكشف عن وقوع دلفي أحياناً تحت تأثير عوامل قوية وتسليمها بالأمر الواقع أو وشيك الوقوع ، وعن رغبة في المهادنة حتى يكف الغزاة أيديهم عن كنوزها . وإذا كان الفرس – على عكس ما تنبأت دلفي – قد انهزموا في النهاية ، فإن هذه الهزيمة لم يكن في وسع أي إغريقي ، مهما بلغ تفاؤله ، أن يتكهن بها . ولا ينبغي أن ننسى أن بعض الدويلات الإغريقية التي تقع في شمال بلاد الاغريق ووسطها ، وتحيط بدلفي تقريباً ، وتوقعت أن تتلقى الصدمة الأولى للهجوم الفارسي ، قد وقفت على الحياد أو انحازت صراحة إلى

الفرس ضد بني وطنهم الاغريق سواء بدافع الخوف من بطش الغزاة أو تحت إغراء الرشوة .

ولما كان أبوللون هو الإله الحجة في كل ما يتصل بشعائر العبادة عند الإغريق فقد أصبح رباً للتطهير (katharsis) ، وعلى الأخص التطهير من جريمة قتل المحارم ، حيث أن اليد الملوثة بدماء ذوي القربى كانت – وفقا للتصور البدائي – تظل دائماً ملوثة ، وتلحق الجريمة بالقاتل رجساً أو دنساً لا يزول زوالاً تاماً. وقد لوحظ أن نبوءة دلفي كانت تعنى عناية خاصة بأسئلة الأفراد المتعلقة بالسلوك الخلقي . ويبدو أنها كانت تقف بحزم في المسائل الخلقية .كانت تنادي بأن الطهارة ليست مسألة مظهرية كغسل البدن فقط أو ممارسة الطقوس الشكلية ، بل هي في الأساس طهارة الروح ، وأن النية قد تكون أهم من الفعل ، أو كما نقول نحن « إنما الأعمال بالنيات ». وبذلك تكون ديانة أبوللون – كما تمثلت في نبوءته بدلفي – قد بلغت أعلى مستوى خلقي في العالم الوثني القديم . وكانت الحكم المشهورة المحفورة في جدران معبد ابوللون في دلفي –على إيجازها وبساطتها – عظات خلقية ،مثل «إعرف نفسك»(gnôthi seauton) « وإياك والأفراط » (mèden agan) [1] .

---

(١) لم يكن لأبوللون مراكز أخرى للنبوءة داخل بلاد الإغريق اللهم إلا في بويوتيا .لكن هذا الإله كانت له مراكز للنبوءة خارج بلاد الإغريق الأصلية وكانت أوسعها شهرة نبوءته في معبد ديديما (Didyma) ، ونبوءته في معبد كلاروس (Claros) . كانت ديديما إحدى المدن اليونانية التي تقع على الساحل الأيوني ، على بعد أحد عشر ميلا من ميليتوس (Miletus) وقد أحرق الفرس معبد أبوللون في ديديما عام ٤٩٤ (أثناء الثورة الأيونيه التي أدت إلى قيام الحروب الفارسية). وبعد فتح الإسكندر الأكبر لمدينة ميليتوس عام ٣٣٤،أعيد تنظيم عبادة أبوللون في ديديما حيث شيد أهل ميليتوس أضخم معبد في العالم الهلليني، ومنذ ذلك =

كانت أهمية دلفي تتمثل قبل أي شيء آخر في أنها كانت نقطة التقاء الدول المدن الإغريقية التي مزقتها الخلافات . وقد تمتعت بمركز فريد ونفوذ شامل ، وكلاهما كان ضرورياً لكي تتمكن من أداء رسالتها في تجميع صفوف الإغريق وتسوية الخلافات بينهم (عن طريق التحكيم) . وفي الحقيقة أننا لا نستطيع أن نفسر تفسيراً كاملاً سبب هذا المركز الفريد والنفوذ الشامل . لكن يمكن أن نعزوه إلى بضعة عوامل ، أحدها هو طريقة التنبؤ المثيرة (وهي على نقيض التنبؤ الهادىء عن طريق فحص أحشاء الحيوان أو مراقبة مسار الطيور وهو ما يسمى بالعرافة او الطيَرة) ، والآخر هو الإقبال على دورة الأعياد البيثية الدولية التي انشئت ـ على نحو ما رأينا ـ بعد « الحرب المقدسة الأولى » (٥٩٠) ، وأما العامل الثالث فهو ارتباط دلفي « بالحلف الدلفي الأمفكتيوني » ، وهو حلف قوي نشأ بين الدويلات الشمالية . ولا يزال التاريخ المبكر لهذا الحلف الأمفكتيوني يكتنفه الغموض ، وإن يكن من المؤكد أن مركزه كان أصلاً في الشمال ، وأن دلفي لم تندمج فيه على ما يرجح ـ إلا منذ أواخر القرن السابع . وعندما

= الوقت صارت ميليتوس تشرف على شئون العبادة في هذا المعبد إشرافاً مباشراً وكان يعين لهسنوياً كاهن يساعده أمينان للخزانة (tamiai) ومجلس تنفيذي (kosmoi) . وكانت تنطق بالنبوءة هنا كاهنة أو نبية على نحو ما كان يجري في دلفي . وقد أنشىء احتفال رياضي سنوي يسمى ديديمايا (Didymeia) ولم يلبث أن أصبح عيداً دوريا هللينيا عاما لكل الاغريق منذ أوائل القرن الثاني ق.م .

وتقع كلاروس أيضاً على ساحل أيونيا بالقرب من مدينة كولوفون (بين إفيسوس ولبيدوس) . وكان يقوم فيها منذ القدم معبد لأبوللون . غير أن أقدم إشارة لدينا إلى نشاط هذه النبوءة يرجع إلى القرن الرابع ق.م ولم تحظ نبوءة أبوللون في كلاروس بشهرة واسعة إلا في عصر الإمبراطورية الرومانية .

ـ وجدير بالذكر أنه كانت هناك مراكز لنبوءة أبوللون في إقليمي ليكيا وطروادة بالأناضول .

تم الاعتراف بدلفي كمركز عام للعبادة في القرن الخامس ، أصبح مجلس الحلف (synedrion) ممثلاً للدويلات الإغريقية عامة . وقد قبلت مقدونيا عضواً في هذا الحلف نظير المساعدة التي قدمها فيليب الثاني للحلف ضد أهل فوكيس فيما يسمى « بالحرب المقدسة الثالثة » (٣٥٥ - ٣٤٦) .

وقد تدهور نفوذ دلفي والحلف الأمفكتيوني في العصر الهللينستي تدهورا سريعـــاً ، وإن كان ملوك الدول الهللينستية الجديدة ، الذين كانوا حريصين على توثيق صلاتهم ببلاد الإغريق لأسباب كثيرة ، عملوا على التقرب من دلفي واسترضائها بشتى الوسائل ، إذ كانت أيضاً لاتزال مركزاً لجمع المعلومات من أنحاء العالم الهلليني . لكن دلفي كانت برغم هذا تدنو من نهايتها . فقد استولى « الحلف الأيتولي » على المدينة حوالي عام ٣٠٠ . وتعرضت دلفي لإغارة الغال في عام ٢٧٩ . ثم تعرضت في العصور التالية للتخريب على يد الغزاة المتبربرين . ولم يتورع الدكتاتور الروماني سُلاّ (٨٦ — ٨٥) عن نهب كنوز معبدهـــا ، واستغلها في خدمة أغراضه العسكرية . لكن دلفي عـادت وانتعشت انتعاشاً مؤقتاً في عصر الإمبراطور الروماني هادريان (١١٧ — ١٣٨ م) . لكن هذا الانتعاش المصطنع قصير المدى كان أشبه بصحوة الموت . ذلك أن « عـــلم التنجيم » حل محل مختلف طرق التنبؤ القديمة كالعرافة والطيرة وغيرهما . كمـا ظهرت مراكز أخرى منافسة لدلفي . وتلقت دلفي الضربة القاضية عندمـــا أعلنت المسيحية ديانة رسمية للدولة الرومانية في عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الأول (٣٨٠ — ٣٩٢م) .

ويشبه إقليم بويوتيا (Boeotia) إقليم تساليا في بعض نواحيه الجغرافية لأنه بمثابة حوض نهري يكاد يكون محصوراً بين الجبال . ففي الجنوب يقع جبل هليكون (Helicôn) ، وهو امتداد لسلاسل الجبال الساحلية في بلاد اليونان

الوسطى . وقد اشتهر هذا الجبل ، الذي يبلغ ارتفاعه ٥٨٦٨ قدماً ، بأنه منزل ربات الفنون التسع (Musae)[1] ، وفقاً لما ورد عند هيسيود . كما تمتـــد

---

(١) كن ربات أو ملهمات الشعر والأدب والموسيقى والرقص وبعدئذ أيضاً الفلـك والفلسفة وكل الهوايات الفكرية . وفي آخر العصر الروماني تحدد اختصاص وشعار كل ربة منهن :

- كالليوبى (Calliopê) ربة الشعر الملحمى (epos). وشعارها اللوحة والقلم.

- كليو (Clio) ربة التاريخ. وشعارها لفافـة (بردية) منشورة أو صندوق يحتوي على لفافات بردية.

- يوترپي (Euterpê) ربة العزف على المزمار(aulos). وشعارها المزمار ذو البوصة أو البوصتين. وهذه الربة هي التي يحمل اسمها الكتاب الثاني من تاريخ هيرودوت الذي يصف فيه أحوال مصر (عند منتصف القرن الخامس ق.م.).

- ترپسيخوري (Terpsichorê) ربة الرقص والغنـــاء الجوقي (chorus) المصحوب بالقيثارة (cithara) . وشعارها القيثارة وريشة العزف على أوتارها .

- إراتو (Eratô) ربة الشعر الغنائي (lyric) أوالتسابيح والأناشيدالدينية(hymnoi) . وشعارها القيثارة الصغيرة أي الربابة (lyra) .

- ملبوميني (Melpomenê) ربة التراجيديا . وشعارهـا القناع أو عصا هيراكليس أو السيف .

- ثاليا (Thalia) ربة الكوميديا . شعارها القناع المضحك أو إكليـــل من اللبلاب . (كذلك أصبحت ربة للشعر الرعوي ، وشعارها عندئذ هو عصا الراعي).

- بوليهيمنيا (Polyhymnia) ربة فن التمثيل (mimos) . وليس لها شعار ، وإنما تقف وقفة المرأة التأملة المستغرقة في التفكير.

- أورانيا (Urania) ربة الفلك . وشعارها عصا تشير إلى الأبراج السماوية .

وكان جبل برناسوس في فوكيس يعتبر هو الآخر مقدساً لهن مثلمـــا كان مقدساً لأبوللون رب الموسيقى والفنون . وأشهر مكان ينسب إليهن هي دار الفنون والعـــلوم بالإسكندرية المسماة في اليونانية(Mouseion) وفي اللاتينية (Museum) والتي أنشأها البطالمةفيتلك المدينة =

الجبال على حدودها الشمالية الشرقية المتاخمة لقنال يوبويا ، ويكمل هذه الحلقة جبلا كيثايرون وبارنيس . وأهم ظاهرة جغرافية في بويوتيا هي بحيرة كوبائيس (Copaîs) الكبيرة التي كانت تتوسطها ولكنها اختفت الآن . وقد كان للأبخرة المتصاعدة من هذه البحيرة تأثير سيىء في مناخها الذي كان بارداً رطباً في الشتاء وحاراً رطباً في الصيف يبعث على الكسل والخمول ولم يكن لطيفاً أبداً كما يقول هيسيود ، وهو أحد أبنائها . وليس من المستبعد أنه كان أحد العوامل التي جعلت سكان بويوتيا بلداء بطيئى الفهم بالقياس إلى جيرانهم الأثينيين . كما أن توغل بحيرة كوبائيس في سهل بويوتيا كان له أثر آخر : فقد شطرها تقريباً شطرين ، أحدهما في الشمال والآخر في الجنوب . وقد نجم عن هذا الانقسام الجغرافي انقسام سياسي تأثر به تاريخها إلى حد كبير . ففي الجنوب كانت طيبة (Thebac) أكبر مدن الاقليم كله تسيطر على وادي نهر أسوبوس (Asopus) وتتوسط الممرات المتفرعة من جبلي كيثايرون وبارنيس ، فكانت بالتالي بمثابة حلقة الوصل بين بويوتيا وأتيكا أو البلوبونيز . ولما كانت طيبة هي التي أنجبت قادة بويوتيا العسكريين وزعماءها السياسيين ، فقد أهلها ذلك لأن تكون عاصمة للإقليم . وقد أثبتت جدارتها بهذا المركز عندما اضطلعت

= ليتوفر فيها الأدباء والعلماء على البحث والدراسة ،وصارت أشبهما تكون بالأكاديمية أو الجامعة. ومن الواضح أنها كانت أصلا معبداً لربات الفنون (Musae) ثم تحولت إلى دار للفنون والعلوم في الإسكندرية (القرن الثالث ق.م) .

ويروى في الأساطير الإغريقية أن « ربات الفنون » هن بنات أنجبهن زيوس من منيموسيني (Mnemôsyne) ، وهي ربة « الذاكرة » أو « التذكر » وأسم بناتها فى الأصل مونساي (Monsai) « بمعنى اللائي يذكرن الناس أو يلهمنهم » ثم انقلب الاسم إلى موساي Mousai وفقا لمقتضيات اللغة ، وصار فى اللاتينيـة يكتب Musae محتفظاً بالنطق اليوناني . وتعرف ربات الفنون عند الرومان أحياناً باسم كاميناى (Camenae) .

في خلال القرن الخامس والقرون التالية بمهمة توجيه سياسة « الاتحاد الفيدرالي البويوتي ».

وفضلا عن ذلك فإن بويوتيا كاتحاد فيدرالى تحت زعامة طيبة كانت خليقة بأن تصبح القوة الموجهة في بلاد اليونان بوجه عام . ذلك أن أراضيها كانت على قدر من الخصوبة يتيح لها أن تستوعب عدداً ضخماً من السكان. وكان فلاحوها، وهم عصب المجتمع البويوتي، من خيرة الجنود الإغريق . وقد تمتعت بميزة أخرى ألا وهي موقعها المتوسط بين دول المدن اليونانية . غير أن طيبة وجدت لهـا خصماً في مدينـــة أورخومينوس (Orchomenus)وهي المدينة الرئيسية في وادي نهر كيفيسوس الذي يقع في شمال بحيرة كوبائيس. ومع أن أورخومينوس لم تستطع أن تزحزح غريمتها عن مركز الزعامة ، إلا أنهـا استخدمت كنقطة تجمع للاتجاهات الانفصالية التي نشأت بين المدن الصغيرة ، وبذلك حالت دون اندماج بويوتيا كلها في دولة واحدة أو اتحاد متين . ولهذا كانت الزعامة التي أحرزتها بويوتيا قبيل منتصف القرن الرابع دوراً عابراً في تاريخها ارتكز أساساً على عبقرية رجل واحد وهو قائدها الفـــذ إبامينونداس Epaminondas (٣٧١ - ٣٦٢) .

ومن ينظر إلى الخريطة يجد أن بويوتيا تطل على ثلاثة بحار (خليج كورنثة وخليجي بحر يوبويا) . وقد يستخلص من ذلك أنه قد توافرت لها فرص عظيمة لتنمية تجارتها وترويجها في اتجاه إيطاليا والبدردنيـل والشرق الأدنى . غير أن ميناءها الوحيد وهو ميناء أوليس (Aulis) كان عسر المدخل ولا يصلح مثل خليج أكنيوم ، إلا لتجمع أسطول كأسطول الأمراء الأخيين الذين ورد في الإلياذة أنهم أبحروا منه إلى طروادة تحت قيادة أجاممنون . وأما الساحل الغربي فكان معزولاً عن « الظهير » أي المنطقة الخلفية بسلسلة تكاد تكون متصلة

من الأراضي الجبلية الوعرة . ولهذا كان إشراف بويوتيا على عدة بحار ، ميزة صورية أكثر منها حقيقية . وقد شارك أهل بويوتيا بوجه عام مواطنهم هيسيود في عزوفه عن البحر ، كما أن المحاولة التي قام بها إبامينونداس لكي يفرض سيطرة بلاده على البحر الإيجي أخفقت عقب الحملة الأولى.

لكن إذا كانت بويوتيا قد أخفقت في فرض زعامتها على بقية بلاد اليونان ، فإنها قامت بدور متصل في التاريخ اليوناني ولم يكن في وسعها أن تقف مثل ثساليا بمعزل عن مجرى أحداثه . ذلك أن موقعها المتوسط جعل منها ممرا للجيوش ، كما أن سلاسل الجبال المحيطة بها لم تكن شاهقة أو متصلة حتى تعوق اتصالها بالخارج. وقد نجم عن ذلك أن تعرضت للغزوات المتكررة من الشمال والجنوب حتى أنها سميت « بمسرح القتال » . وحسب القارىء أن يعرف أن خيرونيا (Chaeronea) وكورونيا (Coronea) وأوينوفيتا (Oenophyta) وديليوم (Delium) وليوكترا (Leuctra) ، وهي مواقع حربية شهيرة في التاريخ اليوناني ، كانت كلها تقع في بويوتيا . غير أن بويوتيا تعرضت أيضاً لتيار الحضارة اليونانية ، وأسهمت بدور في تلك الحضارة على الرغم من سخرية الأثينيين من بلادة أهلها وبطء فهمهم .

وأما يوبويا (Euboea) فكانت في الأصل أرضاً متصلة ببلاد اليونان ثم انفصلت عنها وأصبحت جزيرة . ولا يزيد عرض القنال الذي يفصلها عن الساحل الشرقي لبلاد اليونان في أضيق نقطة على ٣٠٠ قدم ، وقد أقيمت عندها قنطرة ربطت بين بويوتيا ويوبويا في آخر القرن الخامس . كما أن سلسلة جبال يوبويا هي فيما يبدو إمتداد لسلسلة الجبال الرئيسية في ثساليا ووسط بلاد اليونان . وقد عرفت أضيق نقطة في قنال يوبويا باسم مضيق يوريبوس الذي سبق أن تحدثنا عن تياره القوي السريع ، وقلنا إنه لم يكن يثبت على حال حتى أنه أثار دهشة

القدماء [1] . وتقع أخصب مناطق الجزيرة في الشمال وفي سهل ليلانتوس (Lelantus) الذي يطل على مضيق يوريبوس وكانت سفوح جبالها ولا تزال غنية بالغابات . وقد وجدت يوبويا مجالاً لتصريف منتجاتها في أسواق أثينا التي كانت تعتمد في بعض الأحيان اعتماداً كبيراً على ماشية هذه الجزيرة وحبوبها وأخشابها . ويحدثنا المؤرخ توكيديديس عن الأهمية البالغة ليوبويا بالنسبة لأثينا في نهاية الحرب البلوبونيزية (٤٣١ — ٤٠٤) . وتتألف ثروة الجزيرة المعدنية من النحاس والحديد اللذين كانا يستخرجان من مناجم قريبة من خالكيس (وهو اسم يتضمن معنى النحاس) ، وإليهما يرجع الفضل في رخاء تلك المدينة منذ وقت مبكر . وقد لقي أيضاً الرخام الأبيض والأخضر الذي كان يستخرج من مدينة كاريستوس (Carystus) ، وهي في جنوب الجزيرة ، رواجاً كبيراً في الأسواق الرومانية .

غير أن أهمية يوبويا ترجع على الأخص إلى موقعها الممتاز الذي يتحكم في مداخل خليج بجساي والطرق الممتدة بين شمال البحر الإيجي والخليج الكورنثي . ففي الطرف الشمالي من الجزيرة كانت مدينة هستيايا (Hestiaca) تقوم بدور المحطة على الطريق التجاري بين قنال يوبويا وثساليا ومقدونيا ، الأمر الذي جعل أثينا تطمع في الاستيلاء عليها . ولكن تاريخ يوبويا كان يدور حول مدينتي خالكيس (Chalcis) وإريتريا (Eretria) اللتين اقتسمتا حاصلات سهل ليلانتوس والسيطرة على مضيق يوريبوس . . وقد قامت هاتان المدينتان في الفترة الأولى للتوسع اليوناني عبر البحار بدور هام في نقل المهاجرين وتأسيس المستعمرات [2] . وكان من الممكن أن يقوما بدور سياسي هام في تاريخ بلاد

(١) راجع ما تقدم في ص ٣٢ .

(٢) نشطت المدينتان في تأسيس مستعمرات وعلى الأخص في شبه جزيرة خالكيديكي خلال القرنين السابع والسادس . وكانت من بينها أولينثوس ومندي وميثوني .

اليونان . غير أنها انهارتا بعد ذلك انهياراً سريعاً . ولعل ذلك يرجع إلى تحول المنافسة بينهما إلى عداوة مستحكمة ونزاع مسلح ، كما يرجع أيضاً إلى عرقلة تجارتها على أيدي دول مدن الخليج الساروني القوية مثل آجينا وكورنثه وأثينا. ومع هذا فقد اكتسبت خالكيس وإريتريا أهمية جديدة في العصر الهلينستي كمراكز متوسطة أمن بها ملوك مقدونيا مواصلاتهم البحرية مع كورنثة التي استخدموها هي وخالكيس وديمتريياس كنقط ارتكاز أو «أغلال» للتحكم في بلاد اليونان .

اتيكا :

وأما أتيكا (Attica) ـ حيث تقع أثينا ـ فهي شبه الجزيرة المثلثة الشكل التي تبرز من جنوب بويوتيا في داخل البحر . ويفصلها عن بويوتيا جبلان هما كيثايرون (Cithaeron) وبارنيس (Parnes) اللذان يكونان مع بنتليكوس (Pentelicus) في الشرق سلسلة تكاد تكون متصلة من الخليج الكورنثي حتى البحر الإيجي . وإلى الجنوب من الجبل الأخير يقع جبل هيميتوس (Hymettus) . وهذه الجبال في مجموعها غير شاهقة إذ أن أعلاها لا يزيد ارتفاعه عن ٤٧٠٠ قدم . وعبر هذه الجبال توجد عدة ممرات أهمها ممر فيلي (Phylê) الذي يسير عبر جبل بارنيس في الوسط واحتله ثراسيبولوس (Thrasybulus) قبل مهاجمة حكومة الطغاة « الثلاثين » في أثينا عام ٤٠٤ ؛ وممر بلاتيا (Plataea) في الغرب ، الذي يسير من طيبة عاصمة بويوتيا مخترقاً جبل كيثايرون حتى سهل إليوسيس ؛ وأخيراً ممر ديكيليا (Decelea) في الشرق ، الذي يسير من أروبوس (Oropus) المطلة على بحر يوبويا إلى أثينا عبر جبل بارنيس، وهو طريق الغزاة الإسبرطيين في الحرب البلوبونيزية . وتقسم الشعاب المنحدرة من هذه السلسلة الجبلية إلى الجنوب إقليم أتيكا إلى أربعة سهول :

١ ـ سهل إليوسيس (Eleusis) أو ثريا (Thria) الذي يقع في الغرب على الساحل في مواجهة جزيرة سلاميس .

ب - سهل أثينا (أو كيفيسوس) الذي يفصله عن السهل الأول جبل أيجاليوس (Aegaleus) ويرويه نهران هما كيفيسوس وإليسوس (Ilissus) ويعتبر أكبر السهول الأربعة (١) .

حـ - سهل ميسوجَيَّا (Mesogaea) — ومعناه الأراضي الوسطى المعزولة عن البحر — الذي يقع بين جبلي هيميتوس وبنتليكوس .

د - سهل مَرَاثون (Marathon) الساحلي الذي يقع في الشمال الشرقي بين بارنيس وبنتليكوس وبحر يوبويا ، وهو أصغر السهول الأربعة (٢) .

وأما الشريط الساحلي الخصب الذي ينتهي في الجنوب عند رأس سونيوم (Sunium) فكان يحمل اسم بَرَاليا (Paralia) . وكانت المنطقة التي تقع على الحدود الشمالية الشرقية بين أتيكا وبويوتيا (شمالي جبل بنتليكوس) وتطل على بحر يوبويا وهي أُروبوس (Oropus) تنتمي جغرافياً إلى بويوتيا ، غير أن أثينا حرصت دائماً على أن تضعها تحت سيطرتها لأنها كانت تقع على طريق مواصلاتها مع يوبويا ولهذا كانت أُروبوس مثار نزاع مستمر بين الدولتين .

ولعل تضاريس أتيكا التي استعرضناها تفسر أصل الأحزاب الأثينية واتجاهاتها ؛ فحزب السهل (Pediakoi) كان قوامه سكان السهول ، وهم كبار ملاك الأراضي ، الذين انحصر هدفهم في الاحتفاظ بالسلطة الرئيسية في أيديهم؛ وحزب الجبل (Diakrioi) ، الذي ضم من يسكنون في سفوح بنتليكوس وهيميتوس والمنطقة المتاخمة لهما ، كان قوامه من الرعاة الفقراء الذين لم يكن

(١) تبلغ مساحته نحو ١٣٠ كم مربعاً .

(٢) لا تزيد مساحته عن ١٥ كم مربعاً .

لديهم ما يخسرونه ، فانصب همهم على تغيير الأوضاع السياسية لتحسين أحوالهم؛ وأما حزب الساحل (Paralioi) ،فكان أنصاره من سكان البلاد المتاخمة للبحر، الذين يمثلون المصالح التجارية ، وكانوا نظراً لاعتدالهم في الرأي ، يحفظون التوازن أو يقفون موقفاً وسطاً بين الحزبين الآخرين .

وتعتبر أتيكا من حيث المناخ أجف أقاليم بـــلاد اليونان . ومعدل المطر السنوي ضئيل لا يزيد عن ٤٠ سم ، والتربة فقيرة غير خصبة بوجه عام . [١] وإذا كانت مثل هذه الظروف ملائمة لزراعة الكروم والزيتون على نطاق واسع في السهول ، فهي لا تساعد على زراعة الحبوب ، وبخاصة القمح ، إلا على نطاق لا يكفي لسد حاجة السكان . والواقع أن محصول الحبـــوب ، ومعظمه من الشعير [٢] ، أصبح مع مضى الزمن لا يكفي سوى ثلث عدد السكان مع التجاوز في التقدير . ولهذا كله كانت مشكلة القمح ، وهو الغذاء الرئيسي عند اليونان، من المشاكل الملحة التي كان على السلطات الأثينية أن تجد لها حلاً .

وقد تأثرت سياسة أثينا كما تأثرت نظمها الدستورية وحياتها الاجتماعيـــة بمشكلة عدم الاكتفاء الذاتي أو بالأحرى بمشكلة نقص القمح . وليس من المغالاة أن نقول إن هذه المشكلة هي التي كانت توجه السياسة الأثينية في كثير من الأحيان وجهة معينة . ولمـــا كانت منطقة البحر الأسود هي المصدر الرئيسي لهذه السلعة ، فقد تحتم على أثينا أن تولى وجهها شطر هذه الناحية ، وأن تعمل لا على تأمين خطوط مواصلاتها إليها فحسب،بل على مد نفوذها وبسط سيطرتها

---

(١) راجع ما تقدم في ص٢٣ وما بعدها . وقد استعان الإغريق قديماً بالري الصناعي فكانت الزراعة وكذلك فلاحة البساتين تعتمدان عليه . وكانت المياه المستمدة من نهر كيفيسوس بالقرب من أثينا تستخدم صيفاً لري مزارع الزيتون المتاخمة .

(٢) كان ما ينتج من الشعير تسعة أعشار المحصول ، بينما لا يشكل القمح إلا العشر .

على مدن الدردنيل والبسفور ، مثل سيجيوم وسيستوس (Sèstos) وبيزنطة.
وقد أدرك أعداؤها نقطة الضعف هذه فعملوا على استغلالها لمصلحتهم . ونجد الإسبرطيين مثلاً يوجهون همهم في مستهل الحرب البلوبونيزية إلى تخريب حقول أتيكا وإتلاف محصولها سواء من القمح أو الكرم بغية تجويع الأثينيين وإرباك حكومتهم . وفي نهاية هذه الحرب استولت اسبرطة على آيجـــوس بوتاموي (Aigospotamoi) ، وهي بلدة تطل على الدردنيل ، في عام ٤٠٥ ، وبعدئذ على بيزنطة التي تطل على البسفور في عام ٤٠٤ قاطعة بذلك شرياناً حيوياً بالنسبة للأثينيين . وما فعلته اسبرطة فعل مثلة فيليب الثاني ملك مقدونيا : فقد بدأ نضاله ضد أثينا بمحاولة القضاء على نفوذها في سواحل بحر إيجة الشمالية التي درجت قوافل السفن التجارية على السير بمحاذاتها . ولهذا وضع يده على معظم مدن خالكيديكي الهامة مثل مثوني (Methône) وأولينثوس (Olynthus)[1]، وكذلك على أمفيبوليس (Amphipolis)[2] ، وهي مدينة هامة على ساحل طراقيا كانت أثينا قد استعمرتهـــا في القرن الخامس ؛ كما وضع يده على بعض الجزر التي تعترض مدخل الدردنيل ، مثـــل ليمنوس (Lêmnos) وإمبروس (Imbros) . وقد ذكرنا كيف كان يهاجم هذه الأنحاء مستغلاً فترة هبوب الرياح التجارية التي كانت تحول دون وصول سفن أثينا إلى حلفائها في الوقت المناسب[3]. وقد جاهد ديموسثنيس جهاداً لإقناع بني وطنه من الأثينيين بسياسة الحرب والاستعداد لها وإنفاق كل فائض المـــيزانية في دعم الجيش والأسطول

(١) دمر فيليب المقدوني هذه المدينة القوية التي كانت تتزعم الحلف أو الاتحـاد الكونفدرالي الخالكيديكي في عام ٣٤٨ . راجع أيضاً ص ١٢٣ .

(٢) استولى فيليب على هذه المدينة عام ٣٥٧ فسيطر بذلـــك على مناجم الذهب في جبـــل بنجايوس على الحدود المقدونية الطراقية .

(٣) راجع ص ٢٧ .

لمواجهة خطر فيليب في هذه المنطقة بدلاً من إنفاقه في إعانة فقراء المواطنين لمشاهدة الروايات المسرحية . ويتبين الاهتمام بتوفير القمح اللازم من سياسة أثينا إزاء حكام منطقة القرم [١] الذين كانت تكرمهم كل التكريم أو تمنحهم أحياناً

---

(١) القرم (Crimea) هو الأسم الحديث . لكن المنطقة كانت تسمى قديماً (في العصر اليوناني - الروماني) تاوريس أوخرسونيسوس تاوريكا (Chersonesus Taurica) أي شبه جزيرة التاوريين (Tauri) وهم سكانها الأصليون ، تمييزاً لها عن شبه الجزيرة الطراقية (Chersonesus Thracica) الواقعة في الطرف الجنوبي الغربي من البحر الأسود حيث تقع بيزنطة .

وكانت الأولى (القرم الحديثة) تعرف أيضاً باسم « مملكة البوسفور »(Bosphorus) التي كانت مدينة بنتيكابايوم (Panticapaeum) ، الواقعة على طرفها الغربي ، هي مركزها الرئيسي المسيطر . وقد عرفت المملكة بهذا الإسم نسبة إلى البسفور الكيمري (Cimmerius Bosphorus)الذي سمى كذلك نسبة إلى قبائل الكيمريين(Cimmerii) الرحل(ونسميه نحن الآن بمضايق قرطيش) تمييزاً له عن البسفور الطراقي في الجنوب (Bosphorus Thracicus) الذي نسميه الآن مضيق غاليبولى (Gallipoli) ويقع بين بحر مرمرة (بروبونطيس قديماً) ومدخل البحر الأسود(وعلى جانبه الغربى أو الأوروبى تقع بيزنطة وهي القسطنطينية واستامبول فيما بعد ، وعلى جانبه الشرقي أو الآسيوي تقع خلقدونية).

وقد أسس الإغريق وعلى الأخص إغريق مدينة ميليتوس الأيونية عدداً من المستعمرات في تلك المنطقة من بجنوب روسيا ، وهي منطقة غنية بالقمح ، وكان من بينها مدينة بنتيكابايوم السالفة الذكر والتي أسست حوالى عام ٦٠٠ أثناء فترة النشاط الاستعماري الإغريقى (٧٥٠ - ٥٥٠) . ولم يكن هناك مناص من أن ينشأ في تلك المنطقة مجتمع خليط من السكان الأصليين والإغريق المستعمرين أو على الأقل متأثر باللغة والثقافة اليونانية . وقد أزدهرت بنتيكابايوم أو « مملكة البسفور » كما كانت تسمى ، وأثرت ثراء واسعاً منذ القرن الخامس (ق.م) ، وذلك بفضل صيد الأسماك في المضيق الكيمري (قرطش الحالى) ، والتجارة على نهر تنائيس Tanais (حالياً نهر الدون)،وتصدير القمح إلى العالم الإغريقى (كأثينا).وقد أجريت حفائر بالمنطقة ، وأثارت مقابر أمراء « مملكة البسفور » المحفورة في الصخر ،والحافلة بالحلى الفاخرة والأدوات -

حقوق المواطنة الأثينية اعترافاً بفضلهم في مساعدتها على التخلص من أزمة تموينية أو إعفاء سفنها من الرسوم الجمركية . ونلمس هذا الاهتمام بالمشكلة في

=الذهبية والأسلحة الخ ، دهشة الأثريين . وفي أواخر القرن الثاني ق.م اتخذ مثراداتيس الأكبر ، ملك بنطوس الإيراني ، المثقف بالثقافة اليونانية ، اتخذ من بنتيكابايوم عاصمة لممتلكاته في شمـال البحر الأسود .

ولم يبق الكيميريون على حالهم في جنوب روسيا ، بل طردهم فيما بعد (منذ أواخر القرن السابع) الإسكيثيون (Scythi) ، وهم أيضاً في الأصل قبائل رحل اشتهرت بتربيـة أعداد غفيرة من الجياد ، وبالتنقل في عربات مغطاة ، والمهارة في ركوب الخيل ، وإجادة رمى السهام ، والبراعة في « المراوغة » عند القتال بحيث يتعذر على العدو تصيدهم . وكانوا يقطنون في الأصل بين جبال الكربات ونهر تنائيس (الدون) . ولكنهم بعد مجيئهم إلى المنطقـة الجديدة استقروا واشتغلوا بالزراعة وعلى الأخص في القسم الغربي منها الذى اشتهر بتربته السوداء الخصبة وانتاج القمح ولو أنهم لم ينسوا تماماً عاداتهم البدائية البدوية حتى بعد أن توثقت صلاتهم التجارية والاجتماعية بالمستعمرات اليونانية الكائنة عند مصب نهر بوريـثنيس (Borysthenes) (وهو نهر الدنيبر) وعلى امتداد الساحل الشمالي للبحر الأسود . وقد اكتشفت بعض آثار الإسكيثيين . وأكثرهـا استلفاتاً للنظر تلك المقابر الضخمة التي في شكل الآكام (kurgan) وتضم رفات ملوكهم وزعمـائهم ورفات أتباعهم وجيادهم (التي كانت تدفن معهم) . وهي أيضاً حافـلة بالحلي الذهبية (المستورد ذهبها من جبال أورال) ، وحافلة أيضاً برسوم فنية رائعة تمثل حيوانات المنطقة ومناظر الصيد ، وهي متأثرة بالفن الإغريقي . وكان الإسكيثيون كأسلافهم يصدرون القمح للمستعمرات اليونانية ، ويستوردون منها الأواني الفخارية ذات الزخارف البديعة ، والمصنوعات المعدنية .

لكن لم يلبث الإسكيثيون بدورهم أن تعرضوا لإغارات قبائل رحل أخرى تمت إليهم بصلة وتعرف باسم السرماتيين (Sarmatae) الذين أخذوا منذ منتصف القرن الثالث ق . م . يتسللون من شرق نهر الدون وعبر الكربات إلى هذه المنطقة ، وكان زحفهـم نحو الغرب بطيئاً استغرق ثلاثة قرون انتهت بطرد الإسكيثيين واحتلال السرماتيين للمنطقــة بين مصب إستر Ister (وهو نهر الدانوب) وسهل الأرسط . وكانوا يتكلمون كالإسكيثيين لغة هندية ـ أوربية . ولا تعنينا هنا قصة علاقتهم بالإمبراطورية الرومانيـة . لكن حسبنا أن نقول إن السرماتيين قد تعرضوا منذ القرن الرابع الميلادي لغزوات الجرمان والقوط ، وأن الإمبراطور قسطنطين أبقى كثيرين منهم في أراضيهم . لكن الآخرين امتزج فريق منهم بالجرمان ، ونزح فريق آخر أو أجـلى عن مواقعه فرحل إلى القوقاز .

التشريعات الأثينية الخاصة بتنظيم تجارة القمح ، ومراقبة أسواقه ، وتحديد أسعاره ، وحظر تصديره ، والضرب على أيدي الانتهازيين الذين يبتغون احتكار تجارته ، وأخيراً في الحرص على عدم تسلل أسماء جديدة إلى قائمة المواطنين الخُلّص حتى لا يزيد عدد المنتفعين بهبات القمح .

ولم تقتصر ثروة أتيكا على المنتجات الزراعية كالزيتون والكروم والقمح والشعير . فقد كان لديها أيضاً ثروة معدنية وحجرية تتمثل في الفضة والحجر الجيري والرخام والصلصال ، . وأما الفضة فكانت تستخرج من مناجم لاوريوم (Laurium) في الطرف الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة . وقد استغل الطاغية بيسستراتوس هذه الثروة لتدعيم مركزه بين الجماهير ، كما استغل الزعيم ثميستوكليس (Themistocles) مناجم الفضة التي اكتشفت على أيامه في تقوية الأسطول الأثيني بمائتي سفينة جديدة ، كان لها الفضل الأول في التغلب على الفرس في معركة سلاميس عام ٤٨٠ (١) ، وإحراز أثينا مركز الزعامة في «حلف ديلوس» البحري (٤٧٨-٤٠٤) فضلاً عن الأثر البعيد المـــدى ، ألا وهو اشتداد ساعد الملاحين ، ومعظمهم من الفقراء المعدمين ، الأمر الذي ترتب عليه تطرف الديمقراطية الأثينية . وكانت جبال أتيكا غنية بالأحجار الجيرية المتنـــوعة الألوان . وقد استخدم المعماريون الأثينيون هذه الأحجار في تشييد تلك المعابد الفخمة

---

(١) سلاميس جزيرة في خليج إليوسيس قرب ساحل أتيكا . وإلى ثمستوكليس (٤٨٣ — ٤٧١) يرجع الفضل الأول في دعم الأسطول الأثيني وقيادته إلى النصر على الأسطول الفارسي في مياه سلاميس يوم ٢٩ سبتمبر عام ٤٨٠ ق.م. وهذه المعركة كانت بالغة الأهمية بعيدة الأثر بالنسبة لتاريخ الحضارة الغربية لأنه لولا انتصار الإغريق فيها لتغير مجرى التاريخ الأوربي .

كالبارثنون(Parthenon)[1] والإرخثيوم(Erechtheum) والبوابات البديعة (Propylaca) والنوادي الثقافيـــة الرياضية (gymnasium) او المعابد ومسرح ديونيسوس (theatron) والأروقة (stoa) وغيرهـــا من قاعات الموسيقى (odeium) أو المباني الرسمية في السوق العامة (agora) الـــتي ازدانت بها أثينا على أيام بريكليس (٤٦١ – ٤٢٩) وجعلتها تختال تيهاً على غيرها من المدن . وحبت الطبيعة أتيكا بأنواع بديعة من الرخام كان معظمها يستخرج من محاجر جبلي بنتليكوس وهيميتّوس . ومن هذا الرخام نحتت عبقرية اليوناني تماثيل تفيض بالرقة وتكاد تنطق بالحياة . وحبتها الطبيعة أيضاً بتربة غنية بالصلصال ـ وبخاصة في سهل أثينا (كيفيسوس) ـ الذي استخدم في صناعة الأواني الخزفية ذات الزخارف البديعة والرسوم التي تمثـــل بعض الأساطير المشهورة . وقد أعانتنا بعض هذه الأواني الفخارية التي كانت تعبأ بالزيت وتصدر إلى مختلف أنحاء العالم الهلليني ، على تأريخ بعض الأحداث ، ومعرفة مدى العلاقات التجارية بين أثينا وتلك الأنحاء ، هذا فضلاً عن قيمتها الفنية التي لا تقدر بثمن .

على أن أهم ميزة تمتعت بها أتيكا كانت الموقع الجغرافي الذي حملها على الاتجاه إلى البحر ، أي إلى التجارة والاستعمار والسياسة . فأتيكا تكاد تكون معـــزولة بالحواجز الجبلية عن وسط بلاد اليونان والبلوبونيز . ولهذا لم تحاول أثينا جدياً أن تتوسع براً في أي من الاتجاهين . صحيح أن الاتصال بينها وبين بويوتيا لم

---

(١) على هضبة أثينا المسماة (بالأكروبوليس) وقد سمي بالبارثنون نسبة إلى بارثنوس (Parthenos) أي العذراء ، وهو لقب أثينة (Athenê) ، ربة مدينة أثينا، وراعيتها، والزائدة عن حياضها . وضع تصميمه المهندسان إكتينوس وكالليكراتيس تحت إشراف المثال الشهير فيدياس واستغرق بناؤه عدة سنوات (٤٤٧ – ٤٣٨) . ولم يتم نحت الصور إلا في عام ٤٣٢ .

يكن متعذراً بفضل الممرات التي سبقت الإشارة إليها . غير أن أثينا لم تحرص إلا على تأمين أروبوس التي كانت – كما قدمنا – تتبع إقليم بويوتيا . ولكنها كانت نقطة حيوية لوقوعها عند نهاية الطريق الذي يصل بين أثيناويوبويا وتنتقل عبره المنتجات الزراعية الضرورية من تلك الجزيرة إلى أتيكا . وأما في الغرب فإن سلسلة كيراتا (Cerata) التي تمتد بين الخليج الكورنثي والخليج الساروني كانت تفصل سهل إليوسيس عن سهل مجاريس حيث تقع مدينة مجارا (Megara) التي كانت في الأصل أيونية ، ولكنها وقعت منذ وقت مبكر في يد الدوريين . ولم يكن هناك مبرر كاف للإحتكاك بينها وبين أثينا في هذه المنطقة ، وإنما نشأ النزاع بينهما حول جزيرة سلاميس (Salamis) التي تقع على مقربة من سواحلهما، ولعل ما زاد من حدة هذا النزاع فيما بعد هو انضمامها إلى حلف البلوبونيز وطمع جارتها القوية كورنثة في الاستيلاء عليها في آخر الأمر . وكان يفصل بين سهل مجاريس والبرزخ الكورنثي سلسلة جبال جيرانيا (Geranea) ، التي كانت مجارا تتحكم في ممراتها ويلي ذلك مباشرة البرزخ الكورنثي نفسه أو عنق الزجاجة الذي كانت مدينة كورنثة القوية تسيطر عليه سيطرة تامة . لهذا كله انفصلت أتيكا عن البلوبونيز انفصالاً شبه تام ، وانقسم التاريخ اليوناني بالتالي بين قوتين أثينا في الشمال ، واسبرطة في الجنوب . وإذا كانت أثينا قد أثرت تأثيراً قويا في بلاد اليونان ، فإن هذا التأثير كان ثقافياً في جوهره ، وأما خطوط توسعها الأقتصادي والسياسي فقد اتجهت ألى البحر وعبر البحر .

وقد حبت الطبيعة أتيكا بسواحل متعرجة كثيرة الخلجان تصلح لقيام المرافىء. وفضلاً عن ذلك فإن جبال أتيكا لا تقيم حول سواحله سداً منيعاً ، بل هي متفرقة بحيث تترك ثغرات تكفي لتسهيل اتصال المرافىء بالظهير . فعلى الساحل الشرقي يقع خليج مراثون الذي تحميه من الرياح الشمالية الشرقية في الصيف بعض الحواجز الصخرية الناتئة من طرفه الشمالي . وعلى الساحل المقابل يقع

خليج فاليرون (Phaleron) الذي يحميه عند طرفيه لسانان هما مونيخيا (Munichia – Munychia) وكولياس (Colias) . وقد ظل هذا الخليج يكفي حاجة أثينا حتى اتضحت لها المزايا الفريدة التي تتوافر في الأحواض العميقة عند لسان مونيخيا. ولهذا اتخذت منذ القرن الخامس من هذه الأحواض الدائرية ترسانة لترابط فيها وحدات أسطولها . وكان ميناء بيرايوس Piraeus (بيريه) الذي يتاخم لسان مونيخيا ، يتميز بانحصاره بين هذا اللسان وثنية من الساحل الأتيكي تمتد بلسان آخر في البحر كأنه جسر طبيعي ، مما يجعل منه حوضاً مغلقاً تقريباً . وقد عمل ثيستوكليس على تحصين منطقة الموانى وتأمين الاتصال بينها وبين أثينا ، فبنى « الأسوار الطويلة » المشهورة التي تمتد من بيريه إلى أثينا ومن أثينا إلى فاليرون . ومنذ ذلك الحين أصبحت مونيخيا قاعدة الأسطول الذي أحرزت به أثينا السيادة على البحر الإيجي ، كما أصبح ميناء بيريه أهم مركز تجاري في الجانب الشرقي من البحر المتوسط .

ومع أن أتيكا لم تتمتع كما تمتعت كورنثة ، بميزة الإشراف على بحرين أحدهما في الغرب والآخر في الشرق ، إلا أنها تميزت بموقع جغرافي وظروف طبيعية أهلتها لإحراز السيادة أو الزعامة في البحر . ولم يكن في وسع جزر بحر إيجه أن تنافسها في هذا المركز نظراً لضيق أراضيها وقلة مواردها وانقسامها على نفسها وتفشي القرصنة بينها ووقوعها في طريق الغزاة ، وهي عوامل لا تساعد على إحراز الزعامة . ولا كان في وسع أيونيا ، التي تلقت أولى مؤثرات حضارة الشرق القديم ثم حملت العَلَم - على ما يبدو - في موكب الحضارة اليونانية ، وانبثق فيها فجر الأدب اليوناني والفلسفة اليونانية ، وبزّت سواها في تأسيس المستعمرات ، لم يكن في وسعها أن ترقى إلى مرتبة الزعامة في العالم الهلليني . ولا جدال في أن مدن الساحل الأيوني تمتعت بميزات إقتصادية كبيرة ، لأنها - كما قدمنا - تقع عند مصبات الأنهار الآتية من هضبة آسيا الصغرى ،

أي بالقرب من أراض خصبة التربة ، وتقع كذلك عند نهاية طريق القوافل الذي كان يجري مع وديان هذه الأنهار ، مما جعلها تتحكم في تجارة الشرق . غير أن هذه الميزة الأخيرة كانت عيباً في الوقت عينه . ذلك أن وديان هذه الأنهار كانت بمثابة المسالك التي اعتادت أن تسلكها الجيوش الزاحفة من آسيا . وهكذا تعرضت هذه المدن دائماً لخطر الغزو من الشرق ، وقد وقعت فعلاً تحت سيطرة ليديا (Lydia) . فإذا أضفنا إلى ذلك صعوبة الاتصال البري بين هذه المدن ، وانقسامها إلى أيولية وأيونية ودُورية ، وعجزها عن القيام بعمل مشترك في وجه الخطر الأجنبي ، أدركنا لماذا سقطت في آخر القرن السادس فريسة في يد الفرس ، الذين قضوا على كل أمل لها في زعامة العالم الهلليني . ولم يبق إذاً إلا أن تنبع الزعامة من بلاد اليونان الأصلية . وقد كان من الجائز أن تؤول هذه الزعامة إلى دول قوية مثل اسبرطة أو كورنثة أو آيجينا ، غير أن مقومات الزعامة الحقيقية لم تتوافر في أي منها مثلما توافرت في أتيكا .

وميزة أخرى تمتعت بها أتيكا وهي أن عاصمتها اثينا (Athênae) نشأت في مكان لا يفوقه مكان آخر في ميزاته [(١)] ، فهذه المدينة تقع داخل أوسع منطقة صالحة للزراعة وتلتقي عندها عدة طرق للمواصلات . صحيح أن جبل أيجاليوس ، وهو شعبة ناتئة من جبل كيثايرون ، يعزلها عن سهل إليوسيس (ثريا) . لكن فيما عدا ذلك توجد ثغرة بين هيمتّيوس وبنتليكوس تيسر لها الاتصال بسهول ميسوجيئا (الأراضي الوسطى) ومَراثون ولاوريوم

---

(١) اسم أثينا هو في اليونانية أثيناي (Athênai) . وأثيناي هو أسم الربة أثينة (Athênê) في حالة الجمع أو حالة ظرف المكان إن يقال إذ صخرة الأكروبول نفسها كانت أصلا تسمى أثينة (Athênê) . ومن الواضح أنه اسم قديم سابق على مجيء الإغريق إلى البلقان لأن نهايته تشير إلى أنه أسم غير هندي - أوربي (راجع ما تقدم في ص ٨٦) .

حيث توجد مناجم الفضة . كما أن قرب أثينا من مينائي فاليرون وبيريه كان كفيلاً بترجيح كفتها على أي بلدة أخرى في أتيكا بمجرد أن يتجه سكانها إلى البحر والتجارة . ولذلك استطاعت أثينا في مرحلة مبكرة من تاريخها أن تفرض نفسها كمقر لحكومة مركزية تهيمن على كل الإقليم . وقد أعانها على ذلك أن موارد أتيكا لم تبددها الخصومات بين عدة مراكز قوية مثلما حدث في بيوتيا بين طيبة وأورخومينوس . وهكذا توافرت لأثينا كعاصمة لإقليم متحد ، من القوى البشرية والثروة الاقتصادية ما لم يتوافر لأي مدينة أخرى في بلاد اليونان .

وينبغي قبل أن نختم الكلام عن أقاليم بلاد اليونان الوسطى أن نقول كلمة عن أيجينا (Aegina) ، وهي جزيرة دورية تقع في الخليج الساروني على بعد حوالي ١٣ ميلاً من ساحل أتيكا الجنوبي ، ولكنها كانت بالنسبة لميناء بيريه « كالقذى في العين » . لقد كانت آيجينا هي أقوى منافس لأثينا في الفترة الأولى من توسعها عبر البحر . ففي هذه الجزيرة الصخرية نشأت مدينة ـ دولة سكت أول عملة يونانية في القرن السابع ، ونافست ساموس وميليتوس ، وكان لها دون سائر مدن شبه الجزيرة اليونانية جالية في نقراطيس التي أسسها في مصر إغريق من آسيا الصغرى في أواخر القرن السابع . واستطاع أسطولها أن يوقف أثينا عند حدها ، حتى اكتشفت الأخيرة مناجم جديدة للفضة في لاوريوم أمدتها بالثروة التي دعمت بها أسطولها ورجحت كفتها . وقد وقفت آيجينا إلى جانب بني جلدتها في الحروب الفارسية وقاسمت أثينا شرف الانتصار في معارك أرتميسيوم وسلاميس وبلاتيا . واستغلت ميزة موقعها الجغرافي في وسط الخليج الساروني حتى جاء وقت لم تفقها فيه أي دويلة أخرى في حمولة سفنها التجارية . غير أن التفوق التجاري عبر البحر لم يكن ليعوض على مر الزمن النقص الشديد في الموارد الطبيعية للجزيرة أو ليصمد أمام ثروة

أتيكا المادية وكثرة سكانها العددية . ولم تلبث أثينا أن هزمتها في موقعة بحرية فاصلة في عام ٤٥٩ ، ودمجتها في « حلف ديلوس » في العام التالي . وعندما نشبت « الحرب البلوبونيزية » عام ٤٣١ ، انحازت أيجينا إلى جانب اسبرطة ، بما حمل أثينا على طرد السكان من جزيرتهم وإحلال مستعمرين من الأثينيين مكانهم .

الجنوب :

وكان الجنوب يعرف قديماً باسم البلوبونيسوس (Peloponnesus) – ومعناها جزيرة بيلوبس – ويعرف الآن باسم شبه جزيرة المورة [١] . وهذا القسم منعزل عن بلاد اليونان الوسطى والشمالية ولا يزيد عرض البرزخ الذي يفصل بينهما ، وهو برزخ كورنثة ، في أضيق نقطة على أربعة أميال . وفضلاً عن ذلك فإن هذا البرزخ تقطعه سلاسل جبال كيراتا وجيرانيا التي لا تترك متسعاً لإنشاء أي طريق ملائم للمواصلات على الساحلين . ومع أن البلوبونيز تقع على مقربة من طريق التجارة الرئيسي بين الشرق والغرب في البحر المتوسط ، إلا أنها لم تكن في العصور القديمة محطة هامة للسفن التجارية . فالساحل البلوبونيزي فقير في الموانئ سواء في شرقه أو في غربه ، وأما الجنوبي الذي ينتهي برأسي ماليا (Malea) وتينارون (Taenarum) فهو جبلي وعر . وتفصل أقاليمها الواحد عن الآخر سلاسل جبلية شاهقة ، فضلاً عن مرتفعات أركاديا غير المنتظمة . فإذا كانت البلوبونيز على الرغم من الحواجز الجبلية قد اندمجت أحياناً فيما يشبه الحلف أو الاتحاد السياسي فإن ذلك قد يعزى إلى انعزالها

---

(١) بيلوبس (Pelops) هو أسم شخصية شبه أسطورية عند الإغريق . وهو أبو «أتريوس» وجد «أجممنون» ، القائد العام في الحملة الطروادية .

وصغر مساحتها ، فضلاً عن أن العوامل الجغرافية قد تتلاشى أحياناً أمـــام العوامل السياسية والعسكرية .

وقد يبدو لأول وهلة أن **كورنثة** (Corinthus) لا بد من أن تكون هي القوة الرئيسية المنظمة لمثل هذا الاتحاد نظراً لما تتمتع به من ميزات جغرافية تؤهلها لمركز الزعامة . ولم يكن أبرز هذه الميزات ذلك الشريط من الأراضي الخصبة الذي يمتد على ساحل الخليج الكورنثي ، لأن ظهير كورنثة بوجه عام كان أضيق من أن يكفي لسد حاجة العاصمة ، ولا كانت تربته الغنية بالصلصال ميزة كبيرة لأن أثينا سرعان ما انتزعت منها معظم أسواق الأواني الخزفية . وإنما كانت ميزتها الرئيسية هي موقعها عند البرزخ (Isthmus) الذي أتاح لها أن تتحكم في مدخل البلوبونيز وأن تربط ، مثلما تربط السويس أو بناما ، بين بحرين . وقد حصن الكورنثيون هذا الموقع المنيع بطبيعته ببناء « سور طويل » متصل يمتد غرباً من مدينتهم إلى الخليج الكورنثي ، وسلسلة من القلاع تمتد شرقاً حتى الخليج الساروني . وقد تبينت قيمة البرزخ الاستراتيجية أكثر من مرة في الحروب التي دارت رحاها في بلاد اليونان ، إذ كان لسكان البلوبونيز بمثابة خط الدفاع الطبيعي حتى أنهم تمسكوا بالوقوف عنده ضد الفرس لولا إصرار أثينا على ملاقاة الغزاة في الشمال عند ترموبيلاي حماية لوسط بلاد اليونان . وقد أبلت كورنثة بلاءً حسناً ضد الفرس في معارك سلاميس وبلاتيا وميكالي (٤٨٠ — ٤٧٩) ، وكان البرزخ الكورنثي هو الذي سهل عبور جيش اسبرطة وحلفائها وغزوهم لأتيكا في الحرب البلوبونيزية (٤٣١ — ٤٠٤) ، وهي حرب نشبت بسبب التنافس التجاري الشديد بين كورنثة وأثينا ، ونزاعها المستمر حول كُركيرا وبوتيديًا المستعمرتين الكورنثيتين والذي انقلب إلى كراهية بسبب «الحملة الأثينية على صقلية» (٤١٥ — ٤١٣) لضرب سيراكيوز (سراقوصة) وهي أهم مستعمرات كورنثة في تلك الجزيرة . وكان البرزخ نفسه هو ما عاق الإسبرطيين ، فيما يعرف

« بالحرب الكورنثية » [1] ، عن التدفق من البلوبونيز شمالاً لإعادة سيطوتهم على بقية بلاد اليونان في أوائل القرن الرابع . وقد ظلت كورنثة منذ وقوعها في يد فيليب الثاني عام ٣٣٦ حتى تحريرها على يد الرومان في عام ١٩٦ في قبضة ملوك مقدونيا الذين استخدموها هي وديميترياس وخالكيس « كأغلال » للتحكم في بلاد اليونان ، وكقاعدة عسكرية حالت دون تعاون أعدائهم في البلوبونيز مع أعدائهم في خارجها . وكانت كورنثة هي آخر معقل حاول أن يذود عن حياض بلاد اليونان ضد عدوان الرومان في عام ١٤٦ ، ولكن الرومان دمروها تدميرا .

وكان طغاة كورنثة في منتصف القرن السابع هم أول من فطنوا إلى المزايا التجارية لموقع البرزخ الكورنثي [2]. فمنذ ذلك الحين أصبحت كورنثة ، بقلعتها المتاخمة لها (Acrocorinthus) مدينـة فريدة ذات مينائين أحدهما عنـد ليخايوم (Lechaeum) على الخليج الكورنثي والآخر عند كنخرياي (Cenchreae) على الخليج الساروني ، وعندهما كانت تتجمع التجارة المتجهة غرباً أو شرقاً في البحـار اليونانية . وكانت المدينة بالإضافة إلى ذلك تسيطر على ممر البرزخ الضيق الذي يقع بين الخليجين ويوفر الآن على السفن بعد حفره مشقة السفر مسافة لا تقـل عن ١٥٠ ميلاً بين بيريه (بيرايوس) في الشرق وكورفو (كُركريا) في الغرب . صحيح أن جميع المشروعات المتكررة لشق قناة عبر البرزخ لم تخرج أبداً إلى حيز التنفيذ في العصر القديم ، غير أن كورنثة ابتكرت طريقة لسحب المراكب الصغيرة عبر البرزخ وإنزالها ثانية

(١) ٣٩٥ - ٣٨٦ : وفيها تحالفت كورنثة مع أثينا وأرجوس وبويوتيا ضد إسبرطة للقضاء على سيطرتها واستبدادها .

(٢) كان أشهر طغاة (tyranni) كورنثة هما كيبسيلوس Cypselus (٦٥٥ - ٦٢٥) ، وابنه برياندروس أو برياندر Periander (٦٢٥ - ٥٨٥) .

إلى البحر حتى تُغني هذه المراكب عن الملاحة الطويلة الخطرة حول رأس ماليا في الجنوب .

لقد كانت كورنثة ــ وهي مدينة دُورية ــ بفضل وقوعها عند مفترق الطرق الرئيسية جديرة بأن تصبح عاصمة لبلاد اليونان . ولعل وقوعها في مكان مركز متوسط بين أقاليم هذه البلاد كان يساعد على اضطلاعها بهذا الدور . لقد كانت دائماً إلى جانب قيامها بدور الوسيط لتسوية المنازعات بين الدويلات الإغريقية هي المكان المختار لعقد المؤتمرات اليونانية الكبرى . ففيها التقى مندوبو دول المدن اليونانية في شبه مؤتمر عسكري للتداول في أمر مواجهة الغزو الفارسي . وكانت هي المقر الدائم للحلف الهلليني (الكورنثي) الذي أنشأه فيليب والإسكندر الأكبر (٣٣٨ - ٣٣٦) . ومنها أيضاً أعلن فلامينينوس القائد الروماني تحرير بلاد اليونان من ربقة الحكم المقدوني في عام ١٩٦ . غير أن المرة الوحيدة التي سنحت فيها لكورنثة فرصة الزعامة السياسية كانت على أيام طغاتها الأوائل ، وبخاصة على أيام الطاغية برياندر Periander (٦٢٥-٥٨٥) الذي وصف بأنه كان أقوى رجل في أوروبا . غير أن سطوة هذا الطاغية زالت بزوال حكمه . ولم تقم كورنثة من بعده بدور الزعامة ، بل انكمش دورها إلى دور الدولة التابعة التي تدور في فلك اسبرطة أو مقدونيا .

ولقد تأثرت سياستها بالحرص الشديد على مصالحها التجارية التي دفعتها إلى إيثار المحافظة على السلام بوجه عام ، وحفظ التوازن بين القوى اليونانية الأخرى . وقد يكون من بين العوامل التي أدت إلى تخاذلها السياسي تعرض تجارتها مع الغرب والشرق لمنافسة مستعمرتها القوية كُركيرا الواقعة في البحر الأيوني من ناحية . ومنافسة آيجينا وأثينا الواقعتين عند مدخل البحر الإيجي من ناحية أخرى . غير أن هذه العقبة لم تكن كافية لمحو جميع ميزات موقعها المركزي . ولعل صغر مساحة كورنثة بوجه عام ، وافتقارها إلى «ظهير» كاف لمدها بالقوى

البشرية ، كان عاملاً آخر . وفي رأي البعض أن السبب الرئيسي في هذا الدور المتواضع الذي قامت به كورنثة في التاريخ اليوناني هو افتقارها الشديد إلى الشخصيات البارزة بعد اندثار أسرة الطغاة فهي لم تنجب من بعد برياندر أي زعيم سياسي من طراز هلليني دولي . وإذا كان للعوامل الجغرافية أثر قوي في مجرى التاريخ ، فإن للشخصيات أحياناً أثراً أقوى .

وإلى الغرب من كورنثة وعلى بعد تسعة أميال منها تقع مدينة **سيكيون** (Sicyon) ، التي أسسها في الأصل جماعة من أرجوس وكانت دويلة مستقلة عن كورنثة . وليس من المستبعد أن رخاءها وقوتها ورقيها الفني تحت حكم طغاتها القدامى كان مستمداً من تجارتها التي راجت لفترة معينة مع غرب بلاد اليونان وجنوب إيطاليا [1] . وقد احتلت سيكيون في العصور التالية مركزاً على جانب من الأهمية داخل « الحلف البلوبونيزي » ، لأنها كانت تقوم عند رأس طريقين عبر أركاديا يتيحان للإسبرطيين (حتى بدون رضاء كورنثة) الاتصال بالبرزخ الكورنثي ، وأحدهما يمر ببلدتي أورخومينوس [2] واستيمفالوس ، والآخر يمر بمدينتي مانتينيا وفليوس (Phlius) . وقد وقفت سيكيون بمعزل عن أخيا التي يفصلها عنها جبل كيلليني حتى ربطها زعيمها الكبير أراتوس

---

(١) كان أشهر «طغاتها» هم أفراد أسرة أورثاجوراس التي حكمت المدينة حوالى قرن من الزمان (٦٦٥ - ٥٦٥) وأعظمهم جميعاً هو كليستنيس Cleisthenes(٦٠٠ - ٥٧٠)الذي حرر بلده من سيطرة أرجوس. وقام بدور رئيسي في الحرب المقدسة الأولى (راجع ص ١٣٢ ، هامش ١) حيث دمر « كريسا » وسيطر لفترة على الطريق المؤدية إلى دلفي. وذاع صيته في كل بلاد الإغريق . وتزوجت ابنته أجاريستي (Agaristê)من ميجاكليس (Megacles) الأثيني ، سليل أسرة ألكمايون (Alcmaeon) الشهيرة ، التي ينتسب إليها «بريكليس » من ناحية الأم .

(٢) أورخومينوس بلدة في أركاديا شمال مانتينيا وهي غير المدينة التي تحمل نفس الإسم في إقليم بويوتيا (راجع ما تقدم في ص ١٤٦)

(Aratus) بعجلة العصبة أو «الحلف الآخي» في منتصف القرن الثالث (٢٥١ — ٢١٣) .

وأما إقليم آخيًّا (Achaea) فهو يشغل قطاعاً محصوراً بين البحر وجبال شمال أركاديا. ولهذا يسميه هوميروس « بالأرض الساحلية »[١]. وساحل أخيًّا منتظم وخلو من الموانى على نقيض الساحل الشمالي للخليج الكورنثي الذي تكثر فيه الخلجان . ولعل ذلك يفسر لماذا لم يكن لأخيًّا نصيب كبير في تجارة بلاد اليونان مع الغرب . وتقسم الخوانق التي تنحدر فيهـا السيول من المرتفعات كل الإقليم إلى عدة وديان وسهول صغيرة . ولذلك كان الأتحاد الفيدرالي هو النظام السياسى الطبيعي الذي يمكن أن يقوم وسط هذه التضاريس . ولما كانت أخيًّا معزولة تقريباً عن الجنوب بسلسلة متصلة من الجبال ، فإن سكانهـا لم يقتحموا معترك السياسة البلوبونيزية حتى جاء أراتوس وزج بهم فيه . وقد اتسعت دائرة الإتحـاد الفيدرالي الآخي في العصر الهلينستي حتى شملت أركاديا وأرجوليس، وبعدئذ شملت كل البلوبونيز تحت حماية الرومان ، ولم يكن ذلـك ليتحقق لولا إدمـاج سيكيون التي فتحت الطريق إلى كورنثة وأرجوس وميجالوبوليس وهي المدن الرئيسية في ذلك الإتحاد الذي عرف بعد توسعه باسم «عصبة أخيًّا» أو « الحلف الآخي » .

ويقع إقليم إيليس (Elis) في الركن الشمالي الغربي من البلوبونيز ويتألف من أراض مستوية تطل على البحر ويتعذر الدفاع عنهـا . وقد أشتهرت إيليس التي يجري فيها نهران هما ألفيوس (Alpheus) وبنيوس (Peneus) (وهو غير النهر الكبير الذي يجري في الشمال) ، بجودة مراعيها . وقد عزف سكانها عن البحر والتجارة لأن الجانب الأكبر من ساحلها يتعرض دائماً للرياح الشديدة والعواصف . وكانت إيليس على عكس أخيًّا التي لا تلائم أراضيها قيام اتحـاد سياسي إلا على أساس فيدرالي ، منطقة غير مترابطة الأجزاء يتوسطها مركز

---

(١) ليس لهذا الإقليم « أخيا » علاقة « بأخيا اقثيوتيس » في تساليا (راجع ص٧ ،هامش، ص ١٢٥)

طبيعي للمواصلات، وهي مدينة إيليس التي تقع على نهربينيوس . ولهذا اندمجت كل المنطقة ، مثلما اندمجت أتيكا ، في وحدة سياسية وهي دولة مدينة إيليس . ولكن إيليس انفردت بظاهرة مناقضة لما هو مألوف بين اليونان ، وهي أن سكان الريف فيها لم يقبلوا على الحياة المدنية. ولهذا لم تنشط الحياة السياسية فيها نشاطها في غيرها من دول المدن . وثمة سبب آخر يعلـــل هذا الركود السياسي الذي ساد إيليس ؛ ففي وسطها كانت تقع بلدة أوليمبيا (Olympia) بالوادي الأدنى لنهر ألفيوس . وفي هذه البلدة كان يقوم المعبد الرئيسي للإلـــه زيوس وتمثال هذا الإله الرائع الذي صنعه المثّال الأثيني الأشهر فيدياس (Pheidias) وطعّمه بالذهب والعاج . ولما كانت إيليس قد أسندت إليها مهمة الإشراف على دورات المباريات التي كانت تقام في أوليمبيا مرة كل أربع سنوات، فقد انشغلت بتنظيمها عن معترك السياسة اليونانيـــة [1] . وجدير بالذكر أن هذه الدورة الأوليمبية التي بدأت في عام ٧٧٦ وكانت تشترك فيها جميع دول المدن اليونانية كانت وغيرها من الدورات الهللينية « الدولية » ، وآلهة أوليمبوس ، ونبوءة دلفي ، وإلياذة هوميروس، واللغة اليونانية ،من العوامل التي ألفت بين الإغريق على الرغم من انقساماتهم السياسية .

وفي وسط البلوبونيز تقع أركاديا (Arcadia)،وهي الإقليم الوحيد في بلاد اليونان الذي لا يطل أي جزء منه على البحر . ولذلك كان إقليماً منعزلاً بكل معاني الكلمة ، تحيط به الجـــبال من جميع جهاته . ويرتفع سطح أركاديا عن سطح الأقاليم المجاورة لها حتى أن سهل مانتينيّا يعلو عن مستوى سطح البحر بحوالي ٢٠٠٠ قدم . ويختلف غربها عن شرقها فى الخواص الجغرافية . فالجزء الغربي الذي تنصرف مياهه إلى نهر ألفيوس وفروعه ، وتقع فيه مجالوبوليس

(١) راجع ما تقدم في ص ١١٢ وما بعدها.

(Megalopolis) ، مدينته الرئيسية ، تشغله هضبة مرتفعة غير منتظمة . وأما الجزء الشرقي ، حيث تقع مدينتا مانتينيا (Mantinea) وتجيا (Tegea) القويتان ، فتشغله عدة وديان مغلقة غائرة وسط الجبال ولا يتسنى صرف مياهه إلا عن طريق القنوات الجوفية . فإذا حدث أن انسدت هذه القنوات تحولت الوديان المغلقة إلى بحيرات ، أو تعرضت مدينة مثل مانتينيا لخطر الفيضان . وقد أثارت خيال القدماء تلك المنحدرات الشديدة التي تطوق تقريباً بحيرة استيمفالوس (Stymphalus) وبخاصة الانحدار الشديد لمجرى نهر استيكس (Styx) الذي يهبط إلى مسافة ٦٠٠ قدم في واد مظلم مقبض حتى شبه لهم أنه أحد الأنهار التسعة البغيضة التي تجرى في « هاديس » وهو العالم السفلى (عالم الموتى) . وكانت سفوح جبال أركاديا غنية بالغابات والمراعي الملائمة لتربية الخيول والبغال التي كانت ولا تزال أحسن وسائل للنقل في الأجزاء النائية من بلاد اليونان . وقد اصطبغت حياة الأركاديين بصبغة رعوية واضحة كما يتبين من أساطيرهم وعباداتهم البدائية . وأما أخصب أراضيها فتقع في سهول تجيا ومانتينيا وأعالي نهر ألفيوس بالجزء الشرقي . غير أن حاصلاتها الزراعية لم تكف حاجة سكانها المتزايدين ، مما حملهم على البحث عن موارد أخرى للرزق خارج إقليمهم . ولقد احترف كثير منهم الاشتغال كجنود مرتزقة في الجيوش الأجنبية .

ومع أن الأركاديين « الذين كانوا يتكلمون لهجة خاصة سابقة على قدوم الغزاة الدوريين ووثيقة الصلة بلهجة قبرص وهي « الأركادية » ، حققوا الاتحاد السياسي بينهم لفترة قصيرة في القرن الرابع تحت تأثير إبامينونداس ، زعيم طيبة ، إلا أن محاولاتهم لتكوين اتحاد فيدرالى دائم تعثرت أمام طبيعة جبالهم الالتوائية المعقدة التركيب ، وافتقارهم إلى مكان ملائم لقيام عاصمة اتحادية . وقد كان لديهم مدينتان كبيرتان ، هما مانتينيا وتجيا اللتان زاد من أهميتها وقوعهما عبر طريق

المواصلات الرئيسي بين اسبرطة وكورنثة . غير أن هذا الموقع ، الذي كان نظراً لاستواء سطحه وتوسطه مسرحاً لأشهر معارك البلوبونيز، يعتبر نائياً بالنسبة لبقية أركاديا ، وبالتالي غير ملائم ليكون عاصمة . وفضلاً عن ذلك فإن هاتين المدينتين اشتبكتا في نزاع مستمر مرير أنهك قواهما . أما مجالوبوليس فتقع هي الأخرى في مكان بعيد عن وسط أركاديا . غير أن هذه المدينة كانت تسيطر على المنطقة الفاصلة بين نهري ألفيوس ويوروتاس، وهي أسهل طريق للمواصلات بين اسبرطه وسائر البلوبونيز وقد أصبحت مجالوبوليس عاصمة للاتحاد الأركادي بعد تأسيسها مباشرة في عام ٣٦٩ . وتحولت إلى قلعة تذود عن الحرية ضد العدوان الإسبراطي . وفي القرن الثالث عندما اندمجت كل أركاديا في عصبة أخيا، قامت مجالوبوليس، وهي موطن المؤرخ الشهير بوليبيوس (Polybius)(١) ، بدور الرقيب على تحركات الإسبرطيين .

وارجوليس (Argolis) شبه جزيرة قاعدتها في الداخل ورأسها يمتد نحو الجنوب الشرقي في اتجاه البحر الإيجي ، ولذلك فهي أشبه الأقاليم بأتيكا من حيث الشكل والموقع . غير أن الطبيعة لم تخصها إلا بأقل الميزات ، فسلاسل الجبال تعزل سواحلها عن البحر وتحرمها من الانتفاع بطريق تجاري حيوي كالخليج الساروني . ولأرجوليس على هذا الخليج مدينتان هامتان إحداهما إبيداوروس (Epidaurus) وهي الدويلة المستقلة التي سيطرت مرة على آيجينا

---

(١) عاش (٢٠٣ – ١٢٠) . ساهم بنشاط في « عصبة أخيا » . سافر مع وفد إلى مصر عام (١٨١ – ١٨٠) . عاد إلى بلاده وتابع نشاطه السياسي ضد روما في الحرب المقدونية الثالثة ، ثم أخذ رهينة إلى روما بعد هزيمة مقدونيا في معركة بودنا (١٦٨) . تعرف في روما على بعض أقطابها وعلى الأخص اسكيبيو آيميليانوس. ورافقه في بعض حملاته. أرخ أحداث التاريخ الروماني في فترة التوسع (٢٢٠ – ١٤٥) في أربعين كتاباً . ولعله يأتي في المرتبة الثانية بعد توكيديديس ، المؤرخ الأثيني . راجع كتابنا « مصادر التاريخ الروماني » (بيروت ١٩٧٠) ص ٥٥ – ٥٩ .

وكان بها معبد شهير ، وهو معبد أسكليبيوس (Asclepius) إله الطب[1] والأخرى هي ترويزين (Troezên) التي تقع في الجنوب بعيداً عن الساحل . وأراضيها الداخلية عبارة عن مرتفعات متشابكة تكسوها الشجيرات القصيرة الجافة . وعند رأس خليج أرجوليس (أو خليج ناوبليا Nauplia) يوجـد سهل غربي فسيـح يزيد من أهميته أنه مركز للمواصلات في البلوبونيز . وهذا السهل كأرجوليس كلها قليل المطر حتى أن هوميروس يصفه « بالعطش » . غير أن حافته الغربية ترويها عيون كثيرة تستمد ماءهـا من قنوات أركاديا الجوفية (katabothrai) . والواقع أن جزءاً من هذا السهل قد يتحول في حالة إهماله إلى مستنقعات ، ولكنه قد يصبح من أخصب مناطق بلاد اليونان إذا لقي العناية اللازمة . ولذلك كان هذا الجزء من أرجوليس في وسعه أن يقيم أود عدد كبير من السكان ، ولم تكن هناك بين مدن البلوبونيز مـا تفوق مدينة أرجوس (Argos) ، التي تقـع في وسطه ، كثافة في السكان سوى كورنثه .

وسهل أرجوس هو أول مكان صالح لرسو السفن الآتية من رأس ماليا في الجنوب بمحاذاة الساحل الشرقي لشبه جزيرة البلوبونيز . ففي الركن الجنوبي الشرقي منه يقع ميناء ناوبليا الذي تحميه قمة الجبل المتاخم له ، وتحتمي فيه السفن من رياح الخليج الشديدة . وقد أدرك الآخيّون قيمة هذا الموقع المطل على البحر في العصور الأولى ، كما تشهد بذلك الآثار التي عثرنا عليها في ميكيني وتيرينس وميديا (Mideia)[2] وبروسيمنا (Prosymna) وأسيني (Asiné) . وقد كانت هي المنفذ الرئيسي الذي دخلت منه الحضارة المينوية إلى بلاد اليونان .

(١) واجع ص ١٣٤ ، هامش ٢ .

(٢) وهي دندرا Dendra الحالية في البلوبونيز .

ولا يستبعد أيضاً أنهــا كانت قاعدة لأسطول أحرز سيادة بحرية في العصور الأولى كما توحي بذلك الأسطورة الـتي تربط بين دناؤس (Danaùs) ، ملك أرجوس ، وبين مصر ، والوثائق المصرية التي تتحدث عن الدَنَاويين Danaoi – وهو اسم يرادف الآخيين عند هوميروس [1] – كشعب من « شعوب البحر » وكذلك الأسطول الذي حشده أجاممنون ملك ميكيناي ، ضد طروادة . وفي العصور التالية عندما هاجر كثير من الإغريق – على نحو مـا ذكرنا – إلى جزر البحر الإيجي وساحــل آسيا الصغرى ، كانت أرجوس لا تزال هي نقطة البدايـة للهجرات الدُورية ، فقـد اشتهرت بأنهـا المدينة الأم لكثير من المستعمرات الدورية في كريت ورودس وجنوب ساحل آسيا الصغرى الغربي .

غير أن سكان أرجوس التي لا تبعد عن البحر بأكثر من ثلاثـة أميال أولوا ظهورهم للبحر في العصور التاريخية وتركوا التجارة البحرية تتحول إلى خليج الساروني . ولعل عزوفهم عن النشاط البحري يرجع إلى انشغالهم بمعترك السياسة في البلوبونيز ، حيث كانوا يأملون دون جدوى في استرداد مركز الزعامة الذي تبوأته ميكيناى في الزمن القديم . ولم تكن أرجوس بفضل موقعها الجغرافي غير جديرة بأن تضطلع بهذا الدور لأنها تقـع على طريق المواصلات الرئيسي بين كورنثة وجنوب أركاديا ولاكونيا ومسينيا. لقد كان هناك طريق يصل بين كورنثة وسهل أرجوس : كما يسّر هذا الطريق الذي يمر بميكيناي لأمراء هذه المدينة الاتصال بالخليج الكورنثي والسيطرة على

---

(١) الوثائق المصرية من عهد رمسيس الثالث تشير في الواقع إلى شعب باسم « الداونا» الذي يعتقد بعض الباحثين أنه مرادف «للدناويين» وهو أحد الأسماء الثلاثة التي يطلقها هوميروس على الإغريق (كالأرجيين Argéioi والأخايويين Achaioi ، وإن كان الأخير هو أكثرها شيوعاً عنده ، راجع ٧ ، ٨ هوامش) .

كورنثة القديمة في فترة ازدهار الحضارة الهللادية (١٥٥٠ – ١١٥٠) ،فقديسّر لفيدون (Pheidon) ،ملك أرجوس،السيطرة عليهافي أوائل القرن السابع [١].
وأما السبب في أن أرجوس لم تستطع الأحتفاظ بهذه السيطرة فيرجع إلى تفوق كورنثة في مواردها الإقتصادية والبشرية ، وليس إلى صعوبة المواصلات . وكان الأتصال بين أرجوس وأركاديا في الجنوب يتم عن طريق ممرين في جبل بارثنيون أحدهما شماليّ يؤدي إلى مانتلينيا والآخر إلى تجيا . وقد استغلت أرجوس هذين الممرين لتوطيد أقدامها في أركاديا أكثر من مرة . والواقع أن فرصة زعامـــة أرجوس في البلوبونيز كانت ترتهن بمدى إستطاعتهـــا توطيد أقدامها في سهول مانتينيّيا وتجيا ، إذ كان التحكم في هذه المنطقة الحيوية يمكنّها من أن تقطع خط مواصلات إسبرطة مع الخليج الكورنثي ، ويجعلهـا تهدد وادي نهر ألفيوس ، وهو الخط الرئيسي الآخر للمواصلات بين جنوب البلوبونيز وشمالها . غير أن أرجوس لم تنجح إلا في عقد محالفة مؤقتة مع مانتينيّيا وتجيـا ، وبذلك أقتصر دورها على ترجيح كفـة على أخرى في الميزان السياسي بالبلوبونيز ؛ وهو دور هام ، ولكنه لم يرق إلى دور الزعامة .

لاكونيا :

وقد جادت الطبيعة على **لاكونيا** (Laconia) أو لاكيدَيمون (Lacedaemon) من ناحية ، بميزة فريدة ، وهي ذلك السهـــل الخصيب في وادي نهر يوروتاس (Eurotas) الجميل،الذي يرقد في وسطها مسترخياً بين سلسلة جبل تايجتوس[٢] (Taygetus) ومرتفعات أركاديا وترويه عدة جداول تنساب من هذا الجبل

---

(١) هزم فيدون الإسبرطيين . وقيل إنه قلب الحكم في أرجوس من ملكية إلى «طغيان»، وسك أول عملة يونانية في آيجينا . وأشرف بنفسه على دورة الألعاب الأوليمبية في عام ٦٦٨ . وكانت أرجوس في عهده أقوى بلاد اليونان .

(٢) النطق الأصح هو تائيجتوس .

الذي يبلغ ارتفاع قمته ٨٠٠٠ قدم وتكسوه الثلوج حتى منتصف الصيف[١]. وإنتاج هذا السهل من الحاصلات يكفي لاستيعاب عدد كبير من السكان . ولذلك لم تحتدم في لاكونيا مشكلة عدم الاكتفاء الذاتي أو مشكلة الجوع التي دفعت بالسكان في غيرها من الأقاليم إلى الإشتغال بالتجـــارة أو الهجرة لإنشاء المستعمرات أو الإقدام على مغامرات سياسية خطيرة . غير أن لاكونيا ، من ناحية أخرى ، تعد من أكثر أقاليم بلاد اليونان انعزالاً . وإذ كانت تقع في أقصى الجنوب، كثساليا في أقصى الشمال ، فهي تبعد مسافة طويلة عن قلب بلاد اليونان. ومع أن فروع نهر يوروتاس الأعلى تشق لها طريقاً إلى وادي نهر ألفيوس ، إلا أن مرتفعـات اسكيريتس (Sciritis) في جنوب شرقي أركاديا تسد في وجههـا الطريق نحو خليج كورنثة . وتفصل سلسلة جبال بارنون (Parnon) ساحلها الشرقي عن المنطقة الداخلية. وأما في الغرب فتفصلها عن إقليم مسينيا سلسلة جبل تايجتوس (أو تايجتون) الشاهقة (٧٨٠٠ قدم) . والخليج اللاكوني أكثر تعرضاً للرياح من خليج أرجوليس ، وليس فيه سوى ميناء واحد ، هو مينـــاء جيثيوم (Gytheum) الذي يقع عند رأسه . ومع أن الطبيعة جعلت لاكونيـا إقليماً منعزلاً إلا أن دولة المدينة الإسبرطيـة التي قامت فيها لم تخرج فقط عن مألوف العادات اليونانية ، بل خرجت أيضاً على ناموس الطبيعة ، تاركة بذلـــك أثراً غريباً فريداً في مجرى التاريخ اليوناني .

---

(١) كان أخصب جزء فى لاكونيا هو الذي يقع بين جبل تايجتوس ونهر يوروتاس ، ووادي هذا المنحدر جنوباً حتى البحر ، والسهول الساحلية المتاخمة ، والرقعة الخصبة غربى جيثيوم (ميناء اسبرطة) . وكان هذا الجزء تتألف منه أرض الإسبرطيين الأحرار الخلص (Spartiatai) والتى كانت توزع عليهم فى شكل حصص متساوية على ما يرجح ، ويقوم بزراعتها لهم أشباه العبيد، ،حيث أنهم أي الإسبرطيين الأحرار كانوا يشتغلون بالجندية فقط.

وعندما جاء الدُوريون (١١٥٠) قاومتهم قرية أميكلاي (Amyclae) الحصينة مدة طويلة فأضطروا إلى النزول في مكان يبعد عنها أربعة أميال. وهناك أسسوا مدينة إسبرطة (Sparta) وذلك بإدمــاج أربع قرى تقع في وسط السهل على الضفة الغربية من نهر يوروتاس . وقد زاد عدد هذه القرى إلى خمس بعد إدماج أميكلاي . ويلاحظ أن هوميروس يسمي في الإلياذة والأوديسيا إقليم لاكونيا باسم لاكيدايمون (Lacedaemon) - وهي مملكــة منلاوس وهيليني - ويسمي عاصمتها اسبرطة (Sparté) ، وإن كان يفهم منه أحياناً أنه يطلق الأسمين دون تمييـز في المقصود . لكن في العصر التــاريخي أصبح لاكيدايمون هو الأسم الرسمي للإقليم . ولم يعد اسم اسبرطة يطلق كبديـل عن لاكيدايمون بمعنى الاقليم وإنما صار يقتصر عـلى المدينة وحدها . وبدهي أن اسبرطـة التي لم تؤسس إلا بعد مجيء الدوريين (١١٥٠) لم تكن موجودة زمن الحرب الطروادية (حوالي ١٢٠٠) . لكن هوميروس (الذي عـاش في القرن التاسع أو الثامن أي بعد تأسيس اسبرطة) يعود بتــاريخ تأسيسها إلى الوراء ويحرّف التسلسل التاريخي، ويتصور وجودها مكان بلدة أخرى لعلها أميكلاي التي كانت موجودة في عصر الحرب الطروادية وكانت - على ما يرجح - هي عاصمة مملكــة منلاوس وهليني . وفي الحق إن آثار العصر الميكيني عثرنا عليها في أميكلاي (فافيو Vaphio الحديثة) لا في موقع اسبرطة .

وبتأسيس **اسبرطة** يبدأ تاريخها الطويل الحافل بالمفارقات . ذلك أن اسبرطة على الرغم من عدم مناعتها الطبيعية ، ظلت على نقيض المدن اليونانية الأخرى بغير أسوار أو تحصينات دفاعية حتى عام ٢٠٠ ق.م. وكان توسعها خارج حدود لاكونيا ينطوي منذ البداية على مفارقة أخرى، أو بالأحرى يسير في اتجاه مضاد للجغرافيا . فالحروب المسينية التي استهلت بها إسبرطة ، في آخر القرن الثامن وخلال القرن السابع حركة التوسع دارت رحاها فوق أعلى سلسلة جبليــة في

البلوبونيز ، إذ كان الوصول إلى أقصر ممراتها وأقلهـــا انخفاضاً يستلزم الصعود مسافة ٥٠٠ قدم عبر خانق وعر. وقد أثار أطماع الإسبرطيين عبر هذه الحدود الوعرة سهل مسينيا الذي كان يضارع بل يفوق سهل يوروتاس في خصوبته حتى أصبح الاحتفاظ به مبدأ أساسياً في السياسة الإسبرطيـــة . غير أن الإحتفاظ بالسيطرة على شعب خاضع رغم أنفه وضد مشيئته ، وبسط هذه السيطرة عبر خط من المواصلات لا يمكن اختراقـــه في فصل الشتاء ، كان عبئاً ثقيلاً على الإسبرطيين اضطرهم إلى إعادة تنظيم دولتهم على أساس « اشتراكي استبدادي » تتحكم فيه السلطة المركزية في مختلف أدوار حياة جميع المواطنين الذين يدينون لها بالطاعة العمياء [1] .

وبعد الحروب المسينية [2] اتجهت حركة التوسع الإسبرطية نحو إيليس التي يفتح الطريق إليها وادي نهر ألفيوس ، وبعدئذ اتجهت نحو أرجوس وكورنثة ، مما أدى إلى تطاحن أسبرطة وتجيا في حرب مريرة في أوائل القرن السادس من أجل الاستيلاء على مرتفعات اسكيريتس في جنوب شرقي أركاديا ، والتحكم في الطريق الرئيسي المؤدي إلى أرجوس وكورنثة . غير أن اسبرطة لم تستطع أبداً أن تحرز أي سيطرة على الطريقين الرئيسيين اللذين يمران عبر شمال أرجوس وجنوبها ، فضلاً عن أن تطرف موقعها في جنوب شرق البلوبونيز جعـــل من

---

(١) لم يكن النظـــام الإسبرطي إشتراكيا بالمعنى الصحيح لأنه كان مقصوراً على المواطنين الإسبرطيين الأحرار الخلص (Spartiatai) ولا يشمل إنصاف المواطنين الساكنين حـــول لاكونيا والمعروفين بالبريئويكي (perioeci) ولا أشباه العبيد (heilotes) لكن هـذا النظام وقى اسبرطة من «حكم الطغاة» الذي لم يقم فيها لعدم قيام مشكلة توزيع الأراضي على نقيض معظم الدويلات الأخرى . وكانت اسبرطة تناصب « الطغاة » العداء وتعمل على الإطاحة بحكمهم في المدن الأخرى .

(٢) الحرب المسينية الأولى (٧٢٥ - ٧٠٥) ، والثانية (٦٨٥ - ٦٦٨) أو (٦٤٠ - ٦٢٠ ؟) ، والثالثة (٤٦٤ - ٤٦٠) .

المتعذر عليها أن تحكم رقابتها على البلاد التابعة لها في أركاديا. صحيح أن الإسبرطيين تغلبوا إلى حد ما على مشكلة المواصلات الطويلة بقدرتهم الفائقة على التعبئة السريعة والزحف دون هوادة أو راحة. غير أنهم اضطروا، إزاء افتقارهم إلى أداة كشبكة الطرق الرومانية الرائعة، إلى الاكتفاء بفرض سيطرة على وسط البلوبونيز وشمالها أوهى بكثير من التي فرضوها على أشباه عبيدهم (Heilotes) في لاكونيا ومسينيا.

وكانت الزعامة المؤقتة التي أحرزتها اسبرطة على بلاد اليونان عقب الحرب البلوبونيزية (٤٣١ – ٤٠٤) في اتجاه مضاد للظروف الجغرافية بصورة أوضح[1]. لقد اتضح للإسبرطيين أن السيطرة على كل بلاد اليونان من منطقة نائية أمر شاق فوق طاقتهم، إذ أعوزتهم السواحل الملائمة، ولم يكن لديهم سوى أسطول رمزي، وكانوا يعتمدون على وحدات حلفائهم للإحتفاظ بسيادتهم البحرية المزعزعة. وهذه العقبات الجغرافية التي تعترض أي توسع من أجل السيطرة قد تفسر لماذا لم تتضمّن أهداف اسبرطة فرض زعامة دائمة على كل العالم الهلليني. ولقد قاتل الإسبرطيون قتالاً طويلاً مريراً من أجل دعم سيطرتهم على البلوبونيز مما كلفهم أعباء تحملوها على ثقلها؛ غير أنهم أدركوا في الوقت نفسه أن أي توسع في دائرة السيطرة على بلاد الإغريق قد يقصيهم عن مركز قوتهم ويشتت جهودهم ويعرضهم للإنهيار. وأما الحملات الإسبرطية في القرن الرابع من أجل التوسع الاستعماري فهي لا تمثل إلا إتجاهاً مؤقتاً نشأ عن أطماع قائدين طموحين

---

(١) من سنة ٤٠٤ (استسلام اثينا) إلى ٣٨٦ (صلح الملك) وإن كانت أسبرطة لم تنهزم نهائياً إلا في عام ٣٧١ (معركة ليوكترا) على يد إپامينونداس، قائد طيبة الشهير. وهكذا انتقلت الزعامة في بلاد الإغريق من أثينا إلى إسبرطة، ثم إلى طيبة وأخيراً غزتها مقدونيا، قاضية على استقلال مدنها الحقيقي (معركة خيرونيا عام ٣٣٨ ق.م).

هما ليساندر (Lysander) وأجيسيلاوس (Agesilaus) ، لا عن سياسة قومية مرسومة .

وثمة عوامل أخرى — غير العزلة — أدت إلى تضاؤل شأن اسبرطة وتدهورها على مضي الزمن . وفي مقدمة هذه العوامل تركيز الدولة على الجانب العسكري دون سواه من الجوانب الإجتماعية أو الثقافية ، وتحكمها في رقاب المواطنين بحيث لم تدع لهم فرصة للإنطلاق والإبتكار والخلق في مجالات الأدب والفن والثقافة بوجه عام . يضاف إلى ذلك سياستها المتسمة بالتحفظ الشديد بل بالجمود وبالقسوة البالغة المجردة من الإنسانية في معاملتها للغير عندما تكون في مركز القوة ، وإغلاق الدائرة على المواطنين مما أدى إلى انكماش عددهم بالتدريج وتناقصهم بصورة ملفتة للنظر. هذا إلى جانب أطماع قوادها الشخصية من أمثال ليساندر وأجيسيلاوس . وبمرور الوقت ازداد التغاضي عن مبدأ المساواة التقليدي بين المواطنين الأحرار في الملكية الزراعية ، والإصرار على تحريم التعامل بالنقود المسكوكة ، وإباحة التصرف في الحصص الزراعية بعد أن كان محظوراً . ومن ثم فإن اسبرطة لم تنهض أبداً من كبوتها بعد هزيمة ليوكترا عام ٣٧١ ، واستقلال مسينيا عنها نتيجة لذلك .

ولقد حاول بعض ملوك أسبرطة من ذوي الهمة العالية في القرن الثالث انتشالها من الوهدة التي تردت فيها . حاول أجيس الرابع Agis (٢٤٤–٢٤١) إصلاح أمراضها الإجتماعية كالرهون الباهظة ، وتضخم الملكيات الفردية ، وضمور هيئة المواطنين ، وتراخي التدريب العسكري الصارم (agôgê) ، بإحياء دستور ليكورجوس القديم وتطبيق مواده . لكن المجلس التنفيذي في اسبرطة ، وهم الإفوروى (ephoroi) ، والذي كان بيده السلطة الفعلية ، قاوم هذه الإصلاحات وعارض التوسع في منح حقوق المواطنة الإسبرطية بحيث تشمل انصاف المواطنين (perioeci) أو الأجانب المستوطنين . بل إن هذا

المجلس قام بالتواطؤ مع القــلة القليلة من الإسبرطيين الخلّص (Spartiatai) بقتل هذا الملك . وحاول كليومنيس الثالث (Cleomenês) (٢٢٧ – ٢١٩) أن يقوم بثورة إجتماعية كأداة للتوسع الإسبرطي ، مقترحاً إصلاحات جذرية كإلغاء المجلس التنفيذي المذكور (ephoroi) ، وإلغــاء الديون ، وتوزيع الأراضي ، ورفع عدد المواطنين الإسبرطيين إلى ٤٠٠٠ بمنح حقوق المواطنــة لأنصاف المواطنين والمستوطنين الأجانب . لكن استبداده في الداخل، وأطماعه التوسعية في الخارج، حدت « بالحلف الأخي » إلى التدخل واستعداءانتيجونوس دوسون ، ملك مقدونيا ، عليــه ، ولحقت به الهزيمة في معركة سيلاسيا (Sellasia) في صيف عام ٢٢٢ . وهكذا فر كليومنيس – برغم نزعتــه الإصلاحيه – من وطنه لاجئــاً إلى ملك مصر ، بطلميوس الثالث ، الملقب « بالخيّر » الذي حاول خلفه أن يتخلص من الضيف غير المرغوب فيه فسجنه. لكن كليومنيس هرب من سجنــه ، وحاول إثارة الإسكندريين ودعوتهم إلى الثورة باسم « الحرية » ، لكن هيهـــات لأن كلمة الحرية لم يعد لها معنى في إسكندرية البطالمة . ولم يجد كليومنيس مناصاً من أن يقتل نفسه(٢١٩) .

وأخيراً قام نابيس Nabis (٢٠٧ – ١٩٢) ، الذي نادى بنفسه ملكاً على اسبرطة ،بإحياء مشروعات سلفه . وبرنامجه الإصلاحي ، وكان أكثر توفيقاً من سابقيه. لكن تحوله إلى جانب الرومان لم يشفع له إذ اتهم هو الآخر بالطغيان . وتحالف عليه كل من الرومان « والحلف الأخي» الذي كان زعيمه وقائده حينئذ فيلوبوءين (Philopoemên) ، زعيم ميجالوبوليس الأركادي ، وعدو اسبرطة (٢١٠ – ١٨٢) . تحالفوا على نابيس وأنزلوا به الهزيمــة في عام ١٩٣ . ولم يلبث نابيس أن اغتيل في انقلاب عسكري قام به الآيتوليون في اسبرطة عام ١٩٢ . وسيقت اسبرطة رغم أنفها إلى حظيرة « الحلف الأخي » ، ودارت في فلكه . ولم يلبث فيلوبوءين أن جرد اسبرطة من قوتهــا العسكرية ، وألغى دستور ليكورجوس ، ذلك الدستور العتيق ، الذي أظهر له الإسبرطيون ،

برغم قصوره وجوده ، ولاء طويل الأمد ، قد يثير الإكبـار، لكنه أيضاً يثير الدهشة إذ ساقها إلى نهاية محزنة .

وتعرف المنطقـة التي تقع غرب جبـــل تايجتوس باسم إقليم **مسينيا** (Messenia)، وهو يشبه لاكونيا من وجوه كثيرة ، فساحله الجنوبي تكتنفه الجبال ، وساحله الغربي معزول عن الداخل بسلسلة أخرى من المرتفعات. وعلى الساحل الأخير يقع خليج بيلوس Pylos (نفارينو) ، وهو مرفأ صـالح لرسو السفن ، غير أن افتقاره إلى ظهير ملائم سلبه ميزاته التجارية . وفي مدينـــة بيلوس [1] التي ثبت الآن أنها أحد مراكز الحضـارة الميكينية ، ومسقط رأس نستور (Nestor) الشيخ الراوية الثرثار،أحد الشخصيات الطريفة في الإلياذة، عثر الأستاذ بليجن (C. Blegen) – كما قدمنا – في ١٩٣٩ على أنقاض قصر ، ومقابر ذات قباب في شكل خلية النحل (tholos)ترجع إلى العصر الهللادي الحديث . وكذلك على مئات من اللوحات المكتوبة بخط (Linear B) تبين الآن أنه صورة قديمة من اللغة اليونانية[2] . وأمام خليج بيلوس الذي يشبه نصف الدائرة تقع اسفاكتيريا (Sphacteria)وهي جزيرة طويلة يفصل طرفها الشمالي عن رأس الخليج مضيق صغير احتله الأثينيون في الحرب البلوبونيزية.وقد ساعد ذلك زعيمهم الديماجوجي كليون (Cleon) على أن يقتحم الجزيرة نفسهـا في عام ٤٢٥ ، ويرغم القوة الإسبرطية المرابطة على الاستسلام ويأسر رجالهـــا أحياء ، الأمر الذي أثار دهشة العالم الهلليني .

وداخل خليج مسينيا يوجد ميناءان أحدهما ما يزال نشيطاً ، وهو فاراي (Pharae) ، الذي يعرف الآن باسم كالاماتا (Kalamata) ، وتصدر منه منتجات السهل المسيني . على أن تاريخ مسينيا انحصر تقريباً في سهله الأوسط

(١) اسمها الحديث آنو إنجليانوس (Ano Englianos) وتقع على الطرف الشمالي من الخليج .

(٢) راجع ص ٨٨ هامش ١ فيما تقدم .

الذي كان أكبر من سهل يوروتاس وأغزر إنتاجاً حتى أن الجزء الجنوبي منه ، حيث يجري نهر باميسوس (Pamisus) ، عرف لخصوبته باسم الأرض المباركة (Makaria) . لكن هذه النعمة انقلبت إلى نقمة على أهل مسينيا ، لأنها هي التي أغرت الإسبرطيين على غزو بلادهم وتحويلهم إلى أشباه عبيد . وكان آخر معقل في يد الغزاة بعد حصار طويل وقتال مرير في الحرب المسينية الثالثة (٤٦٤ – ٤٦٠)، هو جبل إيثومى (Ithomê) الذي يقع في السهل الأوسط ويبلغ ارتفاع حافته الغربية حوالي ٢٥٠٠ قدم . ولما كان هذا المكان ملائماً لقيام مدينة حصينة فقد نشأت عنده عاصمة باسم مسيني (Messenê) بعد أن تم تحرير الإقليم كله على يد إبامينونداس ، قائد طيبة الشهير ، في عام ٣٧٠ .

الفَصْـل الـرّابع

الأساطير والآلهـة

أساطير اليونان :

لقد تخلف عن العصر الهللادي الحديث المعروف بالعصر الميكيني (١٥٥٠ - ١١٥٠) تراث ضخم من القصص . إذ خاض ملوك هذا العصر وأمراؤه حروباً كثيرة في الداخل والخارج وقاموا بأعمال بطولية . ومع أنها كبدتهم نفقات طائلة ترتبت عليها نتائج اقتصادية وخيمة إلا أنها كانت هي المادة التي صيغت منها معظم قصص البطولة الهامة التي انتقلت إلينا عبر الأجيال . وتكاد لا توجد قصة بطولية إلا وترتبط في الغالب بموقع من المواقع المعروف بأنها كانت ميكينية . وقد انتقل الجانب الأكبر من هذه القصص على لسان الشعراء المحترفين منشدي الأغاني (aoidoi) الذين كانوا يترددون على قصور الأمراء

حيث كانوا يمتدحون بطولاتهم وأمجاد أسلافهم[1]. ولم يلبث أن تطور فن رواية القصص البطولية تدريجياً واكتمل نضجه حتى صار ملاحم شعرية كالالياذة التي تعد أعظم نموذج من هذا النوع من القصص . وليس من المعروف متى دونت أي من هذه القصص الطويلة كتابة لأول مـــرة . لكن من المرجح في ضوء الكشوف الحديثة أن الأخايويين (الأخيين) قد اقتبسوا أحـد أشكال الكتابة الكريتية (المينوية) واستعملوه على قدر استطاعتهم في تدوين سجلاتهم بلغتهم التي ثبت الآن أنها كانت صورة قديمة من اللغـــة اليونانية . لكن هذا الشكل من الكتابة (المسمى بالخطية ب Linear B) أهمل فيما بعد أو نسي خـلال العصر المسمى بالعصر المظلم (١١٥٠ – ٧٥٠ ق.م) ، واستعار اليونان في القرن الثامن ق.م أبجدية إحدى اللغات السامية الشمالية التي يرجح أنهـــا الفينيقية . ووائموا بين هـذه الأبجدية وبين طبيعة لغتهم وطوعوها لها بل جعلوها أكثر مرونة بإضافة الحروف اللينة (vowels) التي تفتقر اليها اللغات السامية . ومع أن استعمال الكتابة عندهم كان في أول الأمر مقصوراً على أغراض محددة ، إلا أنه أسهم في تثبيت مفهوم الأدب بالمعنى المستفاد من اسمه ، وفي تدوينه وحفظه حتى لا يترك للذاكرة وحدها التي قد تعرضه للتحريف أو الضياع .

كانت هناك إذن قصص كثيرة متداولة بـين الأخيين ، وكانت أغلبها يدور حول بطولات هؤلاء الأمراء الحربية وأمجـاد أسلافهم . لكن يسترعي النظر حقاً ما بين هذه القصص وأساطير الشرق الأدنى القديم من تشابه . وقد يقال

---

(١) المقصود منشدو الأغـــاني الذين كانوا لا يترددون فقط على قصور الأمراء بل كانوا يقيمون فيها على نحو ما تحدثنا به « الأوديسيا » : وهم غير المنشدين المتجولين (rhapsodoi) الذين كانوا فيما بعـد يغنون القصص البطولية وعلى الأخص أشعار هوميروس . وإن كان هوميروس نفسه يعتبر من المنشدين المتجولين .

في تعليل ذلك إن مجموعة من الأفكار الأسطورية انتشرت في كل منطقة شرق البحر المتوسط وأثرت في أدب الشرق الأدنى وأدب اليونان ، وأن كريت ربما كانت هي حلقة الوصل بين المنطقتين . لكن عناصر الشبه أقوى وأكثر من أن يكفيها مثل هـذا التعليل أو التفسير . فقد لاحظ أكثر من باحث أوجه الشبه بين ملحمة الاليـاذة اليونانية وملحمة جلجامش السومرية الأصل . ولم يفتهم التشابه الموجود بين الملحمتين لا في بعض المواقف أو بـين الشخصيات بل بين الأفكار الرئيسية أيضاً . ويمتد تأثير الملحمة السومرية إلى الأوديسيا كذلك [١]. ولنضرب مثلاً واحداً وهو تلك الزيارة التي قام بها أوديسيوس للعالم الآخر . فهذا المشهد مستعار من زيارة « إنكيدو » صديق جلجامش لعـالم الموتى . وتذكرنا فكرة القيـام بحملة حربية للظفر بعروس جميلة أو استعادتها الواردة في الالياذة بنفس الفكرة الواردة في ملحمة « كرت» الكنعانية (الفينيقية) . كما أن بعض الشخصيات والمواقف والتعابير في الأدب الأوجاريتي تنم عن تأثر الأساطير اليونانية بها . ونلتقي بفكرة البطل الذي تحطمت سفنه وغرق كل من معه إلا هو ، وهي قصة أوديسيوس (في الأوديسيا اليونانية) نلتقي بها قبل ذلك في القصة المصرية المسماة بقصة «الملاح الذي نجا من الغرق» (في إحدى جزر البحر الأحمر ؟) وترجع إلى ما قبل عام ٢٠٠٠ ق.م. كذلك نجـد لبعض الأساطير الوارد ذكرها في كتاب هيسيود المسمى « أنساب الآلهة » ، وقصة « أتلانتا » — الـتي رويناها من قبل [٢] — نظائر عند الحيثيين . ولا يمكن أن تكون كل هـذه المتشابهات وليدة الصدفة وحدها . لقد تأثرت القصص والأساطير اليونانية تأثراً ملحوظاً بقصص وأساطـير الشرق الأدنى القديم

(1) Cf. T. B. L. Webster, From Mycenae to Homer (London, 1958), p. 88.

(٢) راجع ص ٥١ ، حاشية ١ فيما تقدم .

واقتبست بعض العناصر من أدب السومريين والبابليين والحوريين والفينيقيين والحيثيين والمصريين . صحيح أن الدراسات المقارنة في هـذا الصدد لا تزال في مراحلها الأولى . لكن لا ريب في أنها تبشر بتقدم كبير ونتائج مثيرة وستبين مدى ارتباط الحضارة الهلادية بالأسس الأدبية والدينية والتاريخية الـتي سبقتها في الأقطار المجاورة بمنطقة الشرق الأدنى القديم (١) .

ومن بين هذه القصص الأخية توجد أيضاً بعض أساطير تدور حول مغامرات أشخاص بارزين يتضح من أسمائهم أنهم غير أخيين بل كانوا من سكان البـلاد الأصليين (البلاسجيين) السابقين على مجيء الإغريق إلى البلقان . كذلك يلاحظ أن مسرح حوادث بعض هـذه القصص الأخية لم يكن بلاد الإغريق نفسها بل جزيرة كريت . وليس من المستبعد أن يكون بعض عناصرها من نسج خيـال المينويين أي كريتي الأصل ، ولكنه تعرض لشيء من التحريف عند انتقاله من جيل إلى جيل . وعلى ذلك فإن ورثة الأخيين أو خلفاءهم وهم الإغريق قـد ورثوا ذخيرة كبيرة من الأساطير المتنوعة الأصل مثلما كان أصلهم العرقي خليطاً من الأخيين وسكان البلقان الأصليين .

وبقي أن نسأل عن نوع هذه القصص والأساطير . ويتبين من فحصها أنـه يمكن تقسيمها — بوجه عام — إلى ثلاثة أشكال أو أنواع :

---

(١) راجع :

T.B.L. Webster. op, cit, 69, 79 ff, 89, 225, 247. 252, 287,

وانظر أيضاً :

سبتينو موسكاتي « الحضارات السامية القديمة » (الترجمة العربية للدكتور يعقوب بكر) القاهرة ١٩٦٨ ، ص ١٣٣ .

أ — الخرافات البحتة (Myths) .

ب — القصص البطولية (Saga) .

جـ — الحكايات الشعبية (Màrchen) .

وأما الخرافة البحتة فهي وليدة التفكير الخيالي في نشأة الكون والظواهر الطبيعية وأصل الآلهة والمعتقدات والطقوس الدينية [١] . مثال ذلك محاولة تفسير ظاهرة كعبور الشمس للسماء (حسب تصورهم) كل يوم من الشرق للغرب ثم عودتها من رحلتها دون أن يراها أحد إلى مقرها لتطلع من جديد . الجواب عن الشق الأول : أنها (أى الشمس) تمتطي عربة تجرها مجموعة من الجياد اللامعة عبر السماء التي تصوروها كقبة منحنية فوق الأرض المسطحة . وأما عودة الشمس إلى مقرها دون أن يراها أحد فقد فسروها تفسيرات مختلفة أشهرها أنها كانت تبحر في كأس هائل عبر نهر عظيم يحيط بالأرض اسمه أوقيانوس(المحيط).وسؤال آخر : لماذا يؤدي الأثينيون في إليوسيس سنوياً شعائر العبادة السرية الشهيرة (Mysteria) التي تتخللها حركات غريبة شبيهة بالرقص الطقوسي وأخرى شبيهة بالتمثيلية المسرحية التي تروي حكاية اختطاف (كوري) ابنة ربة القمح وحزن أمها عليها . الجواب : لأن هاديس(بلوتون)، إله العالم السفلي ، أراد أن يتخذ لنفسه زوجة فاختطف «كوري» التي سمح لها أن تعود لتزور أمها ديميتير في العالمالعلوي حيث تقضي معها شطراً منالسنة وتقضي مع زوجها في باطن الأرض شطراً آخر . وقد وردت هذه الخرافة ضمن « نشيد الابتهال » لديميتير بجانب أشياء أخرى يمكن التخمين بأنها متعلقة

(١) هذا اللون من التفكير هو مقدمة الفضول العلمي والفروض العلمية التي كثيراً ما انتهى إلى نظريات وكشوف علمية بالغة الأهمية .

بالطقوس السرية . ونلتقي عند بعض الشعوب بخرافة كالخرافة السابقة وهي ما كان الإغريق يسمونها بالقصة المقدسة (hieros logos) ، ونجد أنها تشكل جزءاً هاماً من مراسم هـــذه الشعوب الدينية ، إذ كانت تتلى في الاحتفالات الدينية التي تقام في أوقات معلومة من السنة بل وفي ساعات معينة من النهار أو الليل حيث أن تلاوة هذه الشعيرة الخرافية كان لها — حسب اعتقادهم — تأثير فعال فهي تحفظ الأشياء كما هي فتبقى دائماً على ما كانت عليه منذ نشأتها بفعل قوى خارقة في غابر الزمان . فهي تجعل — على سبيل المثال — القمح ينمو باستمرار وينضج في كل عام ، وهي تحفظ نظام الكون القائم على حاله فلا يختل ولا يرتد إلى حالته الفطرية الأولى التي ربما لم يكن فيها شمس وكان يلف الأرض ظلام دائم ؛ أو هي تصون للشعب صاحب الخرافة كيانه الإجتماعي . غير أنــه لا توجد أدلة كافية على أن الإغريق كانوا من الشعوب التي استعملت الخرافات على النحو الذي أشرنا إليه . لقد ظلت الخرافات عندهم نوعاً من التأمل أو التفكير الخيالي في الظواهر الطبيعية التي لفتت أنظارهم، والعادات وعلى الأخص العادات الدينية التي انتشرت بينهم . ومن المؤكد أن هذه الخرافات لم ترق عندهم إلى مرتبة العقائد لأن الدين الإغريقي كان خلواً من العقائد، وكان يقتصر على أداء بعض طقوس تقليدية يظن أنها تجلب رضاء الآ لهــــة المعنية ولا يقوم على الايمان بهذا الشيء أو ذاك . ومع أن معظم الإغريق ولا سيما في العصور المبكرة كانوا يعتقدوا في صحة خرافاتهم إلا أنه لم يكن هناك ما يمنع الناس من اعتبارها غير صحيحة ، ولا كانت هناك عقوبة على الذين لا يمكنهم تصديقها أو يحاولون تفسيرها تفسيراً رمزياً أو يرفضونها بوصفها انحرافات في التفكير . فالكفر (asebeia) الذي كان يعد جريمة يعاقب عليها المرء في أثينا على سبيل المثال ، كان في جوهره اهمالاً أو انتهاكاً للشعائر الدينية، أو كان أحياناً محاولة

لترويج نظريات تنكر وجود بعض الآلهة أو جميعها ، مما يهدم هدماً تاماً الباعث الأساسي على عبادتها .

وأما الشكل أو النوع الثاني من الأساطير فهي تلك القصص المتواترة عن السلف التي يطلق عليها غالباً اسم Saga (وهي كلمة اسكندناوية بمعنى قصة) وأحياناً قليلة لفظ (Legends) الانجليزي . وتختلف « الساجا » في أصلها عن الخرافات اختلافاً بيّناً . لأن الساجا مع احتوائها على قدر كبير من الخرافات تقوم على أساس من الواقع التاريخي. وبعبارة أخرى هي قصص يمتزج فيها الخيال بالحقيقة التاريخية . فهي حقائق تاريخية محرّفة بدرجات متفاوتة وغالباً ما تتضمن أعمالاً بطولية ومغامرات خارقة كالملاحم البدائية الساذجة (ملحمة جلجامش السومرية) والملاحم البطولية الأصيلة الناضجة (كملحمة الالياذة)[1]. ومن بينها ايضاً القصص اليونانية القديمة (السابقة على قصة الحرب الطروادية) كقصة حرب « السبعة ضد طيبة » وقصة « حرب الأبناء » (أبناء السبعة السالف ذكرهم ضد المدينة نفسها) ، وكذلك تاريخ أسرة بيلوبس الملطخ بالدماء. وليست أي من هذه القصص اليونانية مستحيلة أو حتى غير محتملة . فليس من المستبعد تاريخياً أن تكون مدينة مثل طيبة (بأقليم بويوتيا) قد صدت حملة شنها عليها زعماء أرجوس وحلفاؤهم ثم سقطت في الجيل التالي في يد أبناء هؤلاء الزعماء السابقين الذين اخفقوا في الاستيلاء عليها في الحملة الأولى. وليس من المستبعد ايضاً أن تكون طروادة قد حوصرت ودمرت على يد بعض الغزاة الاغريق أو أن تكون أسرة بيلوبس الملكية التي ينتمي اليها أجاممنون قد مزقتها المنازعات الشخصية المريرة والاحقاد الدفينة التي دفعت بذوي القربى إلى قتل بعضهم

---

(١) وتتضمن أحياناً أخرى سير الأولياء والقديسين وما لهم من معجزات وكرامات . ومنها أيضاً « قصة الاسكندر » الذي نسجت حوله بعد موته خرافات ونسبت اليه معجزات كثيرة . ومثل هذه القصص هي التي يحسن تعريفها باللفظ الانجليزي Legends .

بعضاً . غير أن ذلك لا يقتضي منا أن نصدق – مثلاً – أن عـــدداً من آلهة أوليمبوس قد اشتركوا في الهجوم أو الدفاع عن طروادة أو أن اتريوس (والد اجاممنون) قد خدع أخاه ثويستيس وجعله يأ كل من لحم ابنائه .

وأما النوع الثالث وهو الحكايات الشعبية فكان قليلاً في بلاد اليونان بالقياس إلى النوعين الآخرين (١) . وغالباً ما يطلق على الحكايات الشعبية لفظ مرشن (Märchen)الذي استعارته كثير من اللغات الأوربية من الألمانية . ولعل اللفظ الانجليزي Folk - tales . قد يدل على نفس المعنى وإن كان لا يؤدي المقصود منه تماماً وأما اللفظ الانجليزي Fairy - tales بمعنى حكاية من حكايات الجان والعفاريت والغيلان وما اليها ، فهو لفظ غير مناسب وربما يكون مضللاً لأن هذه الحكايات أو القصص الشعبية لا تدور بالضرورة حول العفاريت أو غيرها من الكائنات الخارقة للطبيعة ، ولا بالضرورة حـــول حوادث أو شخصيات غير متصورة عقلاً . إن الحكايات الشعبية هي ما يصفها بعض الباحثين بأنهـــا « طفولة الخيال » ، ولا يعرف لها مؤلف ، وتنتقل من فم إلى فم ، بل من شعب إلى شعب ، متخطية حواجز اللغة . فنجد - على سبيل المثال – قصة العملاق ذي العين الواحدة ترد في كل من ملحمة الاوديسيالهوميروس (الذي اقتبسهامن حكاية شعبية متواترة) وقصة بلاد الاقزام المسماة «لابلاند »(شمالي اسكندناوة) . ومن ثم فإنه من الملائم أن نسمي هذه الحكايات بالقصص الشعبي . وهي تختلف عن « الخرافات البحتة » و « قصص البطولة الخارقة » في أنها نشأت عن مجرد الرغبة في التسلية والترويح عن النفس . فهي لم تنشأ لتفسير أصل شيء مجهول أو تعليل عادة طواها النسيان أو لتسجيل واقعة تاريخية أو شبه تاريخية. لكنها ترمي غالباً إلى بيان حقيقة عامة أو تأكيدها في الاذهان . ولعل أكثر الاشياء

---

(١) تحتوي قصة « ملاحي السفينة أرجو Argonautae على قدر من الحكايات الشعبية .

استلفاتاً للنظر في هذا النوع من الأساطير هو ذلك التشابه الموجـــود بين بعض الأفكار الرئيسية في مختلف الحكايات الشعبية بأنحاء العالم المتباعدة. وقد أصبحت هذه الأفكار الرئيسية، محور دراسات علمية دقيقة في العصر الحديث. وفي وسع من يطلع على نتائج هذه الدراسات أن يميز الحكايات الشعبية عن غيرها حتى عندما تكون مستترة في ثنايا « قصة خرافية بحتة » أو « قصة بطولية » . وقد يؤدي عدم تمييز الحكاية الشعبية عن غيرها من أشكال الأساطير إلى تفسيرات خـاطئة وسوء فهم لعادات الشعوب ومعتقداتها وتقاليدها الموروثة .

وقد تمتزج هذه الأنواع الثلاثة من الأساطير في أي قصة يونانية واحـدة ولا سيما إذا كانت القصة طويلة متشعبة موغلة في القدم أعيدت روايتهـــا مرات ومرات . ولنضرب مثلاً بقصة طروادة . فهذه القصة تستند أساساً إلى حـرب واقعية نشبت بين الأخيين أو الاغريق القدامى (وحلفائهم من سكان بعض جزر البحر الايجي)وبين الطرواديين(وحلفائهم في بعض الامارات المجاورة لمملكتهم بآسيا الصغرى) . وإلى هذا الحد تعتبر إذاً قصة بطولية (Saga) . لكنهـــا كثيراً ما تتناول أعمال الآلهة التي تدخل في نطاق الخرافة البحتة (Myth) ، كما تتضمن من وقت لآخر وقائع تدخل في صميم الحكايات الشعبية (Màrchen) ومن الضروري أن نتنبه إلى ما بين هذه الأنواع الثلاثة من الأساطير من اختلاف في الطبيعة حتى نكون على حذر فلا ننساق وراء بعض التفسيرات البـاطلة ، القديمة والحديثة ، للقصص اليونانية المتواترة .

ولا تبقى بعد ذلك سوى كلمة موجزة عن تفسير الأساطير . لقـد تعددت الآراء في تفسير الأساطير منذ القدم . لكنها تشعبت وتعقدت في القرن الماضي ولا يزال الخلاف قائماً بين العلماء حول تفسيرها . وفي وسعنا أن نجمـــل آراءهم المختلفة في أربع نظريات رئيسية :

١ - نظرية التفسير الديني .ويرى أصحابها أن الأساطير هي في الأصل مجموعة

من القصص الدينية عرفتها الشعوب على مر السنين وورد ذكرها عند كل شعب في كتبه السماوية . وهذا هو سبب التشابه بينها عند مختلف الشعوب. فأسطورة ديوكاليون(Deucalion)اليونانية تقابل قصة الطوفان عند السومريين، وأعمال البطل هيراكليس (Heracles لا تختلف عن أعمال شمشون الجبار .

٢ – نظرية التفسير التاريخي .وخلاصتها أن أبطال الأساطير كانوا في الأصل بشراً حقيقيين ، ملوكاً أو زعماء أو قواداً عاشوا على الأرض وقاموا بأعمال عظيمة وأدوا للناس خدمات جليلةفنسج الخيال الشعبي قصصاً تمجيداً لهم ورفعهم إلى مصاف الآلهة أو انصاف الألهة اعترافاً بفضلهم أو تزلفاً إليهم[١] . ولنضرب مثلاً بأيولوس (Aeolus) إله الرياح .فقد كان في الأصل ملكاً يحكم عدة جزر في البحر التيراني (المتاخم لسواحل إيطاليا الغربية) وعلم رعاياه كيف يستعملون الأشرعة ويستخدمون السفن وكيف ينبئون بحالة الطقس واتجاه الريح من ملاحظة الظواهر الجوية . ومن الأمثلة الأخرى مينوس وهيراكليس .

٣ – نظرية التفسير الرمزي ومؤداها أن اساطير القدماء كانت تعبر بطريقة رمزية عن فكرة دينية أو خلقية أو فلسفية ثم فقدت مع مرور الزمن معناها الرمزي واحتفظت بالمعنى الحرفي. ومن أمثلة ذلك أسطورة بروميثيوس الشهيرة التي سبق أن رويناها[٢] .

٤ – النظرية الطبيعية التي تقول بأن الأساطير إنما نشأت لتعليل الظواهر الطبيعية التي كان يخافها الانسان البدائي ويعجز عن إدراك سببها

---

(١) تسمى هذه النظرية بنظرية يوهيميروس (Euhemerus) أحد مواطني مسيني (في البلوبونيز) الذي عاش في أواخر القرن الثالث ق.م . وسنعود الى الحديث عنها فيا بعد .

(٢) راجع ص ٥٦ هامش ٢ فيا تقدم .

كالصاعقة والبرق والرعد . ومن ثم فقد كان زيوس إلهاً للصواعق وبوسيدون إلهاً للبحر وهيفايستوس إلهاً للبراكين .

ويتضح من هذه التفسيرات ما للأساطير من أهمية كبيرة لفهم تراث اليونان ومظاهر حضارتهم المختلفة . ولا غناء عن دراستها لفهم التاريخ وتذوق الأدب اليوناني وتفسير المعتقدات والشعائر الدينية وتحليل النظريات الفلسفية فضلاً عن ارتباط الأساطير الوثيق بالفن اليوناني وتأثيرها فيه. فمن العسير على من يغفلها أن يتذوق إلياذة هوميروس أو يقرأ تاريخ هيرودوت أو يفهم مسرحيات إيسخيلوس وسوفوكليس أو يفقه نظريات أفلاطون أو المذهب الأورفي أو يقدر فن فيدياس أو أن يعرف عادات وتقاليد اليونان (والرومان كذلك) معرفة صحيحة .

لا عجب إذن أن أصبحت الأساطير علماً مستقلاً يعرف بعلم « الميثولوجيا » (Mythology) الذي يتناول النوعين الأولين بوجه خاص . وأما النوع الثالث وهي الحكايات الشعبية فيكاد أن ينفرد كفرع متميز يدخل في إطار علم الأدب الشعبي أو الفولكلور (Folklore) الذي ازدادت العناية به في السنوات الأخيرة فانشئت له مراكز خاصة للتوفر على دراسته فضلاً عن أهميته في دراسة الإنسان (علم الانثروبولوجيا) والمجتمع (علم الاجتماع) .

كان هوميروس (القرن التاسع أو الثامن ق.م) وهيسيودوس أو هيسيود (حوالي ٧٠٠ ق.م) هما الشاعرين اللذين زودا العالم الهلليني بذخيرة ضخمة من الأساطير وحددا إطارها . إذ تزخر الإلياذة بأخبار كثيرة عن آلهة أوليمبوس وصفاتهم وعلاقات بعضهم بالبعض الآخر . كذلك تحفل الأوديسيا بأقاصيص خيالية كثيرة . وأما كتاب « أنساب الآلهة » لهيسيود فهو محاولة لتجميع الأساطير وتنسيقها فيما يشبه الموسوعة . وقد يختلف الكاتبان أحياناً في بعض التفاصيل . لكن إليهما يرجع الفضل الأول في وضع اللبنات الأولى للأساطير

اليونانية . وقد جاء بعدها شعراء آخرون أضافوا إليها أو رووها بطرق مختلفة . لكن الصورة التي رسمها هوميروس لآلهة أوليمبوس هي التي ظلت منطبعة في أذهان الإغريق قروناً طويلة . ولم يستطع الإغريق التحرر من تأثير الالياذة، ذلك التأثير الذي يظهر في شتى مظاهر الحياة اليونانية : في الدين والعادات والأدب والفن وفي كل مظهر تقريباً .

وسنقصر الكلام – في هذه المرحلة – على آلهة جبل أوليمبوس وهم آلهة الغزاة الأخيين الذين بدأوا يفدون إلى البلاد منذ عام ١٩٠٠ أو بعده بفترة . لكن ينبغي التنبيه إلى أن هؤلاء الآلهة لم يفدوا كلهم مع الأخيين وأن بعضهم كانوا موجودين في أرض البلقان من قبل أي كانوا أقدم من آلهة الغزاة ، وإن كان هوميروس قد أدمجهم جميعاً في مجمع إلهي واحد أو في أسرة واحدة على نحو ما سنرى بعد قليل . ولنضرب مثلا على ذلك بهيرا نفسها فهي إلهة قديمة في أرض البلقان وأقدم من زيوس نفسه، إله الغزاة الأخيين ، الذي جعله هوميروس شقيقاً لها وزوجاً. وكانت هيرا ربة قوية راسخة القدمين في الأرض فلم يجد الغزاة مناصاً من محاولة المواءمة بينها وبين إلههم الكبير . وقد مرت فترة تضارب ونزاع بين الآلهة القدامى والآلهة المحدثين. وينعكس ذلك على قصص الخصومات والمنازعات الكثيرة بين الزوجين في أول عهدهما عندما لم يكن الوئام قد صار تاماً بعد . كذلك ينعكس على بعض الصفات المتناقضة التي نراها متجمعة في إله واحد من هذه الآلهة . كان آلهة الغزاة الأخيين في الغالب آلهة سماء بينما كان الآلهة المحليون الأصلاء آلهة أرض وزراعة . ولم تكن هيرا وحدها هي الإلهة القديمة بل كان من بين الآلهة القدامى أثينة التي كانت عبادتها منتشرة في جنوب البلقان ومنطقة البحر الإيجي قبل قدوم الأخيين. وكذلك أبوللون الذي يرجح أنه وفد إلى المنطقة من مكان بعيد، لعله وسط آسيا. وأما أفروديتي فهي في الأصل إلهة شرقية قديمة

بمنطقة الشرق الأدنى القديم فهي صورة من عشتر أو عشترت عند الأكديين والكنعانيين . لكن شاعر الإلياذة يربط قدامى الآلهة بالجدد ويجعل منهم جميعاً أسرة واحدة تسكن فوق قمة جبل أوليمبوس .

والغرض من دراسة آلهة أوليمبوس هو التمهيد للحرب الطروادية موضوع الإلياذة ، لأن فهم هذه الملحمة قد يتعذر أو يتعثر بدون التعرف على هذه الآلهة وصفاتها ، ولا سيما أن كثيراً منها اشترك في هذه الحرب إما إلى جانب الإغريق أو إلى جانب الطرواديين . وينبغي التنبيه إلى أن الحرب الطروادية قد حدثت في الفترة الأخيرة من العصر الهللادي الحديث المسمى الآن بالعصر الميكيني الذي ذكرنا أنه يمتد بين ١٥٥٠ ، ١١٥٠ ق.م.(١) وفي الحق إن العلماء يقسمون العصر الميكيني إلى ثلاث فترات أولى وثانية وثالثة . فكأن الحرب الطروادية وقعت (حوالي ١٢٠٠ ق.م.) في الفترة الثالثة من العصر الميكيني أو بعبارة أخرى في العصر الميكيني الثالث والمسمى أحياناً بعصر البطولة . وإن شئت الدقة يسمى «بعصر البطولة الثاني» لأن الحرب الطروادية سبقتها أحداث وحروب وقعت في الفترتين الأولى والثانية من العصر الميكيني . وقد نشأت حول هذه الأحداث والحروب أساطير تتحدث عن أبطال أسبق من أبطال الحرب الطروادية . ومن ثم يسمى عصرهم « بعصر البطولة الأول» . وسنرجىء الكلام عن هذه الأساطير وهؤلاء الأبطال إلى حين نتناول العصر الميكيني مرة أخرى منذ بدايته من ناحية الواقع التاريخي . لكن لا ضير من أن نشير إشارة مسبقة إلى تلك الأساطير السابقة على الحرب الطروادية إذ نعتقد أنها كالإلياذة صدى لأحداث وحروب حقيقية أو تتضمن على الأقل نواة من الواقع التاريخي . ولا غناء عنها في دراسة العصر الميكيني الباكر لأنها تلقي أضواء عليه إذ ليس لدينا عنه معلومات أخرى

---

(١) راجع ص ٩٥ فيما تقدم.

سوى ما كشفناه من آثار .

- ومن أبرز هذه القصص والأساطير التي نشأت حول الأحداث والحروب التي وقعت في « عصر البطولة الأول » السابق على عصر الحرب الطروادية :

١ - قصة دناوس (Danaus) ملك أرجوس وأخيه آيجيبتوس (Aegyptus) التي تلقي ضوءاً على علاقة بلاد اليونان ومصر في تلك الفترة المبكرة من العصر الميكيني .

٢ - قصة حصار كاليدون (Calydon) بسبب النزاع الذي ثار حول توزيع الغنائم بعد صيد الخنزير البري الكاليدوني، وهي قصة سردناها عند الكلام عن الصيادة العداءة الماهرة أتلانتا (Atalanta)[1] . وتعكس القصة أوضاعاً كانت لا تزال غير مستقرة ، فالاغارات لنهب قطعان ماشية الجيران مستمرة ، وحدود الامارات لا تزال مائعة لم تثبت بعد .

٣ - قصة بلليروفون (أو بلليروفونتس) ابن ملك كورنثة الذي رحل عن بلده إلى أرجوس حيث اتهم زوراً بمراودة زوجة الملك عن نفسها فأبعد إلى ليكيا بآسيا الصغرى بقصد التخلص منه هناك . هذه القصة قد تكون صدى لعلاقات بين أرجوليس وإقليمي ليكيا وقيليقية بل قد تكون صدى لحملة قام بها إغريق ميكيني في آسيا الصغرى .

٤ - قصة ملاحي السفينة أرجو (Argonautae)، وهي رحلة بحرية خرجت من ميناء أيولكوس (في ثساليا) متجهة إلى الدردنيل والبسفور ومنطقة

---

(١) راجع ص ٥١ هامش ١ فيما تقدم . وتقع كاليدون (Calydon) في إقليم أيتوليا (Aetolia)

كولخيس على الشاطىء الشرقي للبحر الاسود بحثاً عن الذهب . وكانت مغامرة هللينية جامعة وتعتبر صدى لرحلات تجارية قام بهـا الاغريق في عصر البطولة الأول إلى هذه المنطقة النائية .

٥ – قصة برسيوس (Perseus)في تيرينس وأرجوس وتأسيسه لميكيناي.

٦ – أعمال البطل هيراكليس الشاقة الاثنا عشر ومغامراته في بلاد اليونان وخارجهـا والتي تعكس توسع مملكة ميكيناي وانتشار حضارتها ،

٧ – قصة حرب « سبعة ضد طيبة » وفشل الحصار ، التي ترمز إلى صعود نجم طيبة تحت حكم أسرة لابداكوس (Labdacus) (سليل كادموس) وجد أوديب (Oedipus) . وهذه القصة كسابقاتها تدور حول أحداث وقعت في عصر البطولة الاول .

٨ – قصة تدمير طيبة على يد أبناء السبعة (Epigonoi) والتي لا تسبق الحرب الطروادية إلا بحوالي قرن ونصف من الزمان فهي تنتمي مثلها إلى عصر البطولة الثاني . وترمز القصة إلى أفول نجم طيبة .

٩ – قصة بليوبس(Pelops)ومجيئه من فريجيا بآسيا الصغرى إلى البلوبونيز حيث استولى على الحكم في ميكيناي .

ولما كان بيلوبس هو جد أجاممنون الذي تولى قيادة حملة الاغريق في الحرب الطروادية (حوالى ١٢٠٠ ق.م.) فلا بد من استعراض تاريخ هذه الاسرة قبل الحديث عن الحرب الطروادية نفسها .

آلهة اليونان :

ونعود إلى آلهة أوليمبوس لنقول إن الاغريق تصوروا آلهتهـــم في صورة

البشر. وقد مر بنا كيف مجدت الحضارة اليونانية الانسان واعتبرته سيد الخلق. ولم يجد الاغريق قواماً أبدع من قوامه . ومن ثم فقد تخيلوا آلهتهم كأنهم بشر ورسموهم في صورة الانسان شكلاً وقواماً وإن تميزوا كلهم تقريباً بالقوة الخارقة والقوام البديع والجمال الرائع. وكانوا كالبشر يحتاجون إلى النوم ويأكلون ويشربون وإن اقتصر طعامهم على الامبروسيا (ambrosia) وشرابهم على النكتار (nectar) ، وهما طعام وشراب مقصوران على الآلهة دون سواهم . وكانوا يحبون ويكرهون ويفرحون ويحزنون . كانت بالاجمال تساورهم نفس المشاعر التي تساور بني الانسان، ويتزوجون وينجبون أولاداً ويعقدون علاقات مشروعة وغير مشروعة مع الآلهة ومع البشر . وقد يستبد بهم الغضب الجنوني وتنهش قلوبهم الغيرة العمياء . بل كانوا لا يتورعون أحياناً عن النفاق والمداهنة والكذب والختال . ويسود الوئام بينهم أحياناً وأحياناً أخرى يشيع الخصام. لكنهم كانوا يتميزون عن البشر في شيء جوهري وهو أنهم كانوا يعيشون أبداً في شباب دائم فلا تتقدم بهم السن ولا يهرمون . كانوا خالدين لا يذوقون طعم الموت . وكان زيوس أكثرهم قوة وهيبة وأعلاهم شأناً ومكانة بوصفه رباً للآلهة والناس . ولذلك كان بقية الآلهة يدينون له بالطاعة ويمتثلون لأوامره ويخشون بأسه وبطشه . ومع هذا فإن ذلك لم يمنع من أن يتبع كل إله هواه وينساق وراء ميوله الخاصة وقد يتمرد على زيوس نفسه أحياناً أو يتملقه ويداهنه أحيانا أخرى . بل لقد حدث ذات مرة أن كاد له فريق منهم محاولين الإطاحة به عن عرشه. فلم يكن عرش زيوس دائماً وطيد الأركان مثله في ذلك مثل عرش الملوك على الأرض وعرش أجاممنون في ميكيناي. لكن تفوق زيوس الكبير على غيره من الآلهة كان بمثابة خطوة أولى على الطريق الطويل نحو التوحيد .

وثمة ملاحظة هامة هي أن آلهة الإغريق لم يكن لهم دخل بخلق الكون .

فالكون مخلوق من قبلهم . كل ما كان في وسعهم هو أن يتقمصوا صوراً وأشكالاً أخرى عندما يشاءون. ولم يكن لهم يد في كتابة الموت أو الحياة. وكان القدر (moira) قوة أخرى لا سيطرة لهم عليها . وفي الحق إنهم كانوا على خلاف الآلهة المحلية القديمة المرتبطة بالأرض والزراعة لا يكترثون إلا قليلاً بما يجري على الأرض ولا تعنيهم شئون البشر إلا من زوايا معينة . كانت حياتهم رغدة سهلة وينفقون معظم وقتهم فوق جبل أوليمبوس المغطى بالثلوج في مآدب وحفلات أو في تدبير المكائد ، أو قد يدعوهم زيوس بين الفينة والفينة إلى اجتماع للبت في أمر هام. وكانت الأهواء تتحكم في سلوكهم مع البشر فيقدمون العون لمن يؤثرون وينزلون غضبهم على من يبغضون . وكان معيار ذلك هو مقدار تقرب الناس إليهم بالتعبد وتقديم القرابين وحرق البخور في الهياكل والمعابد. وكثيراً ما كانت تحل نقمتهم على من لا يذكرونهم من البشر أو يضنون عليهم بالقرابين أو لا يوفون بنذور نذروها لهم . لكن مع تطور الفكر الديني أصبح آلهة الإغريق ينصرون الحق ولا يحبون الظلم ويجزون الناس عن الإحسان ويبغضون الآثام ولا سيما سفك دماء ذوي الأرحام. وبدهي أن الإغريق الأوائل لم يتخذوا من آلهتهم قدوة في حياتهم الأخلاقية. بل إن بعض المفكرين والفلاسفة لم يخفوا استنكارهم لهذه الصورة التي رسمها هوميروس للآلهة وأعلنوا احتجاجهم على سلوك آلهة أوليمبوس . وكانت التجارب الشخصية هي التي علمت الإغريق بعض مبادىء أخلاقية كالإشفاق بالغرباء وحماية المستجيرين وتبجيل الآباء والنفور من الزهو والكبرياء ، كما غرست التعاليم الدينية المتوارثة في نفوسهم روح العدالة ، ولم تلبث فضائل كالشجاعة والحكمة والفطنة والاعتدال(sophrosyné)وضبط النفس أن صارت محل اعجابهم ومثلاً عليا عندهم .

كيف استوى زيوس على عرش الكون :

إن أشهر الأساطير عن زيوس (Zeus) هي التي تدور حول صراعه الطويل ضد خصومه قبل أن يستوي على عرش الكون. ويعود بنا هذا الصراع إلى نشأة الكون نفسه .

يروي لنا هيسيود أنه لم يكن هناك في البدء سوى الفـــراغ (Chaos) ، وهي كلمة تعني فراغ الفم عند التثاؤب، وتدل الآن على معنى الغموض والفوضى والاضطراب. ومن بعد الفراغ أو الهيولي نشأت « جايا » (Gaia) أي الأرض، الربة ذات الصدر الرحب العريض ، موطن جميع الآلهة سواء من يسكنون منهم في الأعالي فوق جبل أوليمبوس أو في أغوار الأرض . وكان هناك إيروس (Erôs) أو « الحب » ، أجمل الآلهة الخالدين ، الذي يسري في أوصال الآلهة والناس ويتحكم في قلوبهم . ومن الفراغ نشأ الظلام (Erebos) . ومن الظـلام أنجب الليل (Nyx) نور السماء (Aether) وضوء النهار (Himera) .

وأما « جـايا » أو الأرض فكان أورانوس (Ouranos) أو « السماء » هو أول من أنجبته كفواً لها ليكون قرينها فيحنو عليها ويغطيها تمامـاً ، ويصبح منزلا أبدياً للآلهة المباركين. وقد تمخضت عن جايا كل الجبـــال التي تهوى الحوريات والعرائس (Nymphae) السكنى في تلالهـــا ، وكذلك البحار . ومن بينها البحر المزبد (Pontus) ، وكل الأنهار وفي مقدمتها أوقيـــانوس (Oceanus) النهر الإله أو إله النهر الذي تنبع منه كل الأنهار والينابيع والعيون بل والبحر نفسه ، ويجري باستمرار في حلقة دائرية حول الارض ويقوم كالحـد الفاصل بين العالم وما وراء العالم . ومن بينهم أيضاً كانت تثيس (Tethys) ، ربة البحر ، وزوجة أوقيانوس ، التي أنجبت منه ثلاثة آلاف ولد ، وهم الانهار

الذكور وعشرات البنات وهي عرائس النهـر والبحر (Oceaninae) [1] أو بنات أوقيانوس. وكان من بين حفيداتها ثيتس (Thetis) سيدة البحر الكبرى، التي لا يستبعد أن يكون اسمها هو اسم جدتها نفسه محرّفا . وجميع هؤلاء الذين ذكرناهم أو فاتنا أن نذكرهم قد ولدتهم « جـايا » بدون « إيروس » أي بدون الحب أي دون أن يمسسها أحد .

وماذا عن أبناء « جايا » الأرض من « أورانوس » السماء ، ابنها وبعلها في الوقت نفسه ؟ لقد أنجبت ربة الأرض من رب السماء ١٨ ولداً وهم :

١ ـ التيتانيس (Titanes) وهم « الجبابرة » وعددهم ستة بنين وست بنات . وكانوا آلهة قدامى بدائيين يتصفون بالوحشية ومتمردين لا يرضخون لقانون . وكان أصغرهم هو كرونوس (Cronus) وأختـه ريا (Rhea) . والأخيران هما والدا زيوس . وسنرى كيف يصطرع زيوس صراعاً رهيبـاً ضد أعمامه (وأخواله في الوقت ذاته) من التيتانيس « الجبابرة » .

٢ ـ الكيكلوبيس (Cyclopes) وهم مخلوقات كان لكل منهم ـ كما يتبين من اسمهم ـ عين واحدة مستديرة في وسط جبهته . وعددهم ثلاثـة . وكانوا وفقاً لهوميروس وحوشاً يعيشون في المراعي النائية حيث لا حكومة ولا قانون. ولكنهم كانوا وفقـاً لهيسيود صناعاً مهرة في صناعة الصواعق واسماؤهم على التوالي : الراعد والبارق والمضيء . وكثيراً ما كانوا يشتركون في بنـاء تحصينات المدن .

٣ ـ هيكاتونخيريس (Hecatoncheires) . وكان لكل منهم ـ كما

(١) وقد يسمون أيضاً Nymphae أي عرائس (البحر) أو حورياته ، ولم يكن خالدات بل كن يعمرن طويلاً جداً .

يتضح من اسمهم – مائة ذراع . وعددهم أيضاً ثلاثة .

وبعد انفصال « جايا » عن « أورانوس » وتآمرها مع أبنائها عليه أنجبت من دمه الذي نزف منه وسقط عليها نتيجة تمزيقه وخصيه المخلوقات الآتية :

٤ – الأرينيس (Erinyes) وهن ربات القصاص والانتقام أو هن – بعبارة أصح – اللعنات المجسدة أو أشباح الذين قتلوا ظلماً .

٥ – العمالقـــة (Gigantes) وهم مخلوقات متوحشة سيصطرعون هم الآخرون مع زيوس وآلهة أوليمبوس صراعاً دامياً بالصخور وجذوع الشجر ، ويلقون حتفهم ويدفنون تحت رماد البراكين المنتشرة في بلاد الإغريق وايطاليا.

ثم أنجبت « جايا » من « ترتاروس » (Tartarus) وهو الظلام الكائن في أعمق أعماق الأرض ، أنجبت منه :

٦ – تيفون (Typhôn) (١) وهو تنين هائل له مائة رأس ويفح بأصوات تمثل أصوات كل الوحوش . وله مائة (أو مائتا ؟) ذراع ضخمة ، ومثلها من الأقدام . وكان من الجائز أن يحدث تيفون أضراراً جسيمة إذ سرق صاعقة زيوس وقطع أوتار عضلاته بسيفه . لكن هرميس استطاع أن يستردها. وعاجله زيوس بصاعقته وقهره وقذف به إلى حضن أبيه ترتاروس أي إلى أغوار الأرض

---

(١) ويرد اسمه أيضاً في صورة « تيفويوس» (Typhoeus) . أو تيفوس Typhos) أو تيفاون (Typhaon). والأخير غير « تيفاون » دلفي الذي أنجبتـــه « هيرا » وحدها دون معاشرة زيوس وكان هو الآخر تنيناً رهيباً وكان وباءً على البشر. وقد حملته هيرا إلى دلفي حيث عهدت به إلى التنينة بيثون (Python) تلك الأفعى الهائلة التي كانت تسكن كهوف جبـــل برناسوس وتحرس حجر دلفي المقدس ثم صرعها الإله أبولون بسهمه الذي لا يطيش. ومن ثم عرفت دلفي باسمها وكذلك الإله وكاهنته والمهرجانات الدورية التي كانت تعقد هناك. راجع ص ١١٦ ، ١٣٣ حاشية .

المظلمة . وقيل إن ثوران بركان جبل آيتنا (Aetna) في صقلية يرجع إلى تلك المعركة الرهيبة . وعلى أي حال فقد دفن تيفون تحت هذا البركان الهائل .

كان « أورانوس » ، رب السماء ، يجيء زوجته « جايا » ، ربة الأرض ، في كل مساء ليسترخي بجوارها. غير أنه كان يكره منذ البداية ابناءها الذين أنجبهم منها. كان يخشى على عرشه منهم. لذلك كان يبادر بإخفائهم بعد ولادتهم مباشرة ويقذف بهم في جوف الأرض حتى لا يروا نور الدنيا. كان يرميهم في «ترتاروس» وهو – كما ذكرنا – مكان مظلم سحيق في أعماق الأرض يبعد عن سطحها بُعد هذا السطح عن قمة جبل أوليمبوس . وبقدر ما كان « أورانوس » يبتهج بهذا العمل المرذول كانت « جايا » تبتئس بل تئن أنيناً موجعاً من ثقل حمل هؤلاء الأبناء في جوفها ، وهو حمل كاد يزهق روحها . وقد أثار مسلك أورانوس نحو ابنائها تبرمها منه وغضبها عليه. لذلك دبرت له مكيدة لكي تتخلص منه وبالتالي من عذابها المتصل . فأحضرت منجلاً من حديد حاد الأسنان ودعت أبناءها التيتانيس (الجبابرة) الاثنى عشر من بنين وبنات وفي مقدمتهم كرونوس الذي كان أصغرهم سناً وريا أخته . وناشدتهم مساعدتها في الانتقام من أبيهم وتخليصها من شروره . وتآمروا جميعاً هم و « الكيكلوبيس » و « ذوو الأذرع المائة » على أبيهم أورانوس . وانبرى كرونوس – وكان أكثرهم خداعاً – انبرى مبديا استعداده للكيد لأبيه والتربص به في أي كمين. وأعدت له أمه الكمين ورسمت له الخطة وأعطته المنجل الحاد .

وجاءها « أورانوس » بليل مشتاقاً إلى مضاجعتها وأرخى سدوله عليها فالتحفته كدأبها في كل مساء. وعندئذ أنقض كرونوس من مخبئه بالمنجل وخصى أباه قاذفاً بعضو ذكورته (phallus) إلى مسافة بعيدة . وتسرب الدم الذي نزف من أورانوس إلى رحم « جايا » ، ربة الأرض ، فأنبتت ربات الغضب والانتقام(Erinyes) وكذلك العمالقة (Gjigantes) . وأما عضو تناسل إله السماء

فقد سقط في البحر حيث اختلط به زبد الموج (aphros) الذي انبثقت منه أفروديتي (Aphroditê) ربة الخصب والحب والجمال . ومنذ أن ارتكب كرونوس جريمته الدامية لم يقرب إله السماء ربة الأرض ولم يأت لمباشرتها فاندثرت السلالة الأولى . وأعقبها حكم « كرونوس » الذي تربع على عرش الكون .

وقد تزوج كرونوس (Cronus) أخته ريا (Rhea) وأنجب منها ستة من آلهة أوليمبوس : ثلاث ربات كبيرات هن هيستيا وديميتير وهيرا ، وثلاثة أرباب كبار هم هاديس وبوسيدون وزيوس . وكما كان كرونوس أصغر أبناء أورانوس ، كذلك كان زيوس أصغر أبناء كرونوس ، وإن روى هوميروس رواية مخالفة لهيسيود ، مؤكداً أن زيوس كان أكبر اخوته . وقد شابه كرونوس أباه أورانوس في تخوفه من أبنائه ، فكان يبتلعهم بمجرد ولادتهم . ولعله خشي على عرشه منهم . وقد زاد من خوفه أن أبويه (جايا وأورانوس) حذراه من أن أحد ابنائه الاقوياء سوف يطيح بعرشه ولهذا أخذ حذره فكان يلتهم كل مولود تنجبه له زوجته . وقد حز ذلك في صدر ريا وجاوز ألمها حد الاحتمال . فلما اقترب ميعاد وضعها ابتهلت إلى أبويها ، الأرض والسماء ، أن يعيناها على أن تلد الطفل الجديد خفية في غفلة من أبيه اتقاء لشره ، وعلى أن تثأر أيضاً لأبنائها الآخرين الذين أخفاهم كرونوس في جوفه . واستجابت جايا وأورانوس إلى دعاء ابنتهما وكشفا لها عما خبأ القدر لزوجها وما كتبه لابنها الذي سيرى النور وشيكاً . وأرسل الوالدان ريا إلى جزيرة كريت حيث تولت أمها « جايا » حضانة الرضيع. وقد أخفت ريا طفلها في كهف بجبل دكتي أو إيدا(Ida)[1] وربما أيجايون . وكلها جبال تكسوها غابات كثيفة . فعلت ذلك حتى تخفيه عن أبيه كرونوس فلا يبتلعه مثلما ابتلع بقية إخوته . وقد خدعت ريا زوجها وقدمت له حجراً ملفوفاً في قماط فابتلعه ظناً منه أنه الطفل نفسه ولم يدر بخلده أن ابنه سيشب عن الطوق ويشتد ساعده ويطيح به ويجرده من سلطته ويتبوأ مكانه .

---

(١) وهو غير جبل إيدا Ida بجوار طروادة في آسيا الصغرى .

هذه الاسطورة الكريتية عن مولد زيوس أسطورة غريبة فريدة إذ تقول إنه قامت بإرضاع زيوس الحوريات أو الحيوانات أو الطيور أو النحل . وفي مقدمتها العنزة أمالثيا (Amalthea) ، وهي أشهر مرضعاته . ورقصت حوله كائنات نصف إلهية ، أشبه ما تكون بالارواح (daimones) تعرف باسم كوريتيس (Kouretes) أي « الصبية » ، وإن عرفت أيضاً باسم أصابع إيدا (Daktyloi Idaioi) لانها نبتت من أرض جبل « إيدا » التي ارتكزت عليها « ريا » بأصابعها عندما جاءها المخاض. هذه الكائنات أو الارواح أخذت ترقص حول زيوس بعد ولادته ، وتضرب دروعها حتى تطغي قرقعة السلاح على صراخ الطفل فلا يسمعه كرونوس [1] .

وبلغ زيوس بالفعل أشده واكتملت رجولته وقهر بالقوة والخديعة أباه كرونوس ، بل أرغمه أيضاً على أن يلفظ من جوفه بقية اخوته . ولم يخلّص زيوس أشقاءه فقط بل حرر أيضاً أعمامه (وهم أخواله في الوقت نفسه) الذين كانوا لا يزالون في ترتاروس يرسفون في الأصفاد التي قيدهم بها أورانوس . وكان في مقدمتهم الكيكلوبيس ذوو العين الواحدة المستديرة الذين اعترفوا بجميل زيوس عليهم فمنحوه الرعد والبرق والصاعقة وهي شعار قوته ورمز جبروته .

---

(١) وتضيف الاسطورة أن زيوس مات ودفن بجزيرة كريت. وليس ثمة شك في أنها فكرة مينوية الاصل ترمز إلى روح النبات ودورته ، غائبة ومواته في كل عام .

وقد وائم الإغريق بين هذه الفكرة وبين إلههم السماوي زيوس ، بمعنى أنه كان يوجد في كريت قبل مجيء الإغريق ربة أرض أو أمومة كبرى (مثل أفروديتي وكيبيلي وغيرهما) وكان لها قرين شاب . وقد أحل الإغريق زيوس محل هذا الإله الكريتي وجعلوا منه قريناً لربة الخصب الكريتية . وابتدعت الأسطورة التي يتمثل فيها زيوس كطفل . لكنه كان في الواقع صنوا للصبية الراقصين من حوله فهو يدعى « أعظم الصبية » . وقد يتجسد زيوس الكريتي في شكل الثور المعروف بقدرته الفائقة على الأخصاب . وكان من خصائص الشبان رفقاء ربات الخصب الكبرى في الشرق أن يموتوا كل عام تمشياً مع دورة النبات السنوية. ولم يؤثر هذا التصور الإغريقي لزيوس في كريت على تصورهم له في بلاد الإغريق نفسها. ذلك أن عصر الشك لم يكن قد بدأ بعد .

وبذلك خلف زيوس أباه كرونوس على عرش الكون وأصبح سيده (anax) ومليكه (basileus)[1] .

غير أن متاعب زيوس لم تنته بتخليصه من كرونوس فقد كاد مرة أن يلقى مصير أبيه . ويحدثنا هوميروس كيف تآمرت هـيرا وأثينة وبوسيدون على تقييده بالأغلال . غير أن ثيتس ، ربة البحر الكبرى ، استدعت وحشاً يسميه الآلهة باسم برياريوس (Briareus) ، ذي الأذرع المائة ، ويدعوه البشر باسم آيجايون (Aegaeon) ، أكبر الظن لأنه شارك هذه الربة سلطانها على البحر الإيجي فترة من الزمن ؛ استدعته من أعمـاق البحر وجعلته يتولى حراسة

---

(١) لكن ينبغي أن نذكر أن « حكم كرونوس » اقترن في الأذهان « بالعصر الذهبي » فكان فترة زاهية من فترات تاريخ العالم بلغ من رخائها أن العسل كان يتدفق أثناءها من اشجار البلوط . وكانت تسود عصره الفضيلة والبراءة والوئام الذي يغني عن القانون وتممه السعادة والوفرة في الخيرات التي تغني عن العمل والكد ، فالأرض تنبت كل شيء من تلقاء نفسها ، وكل شيء مشاع بين الجميع . وقد أنشىء لكرونوس عيد في بلاد اليونان يسمى كرونيا Cronia وكان يوافق وقت الحصاد (تموز) . وفيه كان يسود الفرح والمرح وتزول فيه مؤقتاً ما بين السادة والعبيد من فوارق فيجلسون معاً ويأكلون سوياً . وفي الحق إن زيوس عندما قيد أباه كرونوس بالأغلال وحمله إلى الطرف الأقصى من الأرض ، حمل معه « العصر الذهبي » الذي ما يزال قائماً عند الإليزيوم (Elysium) وهي جزر النعيم أو جزر المباركين (Makarôn Nesoi) وكلتاهما كانت مصير الصالحين من البشر الذين رضي عنهم الآلهة وكتبوا لهم السعادة والخلود . ويقال إن هـذه الجزر كانت تقع في مجرى الأوقيانوس في الغرب . وكان هيسيود هو الذي قسم العصور إلى خمسة : عصر الذهب ، وعصر الفضه وعصر البرونز وعصر الأبطـال وعصر الحديد . وكان كل عصر أسوأ من الذي قبله . ومن المرجح الآن أن كرونوس كان إلهاً قديماً للسكان الأصليين في البلقان قبل قدوم الإغريق . وكان على ما يبدو إلهـاً للزراعة . وكانت طقوس عبادته تقترن أحياناً بتقديم ضحايا بشرية (كما كان يحدث في رودس) . وقـد شبهه الرومان بإلههم ساتورنوس (Saturnus) وشبهوا زوجتـه ريا بربتهم اوبس (Ops) ربة الوفرة .

زيوس. وعندئذ خاف الآلهة الثلاثـــة فأقلعوا عن التآمر على زيوس وكفوا عن محاولة تكبيله بالسلاسل . والحق إن برياريوس ومن على شاكلتــه من الوحوش هم الذين استطاع زيوس بفضلهم أن يوطد أركان عرشه ويفرض سيطرته على سلالة كرونوس .

لكن لم يلبث أن واجه زيوس وأخوته خطراً شديداً من جانب التيتانيس، وهم — كما أسلفنا — الآلهة القدامى البدائيون أو « الجبـــابرة » . فقد اشتبك هؤلاء معهم في حرب مريره زهاء عشر سنوات . وشن الجبابرة الحروب من قمـة جبل أوثروس (في جنوب ثساليا)[1] بينما خاض زيوس وأخوته غمارها من قمة جبل أوليمبوس (في شمال ثساليا)[2] . وقد ظل الصراع الرهيب دون نتيجة حاسمة . وأخيراً كشفت ربة الأرض « جايا » للآلهة الجدد سر الانتصار. وعمل الآلهة بنصيحتها فاستدعوا برياريوس وزميليـــه الهكاتون خيريس ذوي الأذرع المائـة ، من أقصى الأرض وأغوار اليم ، وبثوا فيهم العزم والقوة بأن أشربوهم « نكتاراً » وأطعموهم « أمبروسيا » وهما شراب الآلهة الخالدين وطعامهـــم. وناشدهم زيوس أن ينضووا تحت لوائه في الحرب المستعرة ضد « الجبـــابرة » . واستؤنف القتال فاصطف آلهة أوليمبوس وآلهاته في مواجهة الجبابرة ، ذكوراً وإناثاً . ولما كان الآلهة الجدد قد كسبوا إلى جانبهم ثلاثة حلفاء لكل منهم مائة ذراع فكأن عتادهم زاد ثلاث مائة حجرة أو صخرة. وبهذا الوابل من الحجارة انهالوا على الجبابرة وغلبوهم على أمرهم. وقيد التيتانيس بعد هزيمتهم بالسلاسل وقذف بهم في « ترتاروس » الذي سبق أن وصفناه بأنـه مكان سحيق الغور في باطن الأرض يبعد عن سطحها بعد هذا السطح عن السماء . وعلى هذا المكان كان

---

(١) راجع ص ١٢٥ ، هامش ١ فيما تقدم.

(٢) راجع ص ٢٢ - ٢٣ ، ١٢٤ - ١٢٥.

يهوي سندان ضخم يقطع الجوزاء في تسع ليال ويبلغ الأرض في الليلة العاشرة ثم يغوص في أسفل الأرض تسع ليال أخرى ليبلغ « ترتاروس » في العاشرة . وكان ترتاروس معقلاً مسوراً بالحديد تكتنفه حجب كثيفة من الليل البهيم . وفوقه كانت تنبت جذور الأرض والبحر ، وفي داخله كان يقبع الجبابرة وسط ظلام دامس لا يراودهم أبداً بصيص من الأمل في الفرار منه . ذلك بأن بوسيدون قد صنع أبواب المعتقل من حديد غليظ ، وأقام برياريوس وزميليه حراساً عليه يقظين أبداً لا تغفل لهم عين ولا تأخذهم سنة أو نوم . وقد اختلف الباحثون في تفسير مغزى هذه المعركة المسماة معركة الجبابرة (Titanomachia) . إذ يرى فريق أنها ترمز للصراع بين قوى الطبيعة الخيرة وقواها الشريرة ، وفريق آخر يرى أنها ترمز لانتصار آلهة الغزاة الإغريق ، وهم آلهة أوليمبوس ، على آلهة السكان القدامى الأصليين (البلاسجيين) في البلقان ، ولعل الرأي الثاني هو الأرجح .

ولم يكد زيوس يفرغ من صراعه مع التيتانيس حتى واجهه خطراً أشد وأنكى من جانب « تيفون » وهو ذلك الابن الذي أنجبته « جايا » من ترتاروس [1] . وكان تيفون هذا — كما ذكرنا — تنيناً ضخماً فاق على صغر سنه جميع أبنائها الآخرين في الضخامة والقوة . كان ردفاه كردفي الإنسان ، لكنه كان فارعاً تطاول قامته أعلى الجبال وتنطح رأسه النجوم في كثير من الأحيان . فإذا بسط ذراعيه امتدت إحداهما إلى المغرب والأخرى إلى المشرق . وقد نبتت من كتفيه مائة رأس من رؤوس الأفاعي . وأما أسفل ردفيه فكان أشبه بثعبانين يصطرعان وقد يشرئبان إلى ما فوق رأسه ويحومان ثم يفحان فحيحاً مروعاً يصم الآذان . ولقد قيل إن الآلهة كانت تفهم ما يصدر من أصوات عن رؤوس هذه الأفاعي

(١) راجع ص ٢٠٠ فيما تقدم .

المائة . غير أن تيفون كان في وسعه أيضاً أن ينبح كالكلب نباحاً منكراً أو يئز أزيزاً ترجع الجبال صداه . وكان كل جسمه مكسواً بالأجنحة ، وكثيراً ما كان شعر رأسه الأشعث ولحيته الكثة يموجان في الهواء بينما تقدح عيناه بالشر والشرر . وطفق تيفون يقذف السماء بحجارة من لهب وهو يهدر ويفح بينما كان فمه ينفث ناراً بدلاً من الرغاء . وقد ساد القلق من أن تكون لتيفون الغلبة على الآلهة والناس . غير أن زيوس ضربه بصاعقته من بعيد ثم ضربه بمنجله الحديدي من قريب ، وطارده حتى جبل كاسيون (في شمال سوريا) فلما رأى التنين مصاباً بجرح بليغ دنا منه ليصارعه يداً بيد. غير أن زيوس انحشر بين ثنيات التنين وتجاويفه واستعصى عليه الحراك وكأنه وقع في شراك . وعندئذ أخذ التنين منه صاعقته وانتزع المنجل من يده وقطع به عصب يديه وقدميه . ثم حمل زيوس على كتفه وعبر به البحر إلى قيليقية بآسيا الصغرى حيث تركه في أحد الكهوف. وهناك أخفى تيفون عصب زيوس تحت جلد دبة وأقام تنينة مثله حارسة عليه . لكن هرميس ، رسول الآلهة استطاع مع إله آخر ، أن يسرق عصب زيوس ويرده إليه . واسترد زيوس قوته وظهر من السماء في عربته التي تجرها الجياد . وتعقب التنين حتى جبل نيسا (في طراقيا ؟) [1] . وهناك خدعت ربات القدر (Moirai) تيفون إذ أعطينه فاكهة ليأكلها قائلات له إنها سترد إليه قوته . غير أن الفاكهة كانت تحمل أسم « ليوم واحد فقط » . ولذلك لم يجد تيفون مناصاً من الفرار إلى جبال هيموس (بإقليم طراقيا) حيث طفق يقذف حوله الجبال ويلطخها بدمه (haima) ومن هنا جاء اسم هذه السلسلة الجبلية . وأخيراً لجأ إلى صقلية حيث ألقى عليه زيوس جبل آيتنا

---

(١) جبل نيسا (Nysa) حيث ولد الإله ديونيسوس (باكخوس) وإن كان يوجد عدة جبال تحمل هذا الاسم في مناطق مختلفة.

(Aetna) كله . وما يزال هذا الجبل (إتنا الحالي) يقذف بالحمم البركانية التي انصبت على رأس تيفون الذي دفن تحت هذا البركان [١] .

وأما آخر معركة خاضها زيوس وآلهة أوليمبوس فكانت ضد العمالقة (Gigantes) . وكان العمالقة – كما أشرنا – قد نبتوا من الدم الذي نزف من أورانوس وتسرب إلى رحم ربة الأرض « جايا » بعد أن خصاه ابنه كرونوس. ويظهر العمالقة في الرسوم القديمة في صورة متوحشين مدثرين بجلود الحيوانات يطيحون بالصخور وجذوع الشجر أو في صورة مخلوقات ضخمة هائلة ، نصفها الأعلى آدمي ، ونصفها الاسفل كأفاع توائم . ومن المعتقد أنهم ظهروا على سطح الارض في مكان معين وهو فليجرا Phlegra (أي السهول الملتهبة) وإن كان من العسير تحديده على وجه الدقة . لعله كان يقع في جنوب مقدونيا (البرزخ الطراقي) أو في ايطاليا (قرب فيزوف) [٢] . وبينما وقفت « جايا » إلى جانب آلهة أوليمبوس في حربهم ضد التيتانيس الجبابرة فقد وقفت في هذه المرة ضدهم إلى جانب ابنائها الجيجانتيس العمالقة . وقد روى أيضاً أن وحوش البحر ذوي الاذرع المائة كبرياريوس وزميليه قد وقفوا في صف العمالقة يشدون من أزرهم . وشاع أن آلهة أوليمبوس لن يتغلبوا على العمالقة إلا بمساعدة الإنس أو بالاحرى بمساعدة إلهين ينحدران من صلب نساء آدميات . ولم ينصر زيوس أخوته

---

(١) جبل إتنا هو أعلى بركان لا يزال نشطاً في كل أوروبا . ويبلغ ارتفاعه حوالي ١٠٧٥٨ قدماً ويقع في شرق صقلية بالقرب من مدينة قطانة (Catana) . وكان لثوران هذا البركان تأثير هائل في نفوس القدامى حتى أنهم كانوا يعزونه إلى الوحش تيفون المدفون تحته . وقد ثار بركان إتنا أخيراً (في شهر أبريل /نيسان ١٩٧١) . وكانت سفوحه السفلى خصبة وتنتج أنواعاً فاخرة من العنب . وتغطي الغابات سفوحه الوسطى . وأما سفوحه العليا فجرداء .

(٢) انظر :

H. J. Rose , A Handbook of Greek Mythology , 6 th ed . UP (London 1964) , p. 58.

وأخواته فحسب (هيرا وبوسيدون) بل نصره أيضاً أبناؤه (أثينة وأبوللون وهرميس وهيفايستوس) وابنان آخران أنجبتهما له زوجتان من البشر وهما هيراكليس البطل الإله ، وديونيسوس إله الكروم اللذان رجحا كفة الآلهة على العمالقة في القتال . ولقد كان في وسع العمالقة أن ينجوا بل يحرزوا النصر لو أنهم عثروا على عشب سحري معين كان كفيلاً بتحصينهم ضد الهزيمة بل يجعل من المستحيل قهرهم . وقد حاولت جايا أن تجده لهم. غير أن زيوس منع الفجر من الطلوع ومنع الشمس والقمر من الظهور حتى وجد العشب السحري بنفسه . وقد ازدحمت هذه المعركة المسماة بمعركة العمالقة (Gigantomachia) بالحيل والخدع والخطط الكثيرة وكانت من أكثر الأساطير الخرافية رواجاً بين الإغريق. وقد شغف بها الشعراء والرسامون. ومن ثم فقد تعددت رواياتها واختلفت تفاصيلها من كاتب لآخر . لكن أياً كان الاختلاف فلا خلاف على أن أبطالها الأوائل هم زيوس وهيراكليس وبوسيدون ثم أثينة (فيما بعد) . لقد كان من بين العمالقة واحد لا سبيل إلى قهره طالما كان مقيماً في موطنه لا يبرحه . هذا العملاق حمله هيراكليس بعد أن أصابه بسهمه ، إلى مكان بعيد حيث قضى عليه. وهاجم عملاق آخر هيراكليس وهيرا في آن واحد ، فأشعل زيوس في قلبه نار الشهوة فانقض على الربة ممزقاً ثيابها يريد اغتصابها . وعندئذ عاجله زيوس بضربة من صاعقته وصوب إليه هيراكليس سهمه فأرداه قتيلاً . وفقأ أبوللون بسهمه العين اليسرى لعملاق ثالث، وفقأ هيراكليس له اليمنى بنفس السلاح. وسحق بوسيدون تحت صخرة ضخمة اقتطعها من جزيرة قوس، وهي صخرة أصبحت فيما بعد جزيرة بركانية صغيرة باسم نيسيرا أو نيسيروس . وهوى عملاق يتخبط في دمائه بعد أن أطلق عليه أبوللون سهمه الذي لا يطيش . وذبح هرميس واحداً من هؤلاء العمالقة بعد أن غافله. وقتل ديونيسوس عدداً كبيراً منهم بعد أن اصطادهم في كرمته . واذا كان العمالقة الذين استماتوا في القتال قد هاجموا الآلهة بالصخور وجذوع أشجار البلوط المشتعلة، فإن هيفايستوس كان يرميهم بقذائف من حديد

منصهر . وأما أثينة فقد فعلت بأحد العمالقة (لعله بللاس أو إنكيلادوس) ما فعله أبوها من قبل بالتنين تيفون إذ قذفته بشيء لا يخطر لك أو يخطر لي على بال مهما جمح الخيال ، لقد قذفته في وجهه بكل جزيرة صقلية !! وما يزال هذا العملاق البائس مدفوناً تحت هذه الجزيرة مثلما دفن بقية زملائه تحت جزر أخرى أو تحت براكين في مختلف أنحاء بلاد اليونان وإيطاليا .

وبذلك تم سحق الجبابرة وتم انتصار زيوس وآلهة أوليمبوس . وتعبر هذه الاسطورة الخرافية عن الفكرة أو الاعتقاد الشعبي السائد عن آلهة متوحشة همجية تريد الإطاحة بآلهة الإغريق . غير أن الاسطورة فسرت في فترة لاحقة بأنها رمز لصراع الحضارة اليونانية ضد الهمجية وانتصار الإغريق على البرابرة (١) .

آلهة أوليمبوس

١ - زيوس وإخوته

ذكرت أن الإله كرونوس وزوجته ريا أنجبا ذرية من بينها ستة ابناء ثلاثة منهم ذكور وهم : **هاديس وبوسيدون وزيوس**

وثلاث أناث وهن : **هستيا وديميتير وهيرا .**

وتزوج زيوس (وهو أصغر إخوته وفقاً لرواية هيسيود وأكبرهم وفقاً لهوميروس) من أخته هيرا ثم استوى على العرش – كما رأينا بعد التخلص من أبيه . ولم ينجب زيوس من هيرا ، زوجته الشرعية الدائمة ، سوى إله أوليمبي

---

(١) وقد حدث بعد سقوط الجبابرة والعمالقة أن احتدم النزاع بين الآلهة وبين البشر ، إذ تبنى بروميثيوس (Prometheus)قضية بني الانسان ضد طغيان زيوس وجاءهم بالنار ، وقيده زيوس بالأغلال في جبل بالقوقاز . وانقذه هيراكليس في النهاية . (راجع ص ٥٦ – ٥٧ هامش ٢ فيما تقدم) .

واحد هو أريس[1] . وأنجب من نساء أخريات منحدرات من صلب الجبابرة أربعة أبناء هم : **أثينة وابوللون وارتميس وهرميس** . وأنجـب **أفروديتي** من من عشيقة أو زوجة سابقة على هيرا تدعى ديوني ، وإن كـان غير هوميروس ينسبونها إلى كرونوس أو إلى أورانوس ، إله السماء . وأما **هيفايستوس** فقـد أنجبته هيرا وحدها دون معاونة من زوجها . أنجبته بمعجزة من تلقـاء نفسها وذلك رداً على زيوس الذي أنجب هو الآخر أثينة بدون معاونتها ، إذ أنجبها من رأسه .

هكذا أصبحت الأسرة الإلهية فوق أوليمبوس تتألف من زيوس وإخوته الخمسة وأبنائه الستة وابن هيرا وحدها المسمى هيفايستوس . غير أن الإغريق درجوا على تقدير عددهم باثني عشر إلهاً وإلهة . وكانوا يتحدثون دائمـاً عن الآلهة الأوليمبية الأثني عشر . ويقيمون المعـابد للآلهة الاثني عشر . ويقسمون اليمين بالاثني عشر . ومنذ القرن الرابع ق.م أصبح كل واحد منهم يقترن ببرج من الأبراج السماوية الأثني عشر . بل إن أفلاطون اقترح أن يقرن كل واحد من هؤلاء الآلهـة بشهر من شهور السنة . ويرجع هذا الفرق في الحساب (بين ١٣ و ١٢) إلى أن اليونان غالبـاً ما كانوا يسقطون هاديس من القائمة ، لأن هاديس ، إله العالم السفلى أو عالم الموتى كان إلهاً رهيباً بغيضا بل كان إلهاً خفياً لا يعيش مع أسرته فوق جبل أوليمبوس بل يعيش محتجبا في مملكته في

---

(١) لكنه أنجب من هيرا ابنتين (غير أوليمبيتين) إحداهما إيليثويا (Eileithyia) ربة الولادة التي تساعد النساء عند الوضع، (وهي كأمها ربة قديمة موجودة قبـل مجيء الهللينيين) والأخرى هي هيبي (Hêbê) ربة الصبا ومجددة الشباب. وكانت تعمل كساقية لأبيها زيوس ثم حل محلها جانيميديس (Ganymedes) ابن ملـك طروادة (لاوميدون ؟) الذي تقمص زيوس شكل النسر واختطفه لجماله الصارخ واتخذ منه ساقياً وأعطى لأبيه في مقابل ذلك مجموعة من الجياد الكريمة .

باطن الأرض . بل كان على من يتقدم إليه بقربان في معبده أن يشيح بوجهه عن المذبح أثناء تقديمه القربان . وفي بعض الأحيان كان يسقط اسم إله آخر من بين الثلاثة عشر مع بقاء العدد ثابتاً عند أثني عشر . لقد كان تحديد اسماء الأثني عشر متروكاً في الواقع لكل مدينة حسب أهوائها. ففي أثينا — مثلاً — كان اسم هستيا يسقط من القائمة (منذ القرن الخامس ق.م) ويوضع بدلاً منه اسم ديونيسوس (باكخوس) ، وهو إله النبيذ الذي صعد نجمه فحل مكان هستيا كعضو في أسرة آلهة أوليمبوس . ولعلها تخلت له عن مكانها عن طيب خاطر لأنها كانت — كما يتبين من اسمها — ربة موقد البيت ونادراً ما كانت تغادر بيت الآلهة مع بقية أفراد الأسرة سواء لحضور الحفلات الكثيرة الصاخبة أو للمشاركة في المواكب التي اعتاد زيوس أن يقودها عبر السماء .

وينبغي قبل أن نمضي في الحديث عن آلهة الأسرة الأوليمبية عضواً عضواً التنبيه إلى ما سبق ان أشرنا إليه وعلى الأخص ما في الديانة الإغريقية من تعقد وخلط (١) . ومن أغرب ما يستلفت النظر في عبقرية اليونان هو احتفاظها بالمعتقدات القديمة بجانب الجديدة وعلى الأخص في مجال الدين . كانت الديانة الإغريقية خليطاً من عدة عناصر متباينة . وقد ظلت متضاربة وإن حدث أحياناً أن تحققت المواءمة بين بعض العناصر القديمة والجديدة . وتنتمي بعض هذه العناصر إلى العصر السابق على مجيء الإغريق إلى البلقان ، بينما ينتمي البعض الآخر إلى عصرهم . ويمكن أن توصف الأولى بأنها من نوع ديانات البحر الأبيض المتوسط أو شرقية أو أناضولية ، وتوصف الثانية بأنها شمالية أو نوردية أو هندية — أوربية . كانت معبودات الإغريق الأوائل (الآخيين) متسمة بطابع شعب محارب يجيد الفروسية

---

(١) راجع ص ٩٩ - ١٠٠ فيما تقدم .

محب للصيد والقتال وتختلف بداهة عن آلهة السكان القدامى الأصليين (البلاسجيين) الذين كانت زراعة الأرض مهنتهم الرئيسية . كان دين الغزاة الأخيين دين سماء وربهم إلهاً للرعدوالبرق اللذين ينزلهما على المغضوب عليهم . وكان الدين الآخر دين أرض وعبادة لخصوبة تربة الأرض ولا يخلو من طقوس سحرية ضماناً لاستمراره . وكانت الإلهة الرئيسية في منطقة البحر الإيجي والشرق الأدنى قبل مجيء الإغريق هي الربة الأم أو ربة الأمومة التي هي تجسيد للأرض المثمرة ومانحة الحياة والخصب للنبات والحيوان والانسان . وكانت عبادتها تتخذ بعض اشكال بدائية من الرمزية الروحية أو الغيبية تشير إلى الإعتقاد بإمكان الاتحاد بين العابد والمعبود . ومن ثم فقد تتخذ الطقوس الدينية أحياناً شكل التبني (تبني الربة للمعبود) أو المعاشرة الجنسية . وشتان بين عبادة آلهة الإغريق الدخيلة وعبادة الربة الفريجية كيبيلي (Cybelê) وعبادة الربة ديميتير في إليوسيس أو حتى عبادة ديونيسوس التي وفدت من طراقيا أو فريجيا (بالأناضول) إلى بلاد الإغريق .

لقد تصور الإغريق – وهم شعب خصب الخيال – أن كل مكان عرفوه في العالم كان مأهولاً بكائنات إلهية مختلفة الأصل . وقد وفد بعض هؤلاء الآلهة مع الأخيين الهندو – أوربيين المتكلمين باليونانية عندما جاءوا إلى البلقان، وبعدئذ عندما امتد نشاطهم الاستعماري إلى مناطق أخرى في العصر التاريخي . وكان بعض هؤلاء الآلهة ينتمون إلى عصر الحضارة المينوية وقد وجدهم الإغريق عند مجيئهم وتأثرت ديانتهم بهم تأثراً عميقاً . وكان بعضهم الآخر آلهة محليين صغاراً موجودين في البلاد منذ القرون الهمجية الأولى . وعلاوة على ذلك فإن الإغريق أنفسهم لم تنتظمهم جميعاً وحدة سياسية ولم يبلغوا أبداً هذه الوحدة . ومن المؤكد أن بعض طبقات من الغزاة الإغريق امتزجت بالسكان الأصليين . وترتب على ذلك أن نشأت مجموعة من مختلف

العبادات ومختلف المعبودات الكبيرة والصغيرة ، البدائية والمتحضرة . ونسبت لها اختصاصات أو وظائف مرتبطة على نحو أو آخر بدورة الحياة النباتية ودورة الحياة الإنسانية . ولم يكن في وسع شعب واسع الخيال كالإغريق ، وهم رواد الفلسفة ،ألا يتساءلوا عن الصلة بين هذه المعبودات المختلفة وعن الصلة بينها وبين العالم الذي تعيش فيه هي والمتبعدون لها . ومن ثم لا نجد رواية واحدة مسلما بها أو معتمدة عن نشأة الكون أو أصل الآلهة أو بدء الخليقة . إنما نجد فقط اتفاقاً عاماً على الصورة الإجمالية أو الخطوط العريضة وهو ثمرة الخيال ونتاج التأمل الباكر في هذه الأمور . فنجد عند هوميروس الآلهة وقد انتظموا في شكل أسرة يرأسها زيوس على غرار الأسر الآدمية . ونجد عند هيسيود أقدم رواية عن كيف حدث ذلك كله . وأخيراً ينبغي التنبيه إلى أن هوميروس هو الذي جعل من هؤلاء الآلهة أسرة واحدة بالرغم من اختلافهم في الأصل والنشأة . فكثير منهم لم يكن لهم في الأصل أي صلة بزيوس كبير آلهة الآخيين ، لأنهم كانوا موجودين بالمنطقة قبل قدوم هؤلاء الغزاة .

وسنفرد بقية هذا الفصل للحديث عن زيوس وإخوته الخمسة مرجئين الحديث عن أبنائه إلى الفصل التالي .

زيوس (١) : Zeus

لنبدأ بزيوس لأنه يأتي في مقدمة أرباب أوليمبوس . وفي الحق إن معلوماتنا عن الغزاة الإغريق تتلخص في كلمة هامة واحدة هي إسم زيوس . وقد شرحنا كيف استوى على عرش الكون . لكن هناك أسطورة ابتدعها خيال الأدباء تقول إن زيوس وأخويه اقترعوا على الكون فكان البحر من

---

(١) = جوبيتر (Iupiter) أو (Iuppiter) عند الرومـــان . والنطق الصحيح « يوبيتر » .

نصيب بوسيدون ، والعالم السفلي (باطن الأرض) من نصيب هاديس ، وكانت السماء والفضاء الأعلى من نصيب زيوس . وأما سطح الأرض نفسها فاعتبر مشاعاً بين الأخوة الثلاثة .

واسم زيوس (Zeus) مشتق من لفظ بمعنى الضياء واللمعان أو السماء أو السماء الصحو. فهو إله السماء أو هو السماء نفسها أو يسكن السماء التي يرسل منها المطر والبرق والرعد وينزل الصاعقة ويسيطر على الظواهر الجوية وعلى الطقس كله . فهو أيضاً رب الجو . ويصفه هوميروس بأنه جامع السحب . وبوصفه محركاً للرعد والصاعقة المخيفة فقد خلعت عليه ألقاب يتفق جرسها ورنينها مع هذه الصفة .

وكإله بهذه الصفة كان من الطبيعي أن يعتبره الإغريق الإله الأعلى، ويتصورونه في شخصية حاكم مهيب . لقد كان رب الصاعقة هو الإله الأعلى عند الشعوب البدائية . وكان وجود زيوس وعظمته من الأمور المسلم بها عند الإغريق. وقد يصطنع له كتاب الأساطير والشعراء شجرة نسب . لكن ذلك لم يترك انطباعاً قوياً في أذهان الناس . إن الصورة الرئيسية التي أنطبعت في أذهانهم هي صورة زيوس كحاكم وأب . فكلا الصفتين كانت تجتمع عادة في رئيس القبيلة البدائية . وذلك هو وضعه في الإلياذة . وقد يوصف بأنه ابن كرونوس . لكن كرونوس نفسه قلما يذكر في الإلياذة . لقد روي أن زيوس نفاه منذ زمن بعيد . لكن الإلياذة لا يتردد فيها أي صدى للصراع من أجل السلطة التي تتضمنها أسطورة كرونوس . إن زيوس هو أبو الآلهة والناس ، وهو الحاكم بين كل الخالدين . وأمامه يقف الانسان كمخلوق من طبقة أدنى ، مخلوق عاجز لا حيلة له . وزيوس خالد والإنسان فان . وهو قوي كل القوة والإنسان ضعيف . ويعيش زيوس في عالم خارجي أو بعيد عن الانسان تماماً . ولكي يتصل به الانسان أو يتقرب على

الوجه السليم فمن الضروري أن يسلم أولاً بسيادة زيوس ثم يعمل على استرضائه بالقرابين والعبادة . وزيوس حاكم وسيد لا يطيق وجود أي انداد له أو منافسين .

كان الصولجان شعاره والنسر طائره الذي يحلق في الأعالي (ملك الطيور) والصاعقة سلاحه الرهيب . وكان درعه (aegis) شيئاً لا تجسر العين على النظر إليه . إذا هزه انطلقت العاصفة والزوبعة (kataigis) . ويمثل الدرع سحابة الرعد المقبل . ويرسم في الفن كجلد الماعز (aegis) ويزين في وسطه برأس ميدوسا (Medusa) ، وهي أنثى متوحشة مجنحة تغطي رأسها الثعابين بدلاً من الشعر . ولها أسنان ضخمة . وكان من ينظر إليها يمسخ حجراً على الفور . وبدهي أن تعتبر قمم الجبال (التي يتربع زيوس على عرشها ومنها يصدر الظواهر الجوية) مقدسة لزيوس [1] . وكان النسر أيضاً مقدساً له . كذلك كانت شجرة البلوط. ذلك أن معبد زيوس في بلدة دودونا (في أبيروس) كان أقدم مركز للنبوءة (oraculum) في بلاد اليونان . وكانت الإجابات على أسئلة السائلين يحصل عليها عن طريق تفسير حفيف الرياح في شجرة بلوط قديمة موجودة هناك. كان الإله إذن يكشف عن إرادته بحفيف أوراق البلوط الذي تتولى الكاهنات تفسير معناه. وفي بعض الأحيان كانت تعلق في الشجرة أوان نحاسية لتجعل الأصوات أكثر رنيناً ووضوحاً. وكان التعرف على مشيئة الإله يتم أحياناً عن طريق تفسير هديل اليمام في الأغصان أو خرير المياه في الينابيع . وفي الحق إن كاهنات معبد دودونا كن يلقبن باليمام (Peleiai) . وثمة أسطورة تعزو نشأة نبوءة زيوس في دودونا إلى يمامة جاءت إلى هذا المكان طائرة من طيبة (الأقصر) في صعيد مصر . لكن سرعان ما حجبت نبوءة

---

(١) في الواقع أن كلمة أوليمبوس olympos معناها « جبل » .

أبوللون في دلفي نبوءة زيوس في دودونا ، وصارت أهم نبوءة في كل العالم الهلليني [1] .

كانت قوة زيوس تفوق قوة الآلهة الآخرين مجتمعين . ومع هذا فلم يكن — وفقاً لتصور الكتاب — إلهاً قادراً على كل شيء أو يحيط علمه بكل شيء . وكان من الممكن — وفقاً لهوميروس — خداعه بل معارضته . ففي الإلياذة ترد قصة يمكر فيها بوسيدون وهيرا وأثينة به . وتوصف أحياناً تلك القوة الخفية وهي القدر (moira) بأنها أقوى منه ، فنجد هيرا تسأله ذات مرة في خبث أو استخفاف إن كان في وسعه أو نيته أن ينقذ من الموت رجلاً كتب عليه أن يموت في لوح القدر .

وتصوره كثير من الأساطير إلهاً يقع في حب نساء عديدات أكثرهن الهات وقليلات منهن آدميات . فنسمع عن زواجه بأكثر من واحدة غير هيرا زوجته الشرعية المستديمة . ومن ثم يخوض كتاب الأساطير في سيرته متندرين بمنازعاته المستمرة مع هيرا بسبب مسلكه المعيب الذي لا يليق بأرفع الآلهة مقاماً. ويصورون هيرا كزوجة «غيور» حائرة تنفق معظم وقتها في مراقبة زوجها والتجسس عليه لكشف حيله وألاعيبه وفضح سلوكه في السماء قبل أن يفضح في الأرض . وسنعود بعد لحظة إلى مناقشة ذلك لتمييز الغث من السمين . وأما عن نزاعه مع هيرا فمرده إلى أن زيوس كان إلهاً جديداً بينما كانت هيرا إلهة قديمة في تلك البلاد التي عرفت فيما بعد باسم بلاد اليونان . وكان لها مقامها ومكانتها. وقد مضت فترة قبل أن تتم المصالحة ويتحقق الوئام. فهذا النزاع يعكس صراعاً بين عبادتين عبادة إله الأخيين الغزاة الجدد وعبادة إلهة السكان الأصليين القدامى في البلقان .

---

(١) راجع ص ١٣٤ هامش ٢ فيما تقدم .

وأما عن زيجات زيوس بآلهات فليست كلها من نسج خيال الشعراء والأدباء . كان بعض هذه الزيجات له أساس ديني . ويسمى هـذا النوع من الزواج بين إله وإلهة بالزواج المقدس (hieros gamos) . ولم يكن – كما ذكرت – وليـد الخرافة اليونانية فقط بل كان مظهراً لعقيدة وعبادة قديمتين عند الإغريق . كان بعض هذه الزيجات في الواقع يعكس الاعتقاد السائد باقتران السماء بالأرض الذي يخصب الأرض . فالأرض تمثل عنصر الأنوثة والسماء تمثل عنصر الذكورة الذي يلقح الأرض بالمطر والبلل . وكان زيوس في نظر الإغريق هو إله السماء الذكر . ومن ثم فإن هذا الاعتقاد السائد يفسر عدداً من زيجات زيوس كزواجـه من ديميتير وسيميلى وبرسيفوني، وكلهن آلهات أرض أي تتجسد فيهن روح الخصب. وهذا أيضاً هو التفسير المحتمل لزواجه من هيرا نفسها ولو أن الأدلة على أنهـا كانت أصلاً إلهة من إلهـات الأرض ليست وفيرة أو بمنأى عن الاعتراض والتجريح . وكانت إلهات الأرض قديمـاً أو في أول الأمر يعبدن في أماكن مختلفة متباعدة . كانت أرجوس تعتقد أن هيرا هي قرينة زيوس ، وإليوسيس تعتقد أن قرينته هي ديميتير بينما كانت طيبة تعتقد أنها سيميلى . وقد أدى ذلك إلى صعوبات بمجرد أن بدأت محـاولة التوفيق أو التنسيق بين مختلف الأساطير المحلية . وثمة احتمالان فإما أن زيوس كان له عدة زوجات فيما يشبه « الحريم » أو كان – إذا كانت له زوجة شرعية واحدة – رجـلاً خائناً لعهد الزواج ميئوساً من صلاحه. في الواقع إن الفكرة الثانية لم يستنكرها الإغريق استنكارهم للأولى ولم تثر في نفوسهم ما تثيره الأولى من نفور واشمئزاز . كان الإغريق من الشعوب التي تمارس عـادة الزواج بواحدة أي تؤمن بزوجة شرعية واحدة . لكنهم كانوا لا يضيقون ذرعـاً بانحراف الأزواج ويسمحون أو يغمضون العين على العلاقات غير المشروعة. ولم يكن هناك ما يشين الأزواج أو الأبناء المولودين

خارج نطاق الزواج [1] . وعلى ذلك عندما امتزجت الأساطير المحلية وادمجت في كل واحد (بفضل شعراء الملاحم) اختيرت أو اصطفيت إلهة واحدة لتكون زوجة زيوس ، واعتبرت الأخريات خليلات له أو عشيقات [2] . وكان هذا

---

(١) راجع ص ٧١ - ٧٢ فيما تقدم .

(٢) إلى جانب هيرا ، تزوج زيوس قبلها ديوني عندما كان لا يزال في دودونا وأنجب منها أفروديتي (وفقاً لرواية هوميروس) . ولعلها كانت عشيقته لا زوجته . وتزوج أخته الأخرى ديميتير وأنجب منها برسفوني ، وعاشر الجبارة ليتو وأنجب منها أبوللون وأرتميس . ومن جبارة أخرى تدعى مايا (ابنة اطلس) أنجب إبنه هرميس . وأنجب هيراكليس من الكميني وديونيسوس من سيميلي وكلتاهما توصف بأنها من البشر ، ثم عاشر ميتس (ابنة أوقيانوس وتثيس) التي اشتهرت بالحكمة وحملت منه . لكنه ابتلع الجنين أو أخفاه في رأسه . وفي رواية أخرى أنه ابتلع الأم نفسها وهي حامل في شهرها الأول خشية أن تنجب ولداً أكثر منه حكمة فيطيح به . وفيما بعد ولدت أثينة من رأس أبيها . وأما الزيجات التالية فهي زيجات رمزية وإليك بيانها :

- تزوج ثميس Themis (ومعنى اسمها الراسخة أو الثابتة أي ربة العرف الراسخ أو القانون الطبيعي الذي تسير الحياة طبقاً له) وأنجب منها :

١) ربات القدر Moirae (= Parcae) وهن : ا - لاخيسيس Lachesis التي تحدد مدة حياة الإنسان وعمره ب - وكلوثو Clotho التي تنسج خيط حياة الإنسان حـ - أتروبوس Atropos التي تقطع ذلك الخيط .

٢) ربات الفصول (Horae) وهن ا - يونوميا Eunomia ربة نظام الحكم العادل أو الحكم الصالح ب - ديكي Dike وهي ربة الجزاء العادل أو الحق حـ - أيريني Eirene ربة السلام وما يصحبه من رخاء . وترمز ربات الفصول هنا إلى أفكار أخلاقية وسياسية كالنظام والعدالة وما شابه ذلك لأن الفصول تأتي بانتظام ونظام معين .

غير أن الهوراي (Horae) يعتبرن في الغالب كربات يأتين مع تغير الفصول ويجعلن الزهور تزدهر والنبات ينمو . وفي هذه الحالة نجد أن أسماءهن وعددهن يختلف من مكان إلى آخر . فأحياناً هما اثنتان فقط : ثاللو Thallo (نمو النبات) وكاربو Carpo (ازدهار النبات والزهور) وقد تضاف إليهما ثالثة تسمى اوكسو Auxo (نضج النبات) . ثم أصبحن أربعة =

الوضع من شأنه أن يفسح المجال لخيال كتـاب الأساطير والشعراء بغير حدود فيخترعون قصصاً أو يحرفون أخرى قديمـة ويروونها بطرق مختلفة حسبما يحلو لهم ، وكلها أو معظمها لا ترتبط بالواقع إلا ارتباطاً طفيفاً أو لا ترتبط بـــه على الإطلاق .

لكن إلى جانب خيال الأدباء كان يوجد أيضاً باعث آخر وهي نعرة التباهي بين الأسرة بعراقة أصلها وقدم نسبها إذ تملكت الأسر الأرستقراطية فيما بعـد نزعة إلى ربط نسبهــا بالغزاة الإغريق الأوائل وعلى الأخص بزيوس إله هؤلاء الغزاة. فادعوا زواجه من نساء أسلافهم . وعندما كانت عبادة زيوس تنتشر في

= يمثلن الفصول الأربعة(الربيع والصيف والخريف والشتاء)وما يقترن بهذه الفصول من خيرات. وقد نسبن إلى هيليوس (إله الشمس) وسيليني (ربة القمر) ويرتبطن في العادة ببعض آلهة مثل ديميتير وكوري وأبولون وديونيسـوس وأفروديتي وبان كرفيقات تابعات . وكن يعبدن في أرجوس وفي أوليمبيا . ويشاهدن كضيوف في حفــلات زواج آلهة أوليمبوس والأبطال. ويلقين كل ترحيب لما يخلعنه على الحفلات من بهجة وإشراق . وعندما قسم النهار إلى ١٢ قسـماً متساوياً سمي كل قسم منه هورا (Hora) ، أي باسم واحدة من ربات الفصول . ومن اسم Hora اشتقت كلمة hour (في الإنجليزية) بمعنى ساعة من النهار .

– ثم تزوج زيوس يورينومي Eurynomê (وهي إبنة أوقيانوس) وانجب منهـــا الخاريتيس Charites (= Gratiae) وهن ربات اللطافـة والرشاقة والبهاء اللاتي يرمزن للجمال الحسي أو المعنوي الذي يثير النشوة في الجسم أو البهجة في النفس . وكن يشاهدن دائماً بصحبةأفروديتي وكن صديقات أيضاًلربات الفنون وأسماؤهن هيا ـ يوفروسيني Euphrosynê ب ـ أجلايا Aglaia حـ ـ ثاليا Thalia .

– ثم تزوج منيموسيني Mnemosynê ربة الذاكرة والتذكر ومنها أنجب ربات الفنون التسع Musae اللائي سبق الكلام عنهن (راجع ص ١٤٤ هامش ١ فيما تقدم) . ويعرفن في اللاتينية باسم كاميناي (Camenae) .

مدينة كان يوجد فيها من قبل إله أو حاكم مؤلّه ، امتزج الاثنان تدريجياً في إله واحد . وعندئذ كانت زوجة الإله المحلي أو الحاكم المؤله تؤول إلى زيوس . وعلى ذلك فإن نزعة التفاخر الأسري تفسر لنا كثيراً من قصص غرام زيوس بآدميات وعلاقاته النسائيـــة التي لم ترق في أعين إغريق العصور التالية . ومع هذا فينبغي التنبه إلى أن بعض النساء الآدميات اللائي عاشرهن زيوس لم يكن أصلا من البشر بل كن أنفسهن إلهـات أو مؤلهات . وحتى سيميلي ، أم ديونيسوس ، جعل منهـا أهل طيبة إمرأة من البشر ونسبوها إلى كادموس (ابن ملك صور) مع أنها كانت في الأصل ربة للأرض والخصب كما يتضح من اسمها سيميلي أو زيميلي (Zemelê) .

والخلاصـــة أن قصص زواج زيوس من ربات قدامى للأرض هي — في كثير من الحالات — صدى لارتباط أو اختلاط العبادات الجديدة بالعبادات القديمة . وهي تمثل من الناحية التاريخية امتزاجاً بين العقائد . كان الناس ينظرون إلى ما سميناه « بالزواج المقدس » كزواج عناصر الذكورة وعناصر الأنوثة في الطبيعـة لتخصيب الأخيرة . ومن قبل مجيء الإغريق وزيوس كانت إلهة الأرض أو إلهة الأمومة هي كل شيء بمنطقة شرق البحر المتوسط : كانت الربة الكبرى كيبيلي في فريجيا وكانت أفروديتي في بلاد الرافدين وفينيقيا ، وكانت ربـة الأرض في كريت كلهن ربات كبيرات لا منـــازع لهن . وكن جميعاً يرمزن لخصوبـة الأرض . وكان يقرن بربة الأرض ، أيا كان اسمها ، صبي أو شاب (غالباً وسيم الطلعة) أو حتى طفل ذكر (سرعان ما يكبر ويشتد عوده) . وكان تابعاً لربة الأرض يقوم بخدمتها ويأتمر بأمرها ويدور في فلكها وإن اتخذت منه عشيقاً أو قريناً . لكن بمجيء زيوس إلى بلاد البلقـان (اليونان فيما بعد) حدث تغيير في الوضع . كان زيوس بالنسبة للإغريق رب السماء الذكر ، وأب الآلهة والناس ، ولا علاقة له أصلا بالأرض أو الخصب . وكان لا بد من المواءمة بينه وبين هيرا

ربة الأرض والخصب ، أو الربة القديمة القوية التي كانت تتمتع بمكانة ومركز وطيد . ولذلك اصطنع الزواج بينهما . وكان زواجاً مقدساً بين إلهين قويين مع رجحان كفة زيوس إله الغزاة ، الذي يقوم بالدور القيادي في هذا الزواج . فعند هوميروس زيوس هو الملك(basileus)وليست هيرا إلا قرينة أو زوجة الملك ، الذي يجب أن تنزل عند إرادته وترضخ لمشيئته ، وإن كانت تفعل ذلك على مضض منها وغضب في بعض الأحيان . ويمكن القول – مصداقاً لما ورد عند هوميروس – بأن إله السماء الذكر الذي جاء مع الغزاة الأخيين قد نجح تماماً في فرض نفسه كشريك مسيطر في الزواج . لكن الغزاة لم يتمكنوا من طمس معالم المعتقدات أو الآلهة القديمة . فظل زيوس ذا طبيعة ثنائية أو مزدوجة أي يجمع بين عنصرين متناقضين تماماً: طبيعته كرمز للخصب التي تتضح من الأسطورة الكريتية عن مولده إذ تمثله كطفل أو شاب (kouros) أو ثور تتجسد فيه روح الخصب والنماء والدورة النباتية ؛ وهي الأسطورة الوحيدة التي تتحدث عن موته (في كل عام ثم بعثه من جديد) [١] . وأما طبيعته كإله للسماء فقد أتى بها مع الإغريق الأوائل .

لكن زيوس ظل يعتبر في نظر الإغريق طوال تاريخهم كإله أعلى للجميع بل إلهاً عالمياً . ويوصف في أقدم النصوص بالإله الأجل والأعظم والأكبر الذي يسكن في السماء . ولم يكن زيوس يتطلب من عباده تقديم القرابين فحسب بل إتيان العمل الصالح أيضاً « فهو لا يعين أبداً من يكذبون أو يحنثون باليمين » . لقد كانت هناك فكرتان متناقضتان عنه ، إحداهما حسنة والاخرى سيئة شأنه في ذلك شأن بقية الآلهة والآلهات . وقد ظلت الفكرتان إحداهما إلى جانب الاخرى حقبة طويلة .

---

(١) راجع ص ٢٠٣ هامش ١ وترد الكلمة عند هوميروس في صورة kourés .

ولقد ذكرت أن زيوس كان رب الآلهة والبشر . لكن ذلـك لا يعني أنه خالقهم ، بل يعني فقط أنه كان أب الآلهة والناس (Pater - Patroos) أي راعيهم الروحي . كان مركزه أشبه بمركـــز رب الأسرة عند الرومان (paterfamilias) . وتتضمن هذه الفكرة الموروثة عن الشعوب الهندية ـ الأوربية معنى أخلاقياً وهي حراسة القوانين ورعاية العرف المتوارث : كحماية اللاجئين ورعاية الغرباء ، وهي صفات ارتبطت دائماً بزيوس ، فعرف باسم حامي المتوسلين (Hikesios) وراعي الغرباء (Xenios) . ويفسر ذلك كيف أصبح زيوس رب فناء المنزل (Herkeios) الذي كان يحاط في العادة بسور لحماية سكانه من عدوان المغيرين وهجوم الحيوانات المفترسة . وأصبح زيوس رب الأسرة وحامي ممتلكاتها (Ktesios) . ولما كانت دولة المدينة ترتكز أساساً على الأسرة فقد صار زيوس ـ كما يتضح من أشعار هوميروس ـ راعياً للملك وحقوقه . وقد تصور أهل الحضارة الميكينية ربهم الأعلى والأرباب الآخرين على شاكلة ملك ميكيناي والأمراء الأقل جاهاً في المدن الأخرى . وكما كان هؤلاء الأمراء يدينون لملـك ميكيناي بقدر من الاحترام والطاعة ، وقد يتنازعون معه أو يتمردون عليه في بعض الأحيان ، كذلك كان زيوس ـ على نحو ما رأينا ـ محاطاً ببعض أرباب مشاكسين ، قد يتحدونه أحياناً ولكنهم كانوا يجلونه في أغلب الأحايين . ولم يكن زيوس يحكم بمقتضى الحق والعدالة بقدر ما كان يحكم عنوة واقتداراً . وكان هوميروس هو الذي طبع صورة هذا الإله في أذهان الإغريق . ومع أن الملكية زالت من المدن اليونانية في العصر التاريخي إلا أن عرش زيوس ظل وطيد الأركان فأصبح الإله الأعلى لدولة المدينة (Polieus) جنباً إلى جنب أثينة ربتها العليا (Polias) لأنها كانت في الأصل ربة القلعة والقصر الميكيني وحـــامية مليكه . وكان زيوس بوصفه حامياً للحرية السياسية يدعى بالمحرر (Eleutherios) والمخلّص (Sôtêr) وانتشرت له الأعياد بهذه الصفة . ومع أن زيوس لم تكن

تعنيه في العادة شئون الناس كالزراعة والحرب والحرف الأخرى إلا أن الإغريق لم ينسوا أبداً أنه حامي القانون والتقاليد. ويبتهل إليه الشاعر التعليمي هيسيود بوصفه نصير العدالة ويقرنه بالربة ديكي (Dikê) وهي ربة السلوك السوي وبعدئذ ربة الجزاء العادل أو الحق . ويبلغ زيوس أسمى مرتبة عند الشاعر المسرحي آيسخيلوس الذي يعظم من شأنه ويشيد بعدالته وتقواه وقوته الساحقة . غير أن أهمية زيوس لا تبرز أثناء العصر التاريخي في حياة الإغريق الدينية بقدر ما تبرز في الفن والأدب [1].

هيرا [2] : Hera

كانت ربة قديمة في بلاد اليونان. ولا نعرف اسمها الأصلي قبل مجيء الآخيين . لكن اسمها اليوناني هيرا (Hera) يعني « السيدة » (فهو مؤنث هيروس herôs بمعنى سيد أو فارس) . وقد جعل الإغريق منها أختاً لزيوس وزوجة شرعية . ويبدو أن أرجوس (Argos) كانت أقدم بلد عبدت فيه هيرا حتى أنها تلقب أحياناً بهيرا الأرجية (Hera Argeia) . وكان أشهر معبد لها يقوم في بلدة باسمها وهي بلدة هيرايوم (Heraeum) على بعد حوالي ستة أميال شمالي أرجوس . وكان أعظم وأشهر مركز لعبادتها بعد أرجوس هي جزيرة ساموس (Samos) حيث ولدت هيرا — على ما يروى — وعبدت منذ زمن مبكر ، وإن زعم أهل أركاديا — كما زعموا في حالة زيوس — أنها نشأت في إقليمهم . وكان يقام في ساموس احتفال سنوي يقوم الناس فيه بنقل تمثال هيرا

---

(١) من أروع تماثيله ذلك التمثال الذي صنعه له المثال الأثيني الشهير فيدياس في القرن الخامس ق.م في بلدة أوليمبيا ، مركز الدورة الأوليمبية الرياضية التي أنشئت هي الأخرى تمجيداً لزيوس في عام ٧٧٦ ق.م .

(٢) = جونو (Iuno)عند الرومان . والنطق الأصح (يونو).

سرا من معبدها ويخفونه قرب الشاطىء . ويفسر ذلك بأنه رمز لتلك العادة القديمة التي كانت سائدة عند الشعوب البدائية حيث كان الزوج يختطف زوجته سرا (أو يتظاهر باختطافها عنوة من أحضان أمها). كذلك راجت حول هيرا أساطير كثيرة في جزيرة يوبويا حيث يقال أيضاً إنها عاشت فترة من شبابها وأنها هربت مع زيوس من هناك لكي يتزوجا عند جبل كيثايرون (قرب بلاتيا) في بويوتيا، ولو أن مدناً أخرى كيوبويا نفسها وأثينا وهرميوني وأرجوس وأركاديا وحتى كريت زعمت بأن الزواج المقدس بين هيرا وزيوس قد تمت مراسمه على أرضها . وقد راجت في بويوتيا أسطورة تقول إن هيرا تنازعت ذات مرة مع زيوس وهربت منه واختبأت قرب بلاتيا. وهدد كبير الآلهة بأنه سيتزوج بامرأة أخرى وأتى بكتلة من خشب وجعلها في صورة عروس . وما أن سمعت هيرا بذلك حتى جن جنونها وانهالت على العروس تمزقها فلما اتضحت لها الخدعة، حل الوئام محل الخصام وعاد الصفاء. وعلى أي حال فإن هذه الأسطورة كانت سبباً (aition) في نشأة ذلك العيد المسمى عيد ديدالا (Daedala) حيث كان ينظم موكب عرس تحمل فيه كتلة من الخشب مزركشة بأدوات زينة العروس. ويسير الموكب إلى جبل كيثايرون حيث كانت تقام كومة عالية تحرق فيها كتلة الخشب بعد تقديم القرابين لزيوس وهيرا . ولدينا أدلة وفيرة على انتشار عبادة هيرا في أنحاء كثيرة من العالم الهلليني سواء بمفردها أو مع زيوس .

كانت هيرا برغم متاعبها الزوجية بسبب عدم وفاء زيوس لعهد الزواج ، وبرغم أنها لم تنجب منه إلا إلهاً أوليمبياً واحداً ، ربة الزواج وراعية النساء وكل ما يتصل بحياتهن الجنسية كالحمل والولادة والرضاعة . وكانت بوصفها ربة للزواج تلقب بألقاب مناسبة مثل زوجيا (Zugia) أي التي تربط الرجل

والمرأة برباط الزواج ، وجاميليا (Gamelia) أي راعيـــة الزواج الشرعي المصحوب بالمراسم الدينية . وكان يوجد عند الأثينيين شهر مقدس لها يسمى جاميليون (Gamelion) أي « شهر الزواج »(ويقابل تقريباً يناير/كانون الثاني) وفيه كان يقام احتفال يسمى عيد الزواج المقدس (theogamia = heiros gamos) وكانت هيرا – على نحو ما ذكرنا – راعية للنساء وحياتهن الجنسية وولادتهن . ولقد قيل إنها كانت ربة للقمر . لكن الصحيح هو أنها اكتسبت بعض صفات ربات القمر لأن القمر – على ما يظن – له تـأثير على دورة النساء الشهرية [١] . وإذا لقبت هيرا في بلدة مثل استيمفالوس(في أركاديا)بالفتاة (Pais)والزوجة (Teleia) والأرمل (Chêra) فإن هذا لا يعني سوى أن النساء جميعاً – على اختلاف أوضاعهن – كن يبتهلن إليها ويسألنها العون في ساعات الشدة . وقد اشتهرت هيرا أيضاً – كأرتميس وهكاتي وابنتها ايليثويا – بمساعـدة النساء عند الوضع (Locheia) ، وبحضانة الأطفال وإرضاعهم وتربيتهم . لكننـا نعرف أن ابنتها إيليثويا (Eilithyia) أو إيليثيا كانت ربة الولادة . فما الذي حدث؟ هناك احتمالان إما أن هيرا بوصفها ربة كبرى انتحلت لنفسها اختصاص ابنتهـا الربة الصغرى فصارت هي ربة الولادة أو أنها (أي هيرا) كانت أصلاً صاحبة هذا الاختصاص ثم اصطنعت ربة صغيرة مستقلة وعهد إليها بهذا الاختصاص. وأيا كان الامر فقد اعتبرت هيرا صنواً لابنتها إيليثويا، أي مثلها ربة للولادة أو ربة « قابلة » تعين النساء على الوضع .

---

(١) جعل الرومان من ربتهم جونو صنوا لهيرا اليونانية . وكانت مثلها ربة للولادة وقـــد لقبت جونو بلقب لوكينا (Lucina) أي « ربة النور » لأنهـــا كانت تساعد على أن يرى الأطفال نور الدنيا . ولعل ارتباط جونو بالولادة والنور هو ما جعل بعض القدمـــاء والمحدثين يعتقدون بأنها كانت « ربة القمر » أو كان لها على الأقل صلة بالقمر .

ويعتقد بعض الباحثين أن هيرا لم تكن فقط ربة للزواج والولادة وما يتصل بحياة النساء الجنسية بل كانت من قبل ربة لخصب الأرض ، وخصب الحيوان ، أي كانت مثل كثيرات غيرها من الآلهات (والآلهة) ترمز لنمو النبات ودورته في الطبيعة ، ووفرة الحيوان من مواش وأغنام لكن هذه الصفة احتجبت في العصر الكلاسيكي وراء صفتها كربة للزواج والولادة . ويسوق هؤلاء البعض من الباحثين أدلة لتأييد وجهة نظرهم هذه . ومع أنها ليست كلها مقنعة ولم تحظ بعد بإجماع المتخصصين إلا أننا لا نرى بأساً من إيرادها . ومن بين هذه الأدلة أن هيرا كانت تعبد في أرجوس باسم ربة النير Zeuxidia (الذي يشد إليه الثور) وباسم « الغنية بالثيران » ، وأنه كان يحتفظ بمعبدها في هيرايوم (قرب أرجوس) بقطيع مقدس من البقر . كذلك توجد أساطير كثيرة عن تقمص هيرا شكل البقرة مثل إيو (Io) التي مسخها زيوس بقرة في حكاية أخرى كي لا تتعرف عليها هيرا لكن الحيلة لم تنطل عليها وكشفتها ولاحقت المسكينة بذبابة ظلت تلسعها حتى هربت إلى مصر . وفي الإلياذة توصف هيرا « بذات عيني الثور» . وكانت الماعزة حيواناً مقدساً لها . وكانت سنابل القمح — وفقاً لرواية كاتب متأخر من العصر البيزنطي — تسمى «زهور هيرا». ورأى الكاتب اليوناني الرحالة باوسنياس (القرن الثاني م) في أرجوس معبداً لهيرا ذات الزهور أي ربة الزهور (Hera Antheia) ، وقيل عن الربة أنها كانت تهوى السوسن بوجه خاص . وعندما أدى لبن هيرا إلى نشأة المجرّة (في الفلك) — وفقاً لأسطورة أخرى من العصر المسيحي — سقطت بعض قطرات منه على الأرض فنبتت زهور السوسن حيث سقطت . ويتألف الإكليل الذي يزين رأس هيرا على نقود أيليس وأرجوس من أزهار السوسن . وكانت بعض الأزهار مقدسة للربة باعتبار أن هذه الأزهار تحتوي على خصائص طبية ذات أهمية خاصة للنساء إذ تنظم مجيء الدورة الشهرية أو تستعمل كعلاج من

العقم . لعلها كانت إذاً – كما يذهب هذا الفريق من الباحثين — في الأصل ربة للأرض وخصبها . لكن هذه الصفة احتجبت وراء صفتها كربة للزواج والنساء والولادة . وليست طبيعة هيرا الأصلية بذات أهمية حيث أن الإغريق غيروها أو بالأحرى غيرها هوميروس الذي رسم لها صورة أخرى ظلت منطبعة في الأذهان . فهو الذي حدد إطارها للأجيال التالية: حدده بأنها زوجة زيوس الأوليمبية دون أي صفات متصلة بالأرض أو باطنها أو خصوبتها أو ثمارها وزهورها . لكن من الغريب أن هيرا ربة الزواج التي تساعد غيرها من النساء على الوضع لم تنجب هي نفسها من زيوس سوى إله أوليمبي واحد هو أريس (إله الحرب) ، وهو إله لا يقوم بدور كبير في الإلياذة ، بل كان إلهاً بغيضاً ومبغوضاً حتى من أبويه ، وسوى ربتين صغيرتين ضئيلتي الشأن هما هيبي (Hebê) ربة الشباب ، وإيليثيا (Eilithyia) ربة الولادة التي انتحلت أمها وظيفتها فحجبتها. بل إن عالماً كبيراً مثل فارنل يشك في أن يكون حتى هؤلاء الأبناء الثلاثة منحدرين من صلب الزوجين الملكيين زيوس وهيرا . وأما هيفايستوس فقد أنجبته هيرا دون شريك ذكر أي دون معاونة زيوس . وكان إلهاً مشوهاً تبرأت منه أمه وتبرأ هو منها .

ولا يبقى بعد ذلك سوى بعض نوادر وحكايات طريفة عن هيرا وغيرتها التي تحدث بها كل الكتاب والشعراء. إذ تظهر هيرا في كثير من الأساطير إن لم يكن في أغلبها في صورة الرقيبة على حركات زوجها زيوس وسكناته . ذلك أن زيوس كبير الآلهة لم يكن على جلال قدره وسمو منزلته زوجاً مخلصاً فكان يتحايل بشتى الطرق للاتصال بغيرها من الآلهات وغير الآلهات . ومن ثم فقد أضاعت هيرا معظم وقتها في تعقبه لكشف خدعه والإيقاع به والانتقام من عشيقاته مما انتحلن من أعذار لتبرير مسلكهن. وكان يزيد مهمتها صعوبة قدرة زيوس على أن يتقمص أي شكل يشاء ادمياً أو حيوانياً مما يجعل من المتعذر

كشفه . وليت الأمر وقف عند هذا الحد . فقد كان زيوس مزواجـاً ، الأمر الذي أثار الغيرة الشديدة في قلب زوجته فكرست كل جهدها للكيد لزوجاته وابنائه منهن . وقد ناصبت هؤلاء الغريمات وابناءهن العداء الشديد ، وانطوى صدرها على حقد دفين على ليتو أم أبوللون وأرتميس وعلى سيميلى أم ديونيسوس، وألكميني أم هيراكليس . بل إن هيرا كانت تغار حتى من الأبناء الذين أنجبهم زيوس دون الاتصال بغيرها من الآلهات . حدث ذلك مثلاً عندما أنجب زيوس أثينة من رأسه على نحو ما روينا [1] . فقد حقدت عليه هيرا لأنه أنجب أثينة من رأسه دون الأتصال بها ، وهي زوجته الشرعية . وتملكهـا الغضب فسعت هي الأخرى إلى إنجاب أبناء دون معاونته ، أي بمعجزة دون أن يمسها بشر لأنها بوصفها ربة للزواج والزواج المقدس لم تحاول أبداً تدنيس فراش الزوجية . فلما بلغهـا نبأ ميلاد أثينة العجيب (وهو مرسوم على إفريز معبد البارثنون) لما بلغها النبأ صاحت في مجمع الآلهة غاضبة « أنصتوا إلي ، أيها الآلهة وأيتها الآلهات ، انصتوا جميعاً وانظروا كيف يجلب لي زيوس العار والمهانة ، وهو أول من يفعل ذلـك العمل المشين بعد أن صرت زوجتـه . لقد أنجب وحده أثينة التي هي قرة عين أبيها والآلهة الخالدين بينما ابني هيفايستوس الذي أنجبتـه ، ولد مشوهاً قميئاً فأصبح وصمة في جبين أوليمبوس . ولا أخفي عليكم أنني ألقيت به في البحر . لكن ثيتس ، ابنة نيريوس ، تلقفته وعنيت به هي وأخواتها . وليتها أدت لنا خدمة أخرى ! أي زيوس ، أيها الوحش المخـادع ، كيف اجترأت على أن تلد أثينة ؟ أو لم يكن في وسعي أن أنجب لك طفلاً ؟ أو لست أنا زوجتك ؟ إنني سأعمل من الآن على أن أنجب ابنا سوف يكون دُرّة بين الآلهة . وسأفعل ذلك

---

١ ـ راجع ص ٢١٩ هامش ٢ فيما تقدم.

دون أن أدنس فراشك أو فراشي . ولن أتصل بك بعد اليوم . لسوف أهجرك » .

وانتبذت هيرا مكاناً قصياً عن سائر الآلهة ثم ابتهلت ضاربة الأرض براحة يدها قائلة « أي جايا وأورانوس ، ربة الأرض ورب السماء ، استمعا إلي من عليائكما . وأنتم أيها التيتانيس الجبابرة ، استمعوا إلي يا من تسكنون في ترتاروس بأسفل الأرض ، أنتم يا أجداد الآلهة والناس ، أعيروني آذانكم جميعاً ، وهبوني أبناً لا يكون أضعف من زيوس نفسه . وكما كان زيوس أشد بأساً من أبيه كرونوس ، أجعلوا ابني أشد بأساً من زيوس » . وضربت الأرض بيدها القوية فسرت رعدة في أوصال جايا ، مصدر الحياة ، كل الحياة . وانشرح قلب هيرا لأنها أدركت أن جايا استجابت لدعائها وحققت أمنيتها . ومنذ ذلك الحين لم تضاجع هيرا زيوس عاماً بأكمله ولم تجلس بجواره حيث اعتادت أن تجلس وتشاوره الأمر . وأقامت في المعابد تستمتع بما يقدم لها من قرابين . وبعد أن مر حول جاءها المخاض فوّلدت مخلوقاً لا يشبه الآلهة أو الناس. وكان هذا المخلوق هو تيفاون (Typhaon)، التنين الرهيب الذي كان وبالاً على البشر . وحملته هيرا إلى دلفي حيث عهدت به إلى التنينة بيثون (Python) ، تلك الأفعى الهائلة الرهيبة التي صرعها أبوللون ، إله السهم ، بسهمه الذي لا يطيش .

وثمة قصة أخرى عن هيرا . فقد أحست هيرا بالخزي من ابنها هيفايستوس الذي ولد فجأة مشوهاً قميئاً الأوان قبل . ولذلك نبذته منكرة أنها أمه . وأثار ذلك حقده الدفين عليها . وكان يعهد إليه بوصفه أمهر الصناع ، صناعة عروش الأرباب . وفي ذات مرة أرسل عرشاً جميلاً إلى هيرا التي اغتبطت بالهدية وجلست على العرش في زهو واعتزاز . لكنها سرعان ما وجدت نفسها مقيدة بسلاسل خفية . ولم يلبث العرش نفسه أن ارتفع بها وهي مصفدة عليه بالأغلال

إلى أعلى الفضاء . ولم يستطع أحد أن يفك أسارها . وساد الذعر بين الآلهة . وقد أدركوا جميعاً أن الحيلة من تدبير هيفايستوس فبعثوا إليه برسالة يرجونه فيها ضرورة الحضور لتخليص أمه من الشرك . لكنه أجابهم في عناد بأنه ليس له أم . وانعقد مجلس الآلهة للتشاور فيما ينبغي عمله . وخيم الصمت على الجميع ولم يدروا كيف يحملون هيفايستوس على الحضور إلى أوليمبوس . وأنبرى أريس ، إله الحرب ، ليضطلع بالمهمة . وقد خاض معركة عنيفة مع هيفايستوس بالمزاريق والحراب . لكنه ارتد مدحوراً أمام اللهب الذي قذفه به رب النار والبراكين . وعاد أريس يخفي حنين منهزماً محسوراً . وأما بقية القصة فقد وصلتنا مصورة في رسوم بديعة على الأواني الخزفية . ومن هذه الرسوم يتبين أن ديونيسوس ،إله النبيذ ، وابن زيوس من سيميلي،هو الذي استطاع أن يحضر هيفايستوس إلى منزل الآلهة . فقد احتال عليه بأن قدم له نبيذاً أثمله وأفقده وعيه. ثم أركبه بغلا ورافقه إلى أوليمبوس كأنه يسوقه في موكب من مواكب النصر . ولا مراء في أن الآلهة قد ضجوا بالضحك عندما شاهدوا الصانع الماهر وهو يترنح مخموراً . لكن هيفايستوس لم يكن ثملا إلى الحد الذي يجعله يطلق سراح أمه دون مقابل . فقد أصر على أن يظفر بأفروديتي زوجة له أو بربة أخرى كأثينة . غير أن هيفايستوس القبيح الأعرج لم ينل أبداً الحظوة لدى الآلهات . وعلى أي حال فقد أخلى سبيل هيرا بعد تحطيم الأغلال .

وقد اشتهرت هيرا بعداوتها لطروادة والطرواديين وبذلت قصارى جهدها لإلحاق الهزيمة بهم وتدمير مدينتهم . ولاحقت بكراهيتها آينياس الطروادي الذي نجا من حريق طروادة ، وجعل منه فرجيل ، شاعر الرومان ، بطلا للملحمة الآينيادة . ولعل كراهيتها للطرواديين ترجع إلى القصة المشهورة باسم « قضاء باريس » التي قيل إنها كانت السبب الأصلي للحرب الطروادية لأن باريس ابن برياموس ملك طروادة حكم أو قضى بأن تكون«التفاحة الذهبية»لأفروديتي

دون أثينة وهيرا مثيراً بذلك على بلده وأهله غضب هيرا وحقدهـــا الدفين .

هاديس : Hades = بلوتون : Ploutôn : (١) :

وبينما كان زيوس إله السماء والفضاء والضوء كان أخوه آئيديس (Aïdês) أو هاديس إله العالم السفلي المظلم حيث كانت تذهب أرواح الموتى وفقـاً لتصور الإغريق . كان إله الموتى لا الموت نفسه المسمى عندهم ثناتوس (Thanatos). واسم هاديس أو آئيديس معناه غير المنظور أو الخفي الذي لا تراه العين. واسم هاديس هو اسم الإله نفسه وأما اسم عالم الموتى فيسمى « بيت هاديس » .وقلما كان هاديس يغادر مملكته الموحشة ليزور أهله في أوليمبوس ولا كان هنـــاك من يدعوه إلى زيارته إذ كان ضيفاًثقيلاً وزائراً غير مرغوب فيه.وكان يلقب بمضيف الأرواح الكثيرة (Polydegmôn) وبغيره من ألقاب الإطراء أو المجـــاملة أو المداهنة لا لشيء إلا لأن الإغريق كانوا يتحاشون الحديـث عن الموت سواء فيما يتصل بهم أو بأقاربهم وأصدقائهم وكانوا يشيرون إلى الموتى بكلمة «الراحلين» أو المباركين (makaritai) . وقلما كان اسم هاديس يرد على الألسنة فهو نذير شر فضلاً عن أنه لم يكن له دخل أو صلة بالأحياء اللهم عندما يتوسل الأحيـــاء إليه من أجل أقاربهم الموتى . ويتبين من وصف الأدباء والشعراء أنه كان إلهاً متجهم الوجه ، جامد القسمات ، رهيباً ترتعد منه الفرائص فرقاً، عنيداً لا يلين صارماً لا يرحم. ولا يعني هذا أنه كان يمثل الشر أو شريراً فليس هناك شيطان في أساطير اليونان . ولا كان هو المعذب الحقيقي للمذنبين ، فتلك كانت مهمة موكلة للإرينيس (Erinyes) (٢) ، ربات القصاص والانتقام أو إن شئت الدقة

---

(١) هاديس هو أوركوس(Orcus)، وبلوتون هو بلوتو (Pluto) أو ديس (Dis) عند الرومان . واللقب الأخير صورة مدغمـــة من الصفة اللاتينية (dives) بمعنى الغني أو الثري .

(٢) هن الفوريای (Furiae) عند الرومان .

هن أشباح المقتولين ظلماً أو اللعنات المجسدة ، وإنما يعني أن عقابه كان شديداً على المجرمين وأنه يحكم مملكة الموتى بحزم بل بقبضة من حديد فلا يسمح لأحد بالخروج من مملكته بعد دخوله ولا بدخولها إلا لقلة قليلة من المصطفين. ولم تكن له تحت اسم هاديس عبادة في بلاد اليونان إلا في إيليس . ولا نسجت حوله أساطير سوى أسطورة قدر لها أن تكون من أهم الأساطير . وإذا كان ولا بد من أن يعبد فلتقدم له الخراف السوداء قرباناً. وكان على من يتقدم بالقربان أن يشيح بوجهه عن مذبح الإله لأن أحداً لا يجسر على التطلع إلى وجهه. ونجد رأس هاديس مرسومة على إناء فخاري وهي مدارة إلى الخلف لأنها رأس من لا ينبغي لاحد أن يمعن فيه النظر ؛ رأس الإله الرهيب الذي يوري الاحياء ويحجبهم عن الانظار. وفي الواقع إنه قلما يرسم في الفن.وإذا رسم فهو لا يختلف في شكله عن زيوس إلا في قسمات الوجه . لكنه يشبه زيوس تماماً عندما يكون الاخير مرعداً . وفي الحق إن هاديس كثيراً ما يسمى « زيوس » مع تمييزه عنه بلقب يدل على وظيفته ، بل إن زيوس يخرج أحياناً عن دائرة اختصاصه في السماء والفضاء ، ويمده إلى باطن الأرض ، إلى العالم السفلي أو عالم الأموات .

وأما عن لقبه الآخر « بلوتون » أي « الغني » فهو مشتق من لفظ بلوتوس (ploutos)اليوناني بمعنى ثروة أو ثراء.وقد لقب كذلك لأنه ملك باطن الأرض، مصدر الثروة الزراعية ولا سيما القمح . فهو « الثري » أو « مانح الثروة » . هذا سبب والسبب الآخر أنه تزوج من الفتاة « كوري » ابنة ديميتير ربة القمح . وفي التصور الإغريقي كانت وظيفتا الأرض كمستقبلة للبذرة التي تنبت فيما بعد وتصبح ثمرة ذات حياة خصبة جديدة ، وكموطن لأرواح الموتى ، كلتاهما كانت مرتبطة بالأخرى. فالإله بلوتون « الثري » أو خازن ثروة الأرض النباتية هو نفسه هاديس « إله الموتى » أو خازن أرواح الموتى . وكانت زوجته هي ابنة ديميتير التي كانت تعرف باسم كوري (Korê)أي الفتاة أو الصبية. وبهذه